لوبي العجز العربي!

مقالاتي في جريدة البيان الإماراتية

الجزء الأول

مقالات السنوات 1998 – 2002



ممدوح الشيخ

لوبي العجز العربي!

مقالاتي في جريدة البيان الإماراتية

الجزء الأول

مقالات السنوات 1998 – 2002

ممدوح الشيخ

الكتاب:

لوبي العجز العربي!

مقالاتي في جريدة البيان الإماراتية

الجزء الأول (مقالات السنوات 1998 – 2002)

المؤلف:

ممدوح الشيخ

الناشر:

المؤلف

الطبعة الأولى يناير 2022.

هذه المقالات ... هذا الكتاب

هذه المقالات تجربة في الكتابة الصحفية أعتز بها، بدأت في العام 1998، ومنحتني فرصة كنت في حاجة إليها لاستكمال أدوات "المحلل السياسي"، وخلال سنوات غيرت إيقاع قراءاتي ووجهتها، وشحذت حدسًا سياسيًا مكنني من التقاط ما يصلح أن يكون موضوع مقال، وتلك خبرة تصقلها الممارسة. والعلاقة مع جريدة "البيان" امتدت حتى الأزمة المالية العالمية (2008)، وبسببها قررت إدارة الجريدة إنهاء علاقتها بعدد من الكتاب كنت أحدهم، ضمن إجراءات تقشف واسعة. وبنهاية التجربة كنت قد كتبت على صفحات الجريدة المرموقة مئات المقالات. واليوم – إدراكًا مني – لطبيعتها التحليلية فقد عزمت على جمع المقالات في كتاب، وبعضها يتناول قضايا ذات طبيعة فكرية أو ثقافية، وقسم منها، قد يكون من المفيد استكشاف مدى دقة استشرافها، بعد مرور سنوات على نشرها.

وفي الحقيقة فإن الكتاب شهادة على سنوات من الحرية المهنية الواسعة التي عايشتها بنفسي في صحافة دولة الإمارات – ممثلة في جريدة البيان – قبل أن تشهد تغيرات كبيرة. والمقالات – مجموعة بين دفتي كتاب – محاولة لتوثيق تجربة شخصية، وهي أولًا وأخيرًا ملك القاريء.

ممدوح الشيخ

يناير 2022

في الذكرى الخامسة لوفاتها:
أوسلو واحدة تكفي! ([1])

كان اسحاق رابين يرى اتفاقية أوسلو نهاية لصراع عمره مائة عام، وكان آخرون يرونها نهاية لصراع عمره ربع قرن هو عمر منظمة التحرير الفلسطينية (أو أقل قليلًا من عمرها) فلم تكن القضية الفلسطينية تنتظر ظهور المنظمة حتى تحصل على شهادة ميلادها، ولم تكن لتقضي نحبها حتى لو قررت ذلك المنظمة. وخلال خمس سنوات هي عمر هذه الاتفاقية، انقسم المحللون بين مؤيد ومعارض لها.

ورغم أن الفترة التي مرت منذ تولي بنيامين نتانياهو رئاسة حكومة الكيان الصهيوني إلى الآن أكدت أن الاتفاقية ماتت بالسكتة القلبية، إلا أن تقييمها التقييم النهائي متروك للتاريخ. وتظل دروسها وعبرها أجدر بالتأمل والتحليل من نصوصها ونتائجها.

وقد طرحت الاتفاقية على الفلسطينيين قضية آليات اتخاذ القرار الفلسطيني، ومستقبل التمثيل الفلسطيني. ففي خطاب استقالته من المنظمة قال الشاعر المرحوم محمود درويش: "**إن هذه المنظمة، بهيكلها وبنيتها وأشخاصها وربما بمحتواها قد انتهت.. سواء بكى البعض منا عليها أو فرح البعض بنهايتها**".

([1]) نشر في **17 /9/ 1998**.

هل تأجلت النهاية

في تحليلهم لأسباب إقدام المنظمة على قبول الاتفاقية، ذهب بعض المحللين، وبينهم قياديون فلسطينيون، إلى أن الخوف من تيارات سياسية فلسطينية أكثر جماهيرية في الشارع الفلسطيني هو الدافع الرئيس لإقدام المنظمة على ذلك، بل يذهب مُحَمَّد حسنين هيكل إلى أن الوفد الفسطيني في مدريد وواشنطن ظهر كأنه مشروع قيادة فلسطينية جديدة ولامعة، لكن قيادات المنظمة كان من بينها من عناهم إظهار أن المفاوضين لا يملكون التوقيع!!

وإذا صح هذا فإن الاتفاقية كانت على هذا الصعيد محاولة لتأجيل النهاية التي كانت تبدو محتومة، إذا قارنا بين المنظمة وفصائل فلسطينية أخرى لها رصيدها الضخم في الداخل. وقد التقت هذه المخاوف التي تجذرت في السنوات الأخيرة في وعي قيادة منظمة التحرير مع هدف صهيوني يعد من ثوابت الرؤية الصهيونية، هو ضرورة منع قيام أي كيان فلسطيني ديمقراطي حيث الديمقراطية تقوي الفلسطينيين، فيما يريدهم الكيان الصهيوني ضعفاء. فعندما يكون تقرير مصير الشعب الفلسطيني في يد خمسة أشخاص (على حد تعبير بلال الحسن) فإن التفاهم معهم يكون بغير شك أيسر من مواجهة الملايين الغاضبة.

الإصلاح قبل التفاوض

وقد أدت المفارقة الضخمة التي عكسها سلوك منظمة التحرير الفلسطينية، إلى طرح قضية القرار الفلسطيني على الرأي العام. فقبل أن تقع كارثة أوسلو، وفيما المفاوضات العلنية دائرة في واشنطن، وجه حيدر عبد الشافي رئيس الوفد الفلسطيني المفاوض رسالة للجماهير الفلسطينية طالب فيها بقيادة فلسطينية جماعية على أسس ديمقراطية، وتبعه فيصل الحسيني، فطالب بحكومة إنقاذ وطني تواجه الانهيار الشامل في المؤسسات الفلسطينية.

وقد فشلت كل المحاولات الدعائية التي بذلتها المنظمة في ستر الفضيحة، فبينما فسرت كل صيحات الاحتجاج والرفض بأنها ردًا على تخفيض المخصصات المالية التي تمنحها المنظمة للقيادات، جاء الرد من الشارع الفلسطيني ليؤكد أن القرار الفلسطيني يترنح، وأن الاصلاح يأتي في المقدمة قبل التفاوض.

ففي استطلاع للرأي أجري في أغسطس 1994، وبعد أقل من عام من توقيع الاتفاق أجرت شبكة **سي إن إن** الأمريكية بالاشتراك مع التلفزيون الهولندي ومركز القدس للإعلام والاتصال، استطلاعا للرأي في الضفة وغزة تضمن أسئلة عديدة حول المفاوضات ووضع القدس وغيرها من القضايا، وردًا على سؤال نصه: (هل ترى ضرورة لاصلاحات ديمقراطية في منظمة التحرير الفلسطينية؟) أجاب 88.7% من عينة الضفة الغربية بـ "**نعم**"، مقابل 5.8%، وفي القطاع كانت نسبة الموافقين 83.6% مقابل 8.2% رفضوا.

الأسوأ من المؤامرة

أن يذهب البعض في تقييم اتفاقية أوسلو إلى أنها مؤامرة شاركت فيها منظمة التحرير، فهذا رأي قابل للنقاش أخذا وردًا، أما ما كشف عن خلفيات عملية التفاوض السري فهذا أكثر سوءًا من المؤامرة، ليس مقارنة بما كان بالامكان الحصول عليه في هذا التوقيت أو قبله، ولكن مقارنة بما ينبغي أن يكون عليه سلوك أي فريق في أي عملية تفاوض.

فقبل المفاوضات السرية، ومع بدء مؤتمر مدريد طلبت منظمة التحرير الفلسطينية من فرانسيس بويل أستاذ القانون الدولي في جامعة الينوي الأمريكية دراسة قانونية عن مفاوضات الحكم الذاتي، ثم خالفت عمدًا كل ما أوصت به هذه الدراسة. ففيما يتصل بأسلوب التوقيع نصحت الدراسة بالتوقيع بالأحرف الأولى أولًا، ثم عرض الاتفاقية على

المجلس الوطني الفلسطيني الذي يقوم بتفويض الوفد المفاوض بالتوقيع النهائي عليها، وضرب عرفات عرض الحائط بهذه التوصية وعرض الاتفاقية قبل توقيعها نهائيًا على اللجنة التنفيذية للمنظمة، وقبل أن تعلن اللجنة عن رأيها كان البيت الأبيض يدعو الرؤساء لحضور حفل التوقيع، في إشارة واضحة إلى أن القرار الفلسطيني معروف سلفًا، واكتملت المأساة بالموافقة على الاتفاقية في اجتماع لم يتحقق له شرط النصاب القانوني.

وقبل التوقيع والتصديق حفلت المفاوضات بأخطاء فادحة تقرع جرس الإنذار لتنبه إلى ما يكتنف الأداء الفلسطيني الرسمي من قصور يتجاوز خلافات الرؤى السياسية، مهما بلغت درجة التباين بينها. فمثلًا لم يكن في وفد التفاوض الفلسطيني خبير قانوني، ولهذا فإن النصوص الأصلية للاتفاق صاغها (يونيل سنجر) أحد خبراء الإدارة القانونية في وزارة خارجية الكيان الصهيوني. وكان الطرف الفلسطيني يحاول قدر استطاعته أن يختار الصياغات التي "**يميل**" إلى أنها أكثر أمنًا، فوقعت أخطاء لم يكن حدوثها ممكنًا إلا في مفاوضات كهذه!!

بدون إرادة .. ولا شرعية!

الحديث عن ديمقراطية القرار الفلسطيني ليست ترفًا، فأي اتفاق سياسي بين طرفين لا يمكن أن تكتب له الحياة ما لم يتوفر له شرطان أساسيان: الارادة الحرة، والمشروعية السياسية، والطرف الصهيوني في كل مشروعات التسوية يفاوض من موقع القوة، وينطلق عن ارادة حرة ويمثل دائما أغلبية سكان الكيان الصهيوني، أما الطرف الفلسطيني، فيفتقر إلى الشرطين معًا.

والصهاينة يستغلون ذلك على كل المستويات، فعندما يتحدثون إلى الرأي العام الغربي يفسرون استمرار تضخيم آلة الحرب الصهيونية رغم توقيع اتفاقات تسوية مع أطراف عربية بأن الحكومات التي وقعت معهم حكومات عسكرية لا تعبر عن شعوبها، وقد تأتي

الانقلابات العسكرية بآخرين ينقضون هذه الاتفاقات. وعندما يتحدثون إلى الحكام العرب يطالبونهم بضمانات مبالغ فيها خوفا من هذا الاحتمال وهكذا.

وأخطر ما يؤدي إليه النهج الفردي في اتخاذ القرار الفلسطيني اضطرار القائد الفرد إلى إحاطة نفسه بمن يقبلون التنازل عن حقهم في المعارضة، مقابل وضع خاص، فتظهر أمراض الفساد والطغيان. ولذا لم يكن غريبًا أن تزكم الأنوف بروائح الفساد الآتية من سلط الحكم الذاتي قبل أن تمر سنوات معدودة على توقيع الاتفاق.

فالاستئثار بالقرار فادح الثمن على كل المستويات وتكفينا في تاريخنا أوسلو واحدة!.

من شجرة الكرز الى ثوب مونيكا ([2])

وسط صخب إعلامي ضخم أثير حول قضية مونيكا جيت لا مفر من قدر من التحليل الهادئ لهذه القضية التي يشتبك فيها السياسي بالقانوني، ويختلط فيها الشخصي بالقومي، فالبعد الأخلاقي للنقاشات الدائرة الآن خارج الولايات المتحدة وداخلها أكثر أهمية من المناقشات الاجرائية التي لا تهم إلا المواطن الأمريكي، وخصوصا أنها قد تفضي – احتمالًا – إلى عزل الرئيس الأمريكي.

فرغم أن صورة المجتمع الأمريكي تبدو من خلال الثقافة التي تصدرها هوليوود صورة مجتمع متفسخ غارق في الملذات، بدءًا من الكوكاكولا وانتهاء بالشذوذ الجنسي، فإن الحقيقة تخالف "**الصورة**" في بعض التفاصيل.

فسمات التدين المحافظ في أمريكا ترتبط بالنشأة البيوريتانية (التطهيرية) للمجتمع الأمريكي. وقد أسس الرواد المهاجرون من انجلترا بنية تقوم على النقاء الديني والحرية، واستغل المحافظون سمات التدين المحافظة في تقييد السلوك العام للأشخاص، كما استغلها الليبراليون في ضبط (السلطة العامة) منذ بداية القرن التاسع عشر مع تفجُّر فضيحة جنسية للرئيس توماس جيفرسون (الرئيس الثالث)، واضع الدستور، الذي قال عبارته الشهيرة: "**إنهم يريدون خصيًّا في البيت الأبيض**".

([2]) **نشر في الملف السياسي في 18/ 9/ 1998.**

الدين والأسرة

والشعب الأمريكي أكثر محافظة من أسلافه الأوروبيين بوجه عام، فحوالى 95% من الأمريكيين يؤمنون بوجود الله، كما أن 82% من الأمريكيين يعتبرون أنفسهم أشخاصًا متدينين مقابل 55% في بريطانيا، 54% في ألمانيا، و48% في فرنسا.

وبعكس ما هو شائع فإن الأمريكيين والأمريكيات يقدسون العائلة عمومًا، وقد أظهر المسح الوطني للصحة والحياة الاجتماعية (1994) أن نسبة الرجال الذين مارسوا الجنس خارج الزواج 22%، بينما انخفضت بين النساء إلى 12%. وقد شهدت العقود الماضية صحوة دينية ضخمة في الولايات المتحدة الأمريكية وبخاصة بين الإنجيليين والكاثوليك، ويعد عهد ريجان فترة ذهبية وجدت فيها هذه التيارات الدينية اتجاهًا رسميًا أمريكيًا تبنى مواقفها الاجتماعية والسياسية على السواء.

وقد بدأت هذه التيارات بالسيطرة على التنظيمات الاهلية المحلية، وصولًا إلى الحزبين الديمقراطي والجمهوري، ليقوضوا القواعد الجماهيرية للتيارات الإباحية العلمانية في المجتمع الأمريكي. ومع امتلاك التيارات الدينية شبكة ضخمة من محطات البث الإذاعي والتلفزيوني والمطبوعات، استطاعت اجتذاب عشرات الملايين من الأمريكيين في صفوفها، ولهذه الجماعات موقف معاد من بيل كلينتون الليبرالي الذي أتى إلى البيت الأبيض بأصوات الشواذ جنسيًا.

بورصة الانحرافات

ورغم القوة الجماهيرية الهائلة التي أحرزتها هذه التيارات، فان معركة رئاسة الجمهورية لم تزل بعيدة المنال بالنسبة لها، ولم تستطع أن تنافس النخبة العلمانية التي تحترف العمل السياسي وتعرف أسرار اللعبة الانتخابية. وقد سعت هذه التيارات خلال السنوات القليلة الماضية إلى تقويض امبراطورية محترفي العمل السياسي من خلال الدعوة إلى عضوية

الكونجرس على دورتين فقط، الأمر الذي يعنى فتح الباب أمام رموز الحركة لخوض معركة الانتخابات في الدوائر التي احتكرها بعض المحترفين لعقود طويلة.

ولكون المتنافسين نخبة علمانية متحررة والناخبين جماهير بينها أغلبية دينية، فإن الفضائح الجنسية تصبح سلاحًا خطيرًا في مجتمع مفتوح. وقد استخدم الجمهوريون سلاح المحافظة في المعركة الانتخابية التي فاز فيها كلينتون بالرئاسة لفترة ثانية فاطلقوا شعار: "**معركة الاخلاق والاستقامة والسلوك ونظافة اليد**". وإذا أخذنا المعركة الانتخابية السابقة مثالًا وجدنا كمًا ضخمًا من الفضائح الجنسية كان لها أثر كبير في مسار المعركة.

فهناك فضيحة ديك موريس المستشار السياسي لكلينتون الذي احتفظ إلى جانب زوجته بعشيقة أنجب منها طفلة، وكانت له صلة دائمة بعاهرة يدفع لها في الساعة الواحدة 200 دولار وكان يعرض عليها مسودات خطابات كلينتون. ورغم أن ديك لم يكن رئيس الجمهورية ولم يكذب تحت القسم، ورغم أنه كان أهم مستشاري كلينتون على الإطلاق فقد استقال من منصبه.

وفي معسكر بوب دول اضطر روجر ستون أحد معاوني دول إلى الاستقالة، بعد أن كشف النقاب عن عضويته في أحد أندية تبادل الزوجات، أما نائب بوب دول، المرشح جاك كيمب فقد قضت عليه فضيحة اتهامه بالشذوذ الجنسي.

الرئيس لا يكذب

إن هذا الكم من الفضائح الجنسية التي شهدتها حملة رئاسية واحدة "**نموذجًا أخلاقيًا**"، وأنه وإن كان لم يضع حتى الآن عقوبات محددة ينص عليها قانون بشأن سلوك الرئيس، فإنه يفقد الرغبة في تأييده. وما غلبة المناقشات الاجرائية على ما ينقل في صحافتنا عن هذه الفضيحة إلا انعكاسًا لصورة المجتمع الأمريكي التي تقدمها هوليوود. ولمسألة الكذب بوجه خاص أهمية عند المواطن الأمريكي، فقبلًا أرسى الرئيس الأمريكي

جورج واشنطن تقليد أن "**الرئيس لا يكذب**"، ويرى البعض أن الأمريكيين قد يقبلون أن يكذب الرئيس في تعاملاته مع العالم الخارجي، لكنهم لا يقبلون أن يكذب على المواطنين. وفي حالة كلينتون فإن الأمر يتعلق بالقضاء، فكذب الرئيس في هذه الحالة "**خطيئة**" لأنه يعرقل العدالة. وقد افاد استطلاع للرأي نشرته الواشنطن بوست أن 63% من الأمريكيين يريدون أن يستقيل كلينتون إذا ثبت أنه كاذب.

والطريف أن البعض ينظر بعين الحسد إلى اهتمام وسائل الإعلام بقضية "**الكذب**" أكثر من اهتمامهم بقضيته "**الجنس**"، ويتمنون أن تنتقل هذه العدوى إلى واقعنا العربي، لكن الذي يغيب عن هذه النظرة أن المجتمع الأمريكي نفسه تتجه قطاعات واسعة منه إلى مزيد من التدين والأخلاق المحافظة، وأن ظواهر الإباحية والشذوذ وأشباهها هي نمط حياة شريحة من المجتمع الأمريكي، صحيح أنها ما زالت أكثر تأثيرًا، لكن الفترة المقبلة مرشحة لأن تشهد مزيدًا من الحساسية تجاه الاعتبارات الاخلاقية، ويعد آل جور نائب الرئيس وأبرز المرشحين لخلافته نموذجًا لهذا فهو محافظ، رب أسرة كبيرة بالمقاييس الامريكية، معادٍ للإباحية والشواذ، مناصر لتقوية الأسرة ودعمها، وهو ما يعني احتمال مجيء مرحلة ثانية من "**الريجانية الدينية**" لكن على طريقة الديمقراطيين هذه المرة.

الطريق الثالث.. حلف جديد بين التقدم والعدالة ([3])

الطريق الثالث كما يعرفه أحد أنصاره – توني بلير رئيس وزراء بريطانيا – "**حلف جديد بين التقدم والعدالة**"، ويشارك بلير في صياغة المشروع الجديد سياسيون غربيون عديدون بينهم الرئيس الأمريكي بيل كلينتون، ورئيس وزراء إيطاليا، وفرنسا، ومستشار ألمانيا جيرهارد شرويدر.

وأهم مدلولات هذا التغير الذي يمكن ان تكون له آثار ضخمة أنه يعني نهاية الدور الرائد للتشكيل الحضاري الانجلوسكسوني البروتستنتي (أمريكا وبريطانيا) في مسيرة الحضارة الغربية، فعبر ثلاثة قرون كان هذا التشكيل الحضاري القاطرة التي تجر الجميع خلفها.

ورغم ضخامة الانجازات التي حققها الغرب نتيجة سيره في هذا الطريق، إلا أن المرض العضال كان لا يوليه أحد الاهتمام الكافي، وفي العقود الخمسة الماضية كان الاقتراب منه يعنى تعريض صاحبه لخطر المكارثية التي تعاني منها كل الدول الرأسمالية الغربية بدرجات متفاوتة.

أما المرض فهو التعارض المغلوط المتصور وجوده بين "**الرحمة**" و"**الطموح**"، فالنزوع التعاقدي الجامح الذي يميز الرؤية البروتستنتية الانجلوسكسونية كان دائمًا يقتل "**النزوع التراحمي الإنساني**" الذي يميز المجتمعات الكاثوليكية في جنوب أوروبا، والمجتمعات

([3]) نشر في **13 /11/ 1998**.

الأرثوذكسية في شرقها، بل يفصل الرؤية البروتستنتية الانجلوسكسونية، عن الرؤية البروتستنتية الجرمانية في المانيا وهولندا وغيرها.

وخلال مرحلة الصعود كانت الرأسمالية تبدو قادرة – وحدها – على حل كل المشكلات المادية والمعنوية في حياة الانسان من خلال ترك كل شيء للمنافسة الحرة – أو بتعبير أدق المنافسة التي لا رحمة فيها – بحيث يصبح الفرد قوام كل أشكال التنظيم الاجتماعي والقانوني والاقتصادي، دون أي اعتبار للتكوينات الجماعية الأخرى، بدءًا من الأسرة وانتهاء بالجماعة.

والمفارقة الملفتة، أن المأزق الذي واجهته التجربة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي كانت الوجه المقابل تمامًا لهذا، فالحافز الفردي ثمرة محرمة لا يجوز الاقتراب منها، وهي إحدى المعضلات الخطيرة التي شاركت في تقويض بنيان هذه الامبراطورية.

ودون أن ينتبه الطرفان كانا قد أصبحا نظامين طبقيين يعتمل داخل كل منهما صراع طبقي له طرفان أحدهما مهزوم مقهور والآخر منتصر ظالم. التعارض المغلوط رصد أصله الفلسفي في محاضرة بالغة الأهمية ألقاها في مدينة يوكوهاما اليابانية 1992 المفكر المصري المرموق دكتور أنور عبد الملك، أي جذور الأزمة في مدارس الفكر والعمل الرئيسة في العالم فيقول: "**إن المستوى التحليلي السوسيولوجي الواضح سيتطلب التركيز على منهج الجماعة، روح المشاركة الجماعية بوصفه المدخل الأكثر قبولًا**".

... و"**يكمن العامل الجوهري في حقل الفلسفة في علم الوجود في فهم جوهر الكينونة ذاته ويكشف تاريخ التناقض في المدارس الفلسفية الرئيسة عن توجهين متمايزين: التصور السائد عن فكرة (التناقض) وهو المقابلة الضرورية التي لا مفر منها بين عاملين عنصرين أو أكثر مختلفين ومتمايزين، والتي تؤدي بالضرورة وبشكل موضوعي إلى الصراع بين العاملين العنصرين، بالمعنى الفكري الأطروحة ونقيض الأطروحة اللذين يحددان التركيب كنتاج لهما**".

"ذلك هو التصور السائد لمفهوم التناقض من أفلاطون إلى هيجل وماركس... ويتصل بالموضوع أن نلاحظ أن التقليد الفلسفي الرئيس الثالث الإسلامي – جنبًا إلى جنب مع التقليدين الرئيسين الأوروبي والصيني، يحتفظ بمسافة بينه وبين التصور التصادمي للتناقض ... ويميل إلى تصور تجميعي للوجود شاملًا لكل أوجهه ومتناقضاته".

وقد كتب توني بلير في المقال المشار إليه آنفًا المنشور على صفحات **الرأي العام** الكويتية يعدد أوجه التعارض المغلوط التي جاء الطريق الثالث للقضاء عليها، وهي تعكس تراجعًا عن مفهوم الصراع والتناقض التقليدي، وتطرح دعائم جديدة لتحالف جديد يوازن بين الحقوق والواجبات، وبين الرحمة والطموح، وبين اقتصاد المغامرة الفردية والهجوم على الفقر والتهميش.

ولعل قضية الفروق الاجتماعية – وهو تعبير مخفف بديل عن التفاوت الطبقي الصارخ – التي ظهرت في المجتمعات الغربية خلال العقود القليلة الماضية أهم التحديات التي تواجه مسيرة الرأسمالية الغربية، ولذا فليس غريبًا أن يدعو جاك ديلور (الذي قاد الدول الاوروبية الى الوحدة الاقتصادية والمالية) إلى "**اعتماد اطار اقتصادي للمجتمع يخفف أو يصحح الفروقات الاجتماعية مع المحافظة على مبدأ الحرية الاقتصادية**".

الهرب من الهولوكوست

إن دعوة الطريق الثالث تمثل محاولة للهرب من النموذج النازي الذي قام على التخلص من كل الفئات غير النافعة في سبيل تقدم المجتمع، وهذا المفهوم كامن في الرؤية الرأسمالية للتقدم. فلأجل مزيد من التقدم لا بأس من إلقاء الفئات الأكثر فقرًا في "**محرقة النمو**". وهذا المسعى لصياغة برنامج نمو أكثر تراحمًا قد يكون ـ إن قدر له أن يسود في الغرب ـ أهم المتغيرات في القرن العشرين على الإطلاق.

فالاقتصاد كان خلال القرون الثلاثة الماضية محرك الشرور في هذا الجزء من العالم، بدءًا من الصراع على الأسواق، مرورا بالصراع على طرق التجارة، ومصادر المواد الخام، والرقيق. وبسبب انفراد دول بعينها باقتسام الاسواق في فترة الاستعمار، وبتأثير الكساد الكبير أشعلت ألمانيا النازية الحرب العالمية الثانية. وبسبب التفاوت الطبقي ظهرت الماركسية الشرخ الأضخم في الجبهة الغربية، ونشب واحد من أعنف الصراعات الغربية/ الغربية بين المعسكرين.

والآن يبدو أن بعض العقلاء يريدون نزع فتيل القنبلة باجراء مصالحة تاريخية بين "**الفرد**" و"**المجتمع**" وبين الأغنياء والفقراء من خلال حل وسط تاريخي.

دلالات ومفارقات

تعكس دعوة الطريق الثالث دلالات عديدة فكرية واجتماعية وسياسية، منها أن دور القيادة يعود مرة أخرى للقارة الأوروبية بعد أن قادت أمريكا المسيرة الغربية، فهذه الأفكار نبتت ونشأت على يد الأحزاب (الاجتماعية المسيحية)، في أوروبا وكانت تربتها الخصبة الثقافة ذات الجذور الكاثوليكية – الأكثر تراحمًا – التي تتأهب لتأخذ مكان الثقافة ذات الجذور البروتستنتية التعاقدية.

ومن الدلالات المهمة أيضًا حديث توني بلير عن دور القطاع التطوعي في الرؤية الجديدة، ففي ظل التراكم السريع في الثروة ظهرت طبقة تسمى "**طبقة السوبر الجديدة**" في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، كرست حالة التفاوت الطبقي، لكنها تختلف اختلافًا جذريًا عن أثرياء مرحلة صعود الرأسمالية.

فليس بينهم نموذج مثل روكفلر الذي انفق في الثلاثينات 537 مليون دولار على أعمال البر، ولا نموذج مثل كارنيجي الذي ضاعف المكتبات الخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية من ماله الخاص. فالنزوع الفردي التهم قيمة التطوع، وأصبح المال، الذي يتراكم

بسرعة غير مسبوقة، يسير في اتجاه واحد ولا يعود جزء منه إلى المجتمع ليساعد غير القادرين، وهو اتجاه يهدد السلام الاجتماعي في هذه المجتمعات.

أما أهم المفارقات فيتمثل في أن الغرب، وهو يجرى مراجعة لهذه القضايا، يدفع روسيا دفعًا لتبني أكثر السياسات الاقتصادية تحررًا، ويجد في النخبة الروسية من يدعو لهذه الأفكار ويروج لها، وهو تبادل مواقع. وعلى صعيد عالمنا العربي من المهم النظر إلى هذه التغيرات بعين الاهتمام في هذه المرحلة التي تشهد اتجاهًا للقضاء على الدور الاقتصادي للدولة بشكل تام الأمر الذي يحتاج الى إعادة نظر على المستويين النظري والعملي، فها هي الخاطئة تتوب فيما نلهث نحن لنحتل مكانها.

الكيان الصهيوني وما بعد الآباء المؤسسين ([4])

عندما دعا تيودور هيرتزل لإنشاء الكيان الصهيوني كان يرى أن أقدر الناس على إنشائه جيش من البائسين. ومنذ نشأة هذا الكيان حتى الآن يتلقى الأطفال المولودين فيه تربية عنصرية دموية ذات ديباجات دينية. وعلى هذا التراث نشأ هذا الجيل على أرض فلسطين المغتصبة وقضوا زهرة عمرهم يشاهدون حالة من العنف المستمر، فلم يعرف هذا الجيل سوى هذه الأرض وطنًا ولم يعرفوا سوى العنف ثقافة.

وقد كان من بين جيل المؤسسين من أقدم دون خوف على توقيع اتفاقات تسوية دول الجوار بعد أن شعروا أن ما أنجزوه للمشروع الصهيوني يمكن أن يكون مبررًا لفترة من التوقف عن القتال. ومن هنا كان سلوك بيجن ورابين وبيريز، ومع مجيء نتانياهو بدأ عهد جديد في تاريخ الكيان الصهيوني.

تشكل المرحلة التي بدأت بتولي بنيامين نتانياهو رئاسة الوزارة في الكيان الصهيوني عهدًا جديدًا على مستويات عدة، فالجيش الصهيوني الذي يسرح ضباطه على أعتاب العقد الخامس من العمر يمد الحياة السياسية بشكل دائم بقيادات شابة دمغتها المؤسسة العسكرية بطابعها وشكلت أهم ملامح فكرها، ومع تقلص الدور الذي لعبه (الآباء المؤسسون) من بن جوريون إلى رابين ظهر جيل جديد لم يهبط على أرض فلسطين مهاجرًا من وطن أصلي، ولذا فإنه في علاقته بهذه الأرض ليس في حاجة الى قدر مبالغ فيه من الحنين الرومانسي "**النوستالجيا**" تجاه هذه الارض.

([4]) **نشر في 19 / 2/ 1999.**

وقد ترافق هذا العامل الجيلي مع عامل آخر عرقي كان له أثر كبير في تشكيل الكنيست الثالث عشر (1996)، فالطابع الاشكنازي الفاقع الذي كان يميز المؤسسات السياسية في الكيان الصهيوني تقلص إلى حد كبير، بفعل تغير الموازين الديمغرافية لصالح اليهود الشرقيين الذين كانوا يشعرون دائمًا بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية.

ومع بداية عقد الثمانينات وبالتحديد في 1983 أسس السفارديم المتدينون حزب "**اتحاد حراس التوراة السفارديم**" المعروف باسم: "**شاس**". وبعد قيامه بقليل كان له في الكنيست ستة مقاعد فاز بها في انتخابات 1988 زادت إلى عشرة في انتخابات 1996. ولم تقتصر التغيرات على العوامل الجيلية والعرقية فظهر في الكيان الصهيوني إحياء ديني واسع النطاق بدأ يترجم نفسه إلى أرقام في معادلات القوة السياسية داخل الكيان الصهيوني، ويصف المراقبون هذا التغير بأنه حول التيارات الدينية من "**شريك متواضع**" في الحكم إلى "**عامل حاسم**".

ويرى عالم الاجتماع الصهيوني سامي سموحا الأستاذ بجامعة حيفا أن الصعود الديني زاد تآكل الهيمنة الاشكنازية على مقاليد الأمور، إذ يشكل الاشكناز العمود الفقري للاتجاهات العلمانية بمختلف تشكيلاتها. الدولة والمستوطنون. وبترافق هذه العوامل (الجيلي، العرقي، الديني) ظهرت بقوة الجماعات الاستيطانية المسلحة ووجدت أنصارًا لها بين المتدينين من الفئات العمرية الأصغر سنًا، وتسلحت بالفكر الصهيوني الديني العنصري لتشكل عنصر ضغط على القرار السياسي في الكيان الصهيوني.

وقد بلغ خطر هذه الاتجاهات حد التهديد بخوض حرب ضد الدولة وتحريض جنود المؤسسة العسكرية على التمرد على أية تعليمات بالتخلي عن الأرض، وتصاعد الحديث عن احتمال تفجر الكيان الصهيوني من الداخل بفعل الاستقطابات العرقية والدينية الحادة داخله.

ورغم وجود اتجاهات داخل الكيان الصهيوني تسعى للحفاظ على الوجه القديم للكيان الصهيوني ونخبته الحاكمة التي ظلت اشكنازية وعلمانية، فإن الخطر كان أكبر من محاولات الوصول لحل وسط. ويشكل تبني نتانياهو للمواقف المتشددة التي تؤمن بها النخبة الجديدة للكيان الصهيوني إجراءً ضروريًا للحفاظ على بقاء الكيان الصهيوني صلبًا متماسكًا، والاختبار الحقيقي الذي يتعرض له حكمه هو مدى قدرته على المواءمة بين الهدف الداخلي وبين الرؤية الامريكية للمسار الذي ينبغي أن يتخذه الكيان الصهيوني.

ففي ظل وجود افتراق واضح بين الرؤيتين – ربما للمرة الأولى منذ نشأة الكيان الصهيوني – اتجه نتانياهو الى آلة الضغط الصهيونية داخل الولايات المتحدة الأمريكية لتضييق المسافة بين رؤيته ورؤية الادارة الأمريكية. وقد أغرى نجاح نتانياهو الكثيرين من أبناء جيله للسعي للوقوف في الصف الأول بعد أن أوشك جيل المؤسسين على الانسحاب من الحياة السياسية تمامًا إما بالسعي لرئاسة الوزارة أو تأسيس أحزاب جديدة تكرس تفتت الأحزاب الإشكنازية التي ظلت لخمسة عقود تحكم الكيان الصهيوني، وتؤسس مشروعية جديدة في جوهرها مشروعية اعلامية تحل محل مشروعية الماضي العسكري التي أهلت الجيل السابق لمواقع القيادة في كيان يجتهد ليكون دولة، في ظل تضاءل ملموس للخطر الخارجي وتعاظم مخيف للأخطار الداخلية.

المثقفون والمعارضة العراقية ([5])

بقدر ما شكلت أزمة العراق اختبارًا للنظام العربي وإرادة الأمة العربية، بقدر ما كانت اختبارًا لضمير النخبة المثقفة العربية. فطوال عقد الثمانينات – تقريبًا –كان كثير من المثقفين ينظرون إلى العراق بوصفه حاميًا للبوابة الشرقية، وفي إطار هذه النظرة العاطفية صمتت ألسنة كثير من المثقفين عن التعليق على جرائم ارتكبها النظام العراقي في حق شعبه، لم تكن مذبحة حلبجة أولها، ولا آخرها وإن كانت أقساها.

وكما صمتوا عن حق الأكراد في صيانة دمائهم وممتلكاتهم وثقافتهم، صمتوا عن عمليات الإبادة المنظمة التي نفذها صدام ضد معارضيه من التيارات السياسية كافة.

هكذا تكلم المثقفون

عندما بدا واضحًا أن ثمة اتجاهًا تقوده الولايات المتحدة لتغيير نظام الحكم في العراق، وقف معظم المثقفين موقف الرافض – وهو رفض مفهوم – لكن الاكتفاء بالرفض كان إعلانًا عن عجز المثقفين عن تقديم البديل. وعلى سبيل المثال، انعقد في القاهرة لقاء مغلق في الأيام الأولى من هذا العام لإصدار اعلان بشأن الازمة العراقية، وانقسم المتحدثون إلى فريقين: أحدهما يرى ضرورة التعامل مع كل المعارضة العراقية سواء من تلقى

([5]) نشر في **3 /2 /1999**.

منها تمويلًا من الولايات المتحدة ومن لم يتلق، وطالب الفريق الثاني بقصر التعامل على المعارضة العراقية التي لا تتلقى التمويل من الولايات المتحدة.

وكانت حجة الفريق الأول أكثر واقعية، فالنظام العراقي يسحق كل معارضة تظهر في الداخل، وكل معارضة تعمل من خارج البلاد معزولة عن شعبها مضطرة للبحث عن سند يقدم الدعم بأشكاله المختلفة. وبين زحام المطالبات بدا أن الأمر الوحيد الذي يشكل أهمية خاصة الحفاظ على وحدة العراق، وباستثناء بعض الفصائل الكردية المتشددة تعلن كل جماعات المعارضة حرصها على وحدة العراق، وهو موقف يخالف ما يمكن استنتاجه عن تصور الولايات المتحدة وحلفائها لمستقبل العراق.

والملاحظ على سجال المثقفين أنه يبدأ من افتراض أن الدولة في العراق كبنية لم تزل قائمة، وأن مخاوفهم من وجود نظام حكم موال للولايات المتحدة – وهو خطر ماثل – أكبر من مخاوفهم من استمرار آلة القمع العراقية التي أكلت الكثيرين من أبناء العراق خلال حكم صدام حسين.

وقد طرأت على بنية الدولة العراقية خلال السنوات التي تلت حرب الخليج الثانية تطورات تبلغ الغاية في الأهمية، فقبل هذه الحرب كان حزب البعث يضم ما يقرب من مليون و800 ألف عضو، وعشية المؤتمر القطري العاشر (1992) فقد حوالي 40% من أعضائه.

وما زال مسلسل التصفية مستمرًا، كما بدد صدام حسين العوائد النفطية التي تراكمت للدولة قبل مغامراته العسكرية، فخلال الحرب العراقية الايرانية خسرت العراق حوالي 450 مليار دولار، تساوي أربعة اضعاف عوائده النفطية في الفترة (1980 – 1988). أما الحرب الثانية فقدرت تكلفتها بحوالي 170 مليار دولار، بالاضافة إلى 200 مليار دولار كلفة إعادة الاعمار.

أما الخسائر البشرية فهي 300 ألف قتيل في حربه مع إيران، و120 ألف قتيل في الحرب الثانية، إضافة ألى 15 ألف مدني و20 ألف قتيل راحوا ضحايا الانتفاضة، وخلال سنوات الحصار فقد العراق ثلاثة ملايين نسمة.

ما وراء المجاعة

رغم كثرة الأرقام المتداولة عن خسائر الحصار المفروض على العراق، فإن دلالات الأرقام غائبة، فكما يقول تقرير للأمم المتحدة: "**حين يصل الناس إلى نقطة الشروع في بيع الاثاث والمصوغات، فإننا نعرف إحصائيًا أنهم بلغوا مرحلة المجاعة. إن قطاعات واسعة من الأجراء والفئات الدنيا والمتوسطة من داخل الطبقة المتوسطة تعيش الآن دون خط الفقر**".

وفي كل مجتمع تشكل الطبقة المتوسطة عماده ومخزن قيمه ومصدر إبداعه، لكن الوضع الاقتصادي السيىء أدى إلى انهيار هذه الطبقة التي يعتمد دخلها على رواتبها الحكومية، وسوف يكون لتآكل هذه الطبقة آثار اجتماعية واقتصادية على عراق المستقبل، الأمر الذي يفرض – مع غيره من الاعتبارات – ضرورة إعادة النظر إلى المعارضة العراقية التي قد تكون طوق نجاة لا بديل له لانقاذ العراق – المجتمع – بعد أن دمر صدام حسين الدولة بنفسه.

ورغم صحة ووجاهة كل ما يقال عن كون تغيير نظام الحكم شأنًا داخليًا – في العراق وغيرها – فإن قسمًا لا يستهان به من الحكومات العربية لم يعد قادرا على التعامل مع صدام حسين ونظامه، وهي حقيقة سوف تظل عقبة أمام أية محاولة لاستعادة التضامن العربي. وهو عبء ملقى على عاتق المعارضة العراقية التي نضجت على نار مشكلات سياسية ضخمة ومعقدة.

ومهما أجهد المثقفون انفسهم في مناشدة الحكومات العربية لتجاوز مشاعرها السلبية، فإن عليهم أن يدركوا الآثار السلبية لسياسات صدام حسين التي سممت المناخ الداخلي في العراق وامتدت آثارها عربيًا.

المعارضة والمؤامرة

واذا كانت قضية العلاقات الدولية لبعض فصائل المعارضة مما يتحمل الخلاف – وأحيانا يستحق الإدانة – فإن الكثير من أفعال صدام حسين يستحق الإدانة بالقدر نفسه. وليس من قبيل الانتصار للعروبة إضفاء صفة الخيانة على كل المعارضة العراقية، فالأزمة الداخلية في العراق عميقة الجذور وتعود إلى عشرات السنين قبل الأزمة الحالية.

ولم يكن السلوك السياسي للحكومة العراقية قادرًا على كسب تعاطف طوائف الشعب العراقي، وقبل دخول بعض فصائل المعارضة نفق التمويل الغربي شهد العراق انتفاضات شعبية استشهد في إحداها عشرون ألف عراقي. وإذا كان المثقفون العرب جادين في السعي للحفاظ على مستقبل العراق فإن عليهم أن يجتهدوا للوصول إلى صيغة وطنية لمستقبل العراق بعد نظام صدام حسين.

وقد يكون من الطموح المشروع الدعوة الى تبني حكومات عربية مشروع التغيير في العراق من خلال بديل عراقي يكون قادرًا على إدارة علاقات العراق العربية والدولية بشكل أكثر رشدًا، أو كما يقول المثل العربي "**بيدي لا بيد عمرو**".

مستقبل السلام في البلقان مرهون بالموقف من الإسلام ([6])

التنبؤ بمستقبل البلقان أمر شديد الصعوبة بسبب كثرة العوامل المؤثرة فيه، وأول هذه العوامل أن ما يصاغ على أرض الواقع حتى الأن (تسوية) تضمن توقف التفجيرات الدموية ولا تضمن بالضرورة وقف الصراع، كما أن خلفية الرؤية الغربية – الأوروبية والأمريكية – هي الخوف من الوجود الإسلامي، والنظر إليه بعين الشك والاتهام.

ومرجع ذلك عودة ذكريات المواجهة الطويلة بين الحضارتين الاسلامية والغربية، وقد كشفت تجربة البوسنة التي انتهت باتفاق دايتون أن المتاح هو اجبار الجماعات العرقية والمذهبية على التعايش في إطار توازن محسوب لا يغير الوزن النسبي لأية جماعة عرقية أو مذهبية.

وتتحرك أوروبا – ضمن حلف الأطلسي – مستحضرة حقيقة أن الإسلام أصبح الديانة الثانية في عديد من دول القارة الأوروبية، ومع نمو مشاعر العداء للأقليات العرقية والدينية والمذهبية في كل دول القارة تقريبًا، موصوفة في الخطاب الاعلامي بأنها "**نازية جديدة**" لم يعد بإمكان صانع القرار الأوروبي التغاضي عن صراع يغذي استمراره هذه المشاعر ويجعل أوروبا متهمة بخيانة قيمها التي تأسست عليها تجربة التعايش.

وحسب مقال للرئيس الأمريكي بيل كلينتون نشر في **النيويورك تايمز** في 23/ 5/ 1999 فإن أي تردد في التدخل في البلقان كان يعني "**كارثة أخلاقية واستراتيجية**"، وأنه

([6]) نشر في **6/ 7/ 1999**.

لولا هذا التدخل "**لظل النزاع في البلقان مستمرًا بلا نهاية وعاملًا على نشوب حرب أوسع وتواصل التوتر مع روسيا ولفقد الناتو مصداقيته بسبب إخفاقه في الدفاع عن القيم نفسها التي اكسبته معنى؟**".

ورغم أهمية تقييم بنود أي اتفاق يتم اقراره لتتم تسوية الوضع في البلقان، فإن دلالات التدخل العسكري المشروط والجدل الذي تجاذبت أطرافه عواصم غربية عديدة، أهمها واشنطن وموسكو ولندن وباريس، أكثر أهمية في فهم تحولات الموقف الأوروبي إزاء الاسلام، ومن ثم التنبؤ باحتمالات استقرار السلام أو سقوطه.

فالتدخل الغربي في البلقان – رغم أنه لا يخلو من خدمة المصالح السياسية للقوى الغربية الكبرى – إلا أنه يعنى، بالقدر نفسه، أن المسلمين أصبحوا (ربما للمرة الأولى في تاريخ أوروبا) داخل حدود تطبيق مواثيق حقوق الانسان التي ظلت منذ إقرارها تطبق بشكل اصطفائي يعكس الحزازات العرقية والمذهبية والدينية الموروثة.

ومن العوامل التي يحتمل أن تلعب دورًا مهمًا في مستقبل هذا السلام تحرك أوروبا ككيان واحد للعب دور دولي فاعل، فثمة مؤشرات قوية تؤكد أن السياسات القومية لكل دولة على حدة ما زالت أكثر أثرًا من أي تحرك جماعي، ويعزز هذا موقف الأوروبيين أنفسهم من مؤسسات الاتحاد الأوروبي، فكثير من الأوروبيين لا يعرفون – مثلًا – بوجود الاتحاد الأوروبي، وكثير ممن يعرفونه يصفونه بأن (متجر الرطانة والثرثرة)، وفي الانتخابات التي أجريت منذ قليل كان مستوى التصويت منخفضًا جدًا.

فكان في فرنسا مثلًا – وهى أهم المتحمسين للوحدة الأوروبية – 76.13% وهى نسبة منخفضة، فضلًا عن أنها تقل عن نسبة التصويت في الانتخابات السابقة قبل خمس سنوات، إذ بلغت النسبة فيها 66.14%.

مثل هذه الأرقام تعكس حقيقة أن الكيان الأوروبي الواحد ما زال في مرحلة التكوين، وبالتالي فإن الدور الأوروبي الفاعل دوليًا ما زال في طور التشكل، وقد كان

الاتحاد الأوروبي طوال عقد كامل من الأحداث المؤسفة في البلقان مسكونًا بالخوف من الاسلام، والخوف من التورط في صراع عرقي مذهبي قد يمتد في أجزاء أخرى من القارة، لكن ما يبدو أن بشاعة السلوك الصربي قد بددت من الذهن الغربي – إلى حد ما – أكذوبة أن الإرهاب يرتبط بالإسلام، إذ أكدت التجربة أن أية فكرة أحادية عرقية كانت أو مذهبية أو دينية يمكن أن تحول صاحبها إلى مجرم حرب مستعد للقتل والاغتصاب وغيره من الجرائم، ومع زوال هذا الارتباط من الذهن الغربي بدا أكثر استعدادًا للنظر (للمسلم) نظرة جديدة، لا بوصفه عدوانيًا متأهبًا لقتل كل من يخالفه بل كضحية للتعصب العرقي المذهبي السلافي الأرثوذكسي.

وبدهي أن المخاوف المترسخة في الوجدان الغربي لا يمكن أن تزول في وقت قصير، وخصوصًا أنها حصاد قرون طويلة من المواجهة، الشرسة لكن رد فعل مسلمي البلقان تجاه العداء الصربي سوف يكون له دور كبير في إزالة مثل هذه المخاوف أو تكريسها.

فنشوء حالة من التعصب العرقي أو المذهبي أو الديني بينهم سوف تكون لها آثار سلبية في هذا السياق، فالصورة الذهنية لأية جماعة في عقل الآخرين تؤثر تأثيرًا مباشرًا في موقف الآخرين منها، وأي اتفاق يمكن تطبيقه متشددًا كان أو متساهلًا، ليس المضوع الوحيد الذي يستحق الاهتمام، وكما يقول المثل الانجليزي العبقري "**القانون العادل في يد القاضي الظالم ظالم، والقانون الظالم في يد القاضي العادل عادل**"، والانشغال بنصوص الاتفاق انشغال (بالقانون) والأمر يستلزم قدرًا أكبر من الاهتمام (بالقاضي)**!**

انقلاب باكستان:
أزمة آسيوية أخرى لكن بنكهة نووية! ([7])

بقيام رئيس الأركان الباكستاني بعزل رئيس الوزراء نواز شريف والاستيلاء على السلطة أضيف سبب جديد قوي لاعتبار شرق آسيا منطقة قلاقل سياسية شديدة الخطورة. ففي أقصى الشرق تقف كوريا الشمالية ضد اتجاه الزمن، وتصر على السير في طريق حيازة ترسانة ضخمة من أسلحة الدمار قادرة على تهديد أمن ومصالح أطراف عديدة آسيوية وغير آسيوية. وفي إندونيسيا تتوالى فصول مشكلة لم تكن لتظهر بهذا الحجم لولا الأزمة الاقتصادية الضخمة التي ضربت شرق آسيا في العام الماضي. وعلى امتداد هذه الرقعة تترنح الديمقراطيات الوليدة في منطقة من العالم اكتسبت الأوضاع السياسية فيها صفة الخطورة الشديدة.

فبينما ميانمار (بورما سابقًا) الواقعة تحت حكم عسكري شمولي صارم، وكذلك كوريا الشمالية ذات النظام الشيوعي، المتطرف يمتد حزام جغرافي يجمع بين دوله مشترك سياسي رئيس هو غياب الديمقراطية، وأحيانًا وجود ديمقراطية هشة، ومع كل محاولة غربية لجر هذه الدول في طريق تبني الصيغة الغربية للديمقراطية تستفز الانظمة الشمولية الحاكمة في هذه الدول كل ما يكن مواطنوها من عداء للغرب.

وتلعب الروح الوطنية دورًا رئيسًا في تقويض فرصة تطور الديمقراطية ونموها، ففي الحالة الإندونيسية حاولت المؤسسة العسكرية استغلال قبول الرئيس حبيبي انفصال تيمور

([7]) **نشر في 26 / 10/ 1999.**

لتُصوّرِه مفرطًا في وحدة البلاد وسيادة الدولة. وفي الحالة الباكستانية انطلق المحللون يربطون بين موقف نواز شريف في الاضطرابات الاخيرة التي شهدتها منطقة كشمير وكادت أن تتحول إلى حرب باكستانية هندية.

الأكثر إثارة في المشهد الباكستاني، عقب الانقلاب مباشرة، خروج أنصار رئيسة الوزراء السابقة بنازير بوتو يؤيدون الانقلاب باعتباره نهاية لحكم المنافس التقليدي نواز شريف. ويؤكد هذا أن الديمقراطية في شرق آسيا لا دعائم لها، وأنها معرضة في أية لحظة لانقلاب عسكري يخلف حكمًا عسكريًا.

وإذا كانت الولايات المتحدة قد تحركت لتحجيم مطامح المؤسسة العسكرية في إندونيسيا، فإنها قد لوحت بأوراق ضغط لا تملك مثلها في حالة باكستان، فالاستثمارات البالغ حجمها 164 مليار دولار كانت ورقة ضغط مهمة كما أن حاجة اندونيسيا للمساعدات الاقتصادية ساعد في تطويق مشروع الانقلاب على الحكم المدني.

الحالة الباكستانية أعقد وأخطر، فهذه الدولة الفقيرة نجحت في استغلال مجموعة من التناقضات في المصالح الدولية والاقليمية في المنطقة (أمريكا – الصين – الهند) وانضمت إلى النادي النووي. وحيازة الباكستان لهذا السلاح كان مؤشرًا على تَغيُّر وضعية علاقتها بالولايات المتحدة، حيث التفاوض والتفاهم المرن مرشح لأن يحل محل منطق الضغط والعقوبات الصارمة الذي تتبعه الولايات المتحدة في الحالات المماثلة، حتى العقوبات التي فرضتها بالفعل هي نوع من الضغط بقفاز حريري.

وأخطر ما في انقلاب الباكستان أنه قد يحاول حل أزمة الشرعية التي يعانيها بمغامرة عسكرية ضد الهند ليكسب تعاطف الشارع الباكستاني، وليعزز في وعي الشارع الباكستاني أن نواز شريف خضع للضغوط الأمريكية على حساب الأمن الوطني الباكستاني.

مثـل هـذه السـبل لاكتسـاب الشـرعية مكلفـة، كمـا أن انتصـار العسـكريين الباكستانيين قد يـدفعهم للتحـالف مع أعـداء الـولايات المتحـدة كنوع مـن الضغط عليها لتعترف بشرعية النظام الجديد، لكن هـذا الاتجاه إذا اقترب مـن افغانستان والجماعات الاصولية المعادية لأمريكا فيها فسوف يمس وترًا ملتهبًا عند صانع القرار الأمريكي الذي يعتبر أخطر ما يهدد الأمن القومي الأمريكي على الاطلاق هو حصول الجماعات الأصولية المعادية لها على أسلحة غير تقليدية.

ومجرد ورود هذا الاحتمال ولو كفرض مستبعد سوف يستنفر في الولايات المتحدة ردود افعال بالغة القسوة للتخلص من هـذا النظام العسكري المدجج بأسلحة نووية في منطقة تغلي بالتوترات، وتشكل أهمية خاصة لمصالح الولايات المتحدة، إنه "**فيل يتحرك في محل خزف**"، ومالم يتعهد العسكريون بشكل قاطع بإعادة الحكم المدني فسوف يخسرون كثيرًا، وسوف تخسر باكستان أكثر.

اختطاف هتلر ومحاكمته!! ([8])

العلاقة بين الصهيونية والنازية تبدو لأول وهلة فكرة غريبة، لوجود اتجاه عام في الكتابات الغربية والعربية على السواء، تلح على العداء بين الصهيونية والنازية، ويتخذ هذا الاتجاه من الهولوكوست نقطة ارتكاز لبناء صورة للعلاقة بينهما بوصفهما معسكرين متصارعين دار بينهما صراعٌ دامٍ. وحقيقة الأمر أن تاريخ العلاقة بين الصهاينة والنازيين شهد تعاون العديد من القيادات الصهيونية مثل: ألفريد نوسيج، ومردخارى رومكوفسكى، وآدم تشرنياكوف، وحاييم وكابلان، وكورت بلومنفليد، ورودلف كاستنر، مع النظام النازي.

وهو تعاون وصل إلى حد الاشتراك فى التخلص من بعض اليهود في معسكرات السخرة النازية، مقابل ترحيل يهود صهاينة إلى فلسطين. أما الصلة بين الصهونية والنازية فكانت موضوعًا لدراسات عديدة، لم يكتب لها الذيوع الكافي، أثبتت أن ثمة تشابهًا بنيويًا كبيرًا بين الفكرتين.

ومن الأعمال المهمة التى تناولت هذه العلاقة رواية مثيرة للروائى اليهودى البريطانى جورج ستاينر الأستاذ بجامعتى كمبردج وجنيف، الرواية تحمل اسم: "**أ.هـ إلى كريستوبال**" والحرفان: أ. هـ هما الحرفان الأولان من اسم أدولف هتلر، أما كريستوبال فهي مدينة برازيلية. وقد بنى ستاينر روايته على شائعة مفادها أن هتلر لم ينتحر بل هرب إلى

([8]) نشر في **30 / 10/ 2000**.

أمريكا اللاتينية، وحسب خيال ستاينر، فإن مجموعة من الصهاينة الإسرائيليين والأوروبيين وصلوا إلى مخبأ هتلر واختطفوه بعد قتل حارسيه ونقلوه إلى مدينة كريستوبال البرازيلية.

المفاجأة الكبرى فى الرواية ما أورده المؤلف على لسان هتلر فى معرض دفاعه عن نفسه عند محاكمته، إذ قال ما نصه:

"لم يكن الجنس المتفوق من بنات أحلام أدولف هتلر الذى كان يحلم باستعباد الشعوب الأدنى، أكاذيب.. أكاذيب.. لقد تعلمت قوتكم الخفية هناك.. تعاليمكم. أنت شعب مختار. شعب اختاره الله لنفسه".

ثم يقتبس هتلر من العهد القديم، ويشير خصوصًا إلى بطولات يشوع بن نون، ويصف العهد القديم بأنه كتاب تفوح منه رائحة الدم، ثم يقول: "**لقد تعلمت أن أى شعب يجب أن يكون مختارا حتى يحقق مصيره**". ثم بين هتلر أن ما فعله قوبل بترحيب أوروبي خفي ثم قال: "**أنا لم أخلق القبح، ولم أكن أسوأ القبحاء.. كم عدد التعساء الذين قتلهم أصدقاؤكم البلجيك في الغابات؟.. عشرون مليونًا، وهذه النزهة الخلوية كانت قد بدأت وأنا بعد صبي صغير. في لعبة الأرقام ليست أسوأ اللاعبين**".

وأخطر ما أورده المؤلف على لسان هتلر حديثه عن كتاب "**الدولة اليهودية**" لتيودور هرتزل وعن الكيان الصهيونى إذ يقول: "**هذا الكتاب الغريب المسمى (الدولة اليهودية) قرأته بعناية بالغة. إن كلماته جاءت من أعماق بسمارك.. إني أتفق معكم أنه كتاب ذكي صاغ الصهيونية على شاكلة الأمة الألمانية الجديدة. ولكن من خلق إسرائيل فى واقع الأمر:**

هرتزل أم أنا؟..

هل كان من الممكن أن تصبح فلسطين إسرائيل دون مذبحة الابادة التى قمت بها؟ إن مذبحتى هي التي أعطتكم شجاعة الظلم التى جعلتكم تطردون العربي من منزله

وحقله، لأنه كان يقف فى طريقكم". وفي ختام مرافعته يقول هتلر: "**أيها السادة أعضاء المحكمة. لقد أخذت عقائدي منكم.. إن الرايخ الثالث هو الذى ولد اسرائيل.. هذه كلماتي الأخيرة**".

إن هذه الرواية التى لم تحدث ضجة كبيرة عند صدورها، أصبحت بتحولها إلى مسرحية تعرض على مسارح لندن حديث الناس. وهي رواية انسانية ذات عمق فلسفي. وفوق ذلك شهادة يهودية مهمة تفضح عمق الصلات بين الصهيونية والنازية. وقد تحولت محاكمة هتلر فيها إلى محاكمة للصهيونية ووليدها السفاح: الكيان الصهيوني.

دور "الفكرة" في الصراع العربي الصهيوني [9]

على مدى خمسة عقود من تاريخ الصراع العربي الصهيوني، كانت الكفة تميل لصالح الكيان الصهيوني. وعلى مدى هذه العقود الخمسة كان كثير من السياسيين العرب يعتقد أن كوننا "**أصحاب حق**" يكفي، لأن ننتصر في هذا الصراع وأن كل ما علينا هو أن ننطلق إلى ميدان النزال.

ومع تطور مسار الأحداث عالميًا وإقليميًا، طرأت تغيرات عميقة على وضع الصراع وأطرافه. وقد نجح الصهاينة في إسكات مدافع الجيوش النظامية العربية وإخراج الحرب من سلة البدائل التي يفكر صانع القرار السياسي العربي فيها، وإذا به بعد تجريده من خيار الحرب لا يملك قدرًا كافيًا من الأفكار التي يستطيع بها أن ينازل عدوه في ساحة المواجهة السياسية.

وقد انتبه الصهاينة، مبكرًا، إلى أهمية "**الفكرة**"، ويزخر الكيان الصهيوني بعد أكثر من مائة عام من ظهور فكرة هرتزل بعدد ضخم من مراكز الدراسات المتخصصة في الصراع العربي الصهيوني، وهذه المراكز عملها الأساسي تقديم الأفكار لصانع القرار في الكيان الصهيوني. وخلال مسيرة التسوية الممتدة من كامب ديفيد حتى الآن لعب الصهاينة لعبة بسيطة جنوا من ورائها مكاسب ضخمة. ففي كل مرة يفاوضون فيها طرفًا عربيًا يعرضون عليه مجموعة من الأفكار يعرفون مسبقًا أنه يرفضها جميعًا، وأنها أقل من الحد الأدنى الذي يمكن قبوله، الأمر الذي يظهرها أمام الغرب في صورة الراغب في السلام

([9]) نشر في 17 /11/ 2000.

المحاصر بجيران يصرون على القضاء عليه، وقد نصب هذا الشرك للمفاوض العربي مرات عديدة.

وفي المقابل، فإن النسبة الأكبر من الجهود البحثية والفكرية التي بذلها باحثون ومفكرون عرب في دراسة الصراع، أنفقت في مسارات لا تضيف أي رصيد لصانع القرار العربي، إذ يتوزع معظمها بين جمع المعلومات وتدبيج البكائيات وطمأنة الناس بوعد النصر التي بشر به الإسلام.

وقد قدم بن عامي مؤخرًا في إحدى العواصم العربية عدة أفكار بشأن القدس، وكانت جميعها لا توفر الحد الأدنى الذي يمكن قبوله، فلما رفضت قال: "**الحلول كثيرة والبدائل أمامكم كثيرة لكنكم لا تريدون حلًا سلميًا**".

ولعل ما ينقص باحثينا ومفكرينا أن يقتنعوا بأن بذل الجهد لبلورة أفكار في موضوعات محددة يمكن أن يحدث تأثيرات عميقة في مسار الصراع العربي الصهيوني، فمثلا المفكر القومي الراحل الدكتور عصمت سيف الدولة كان يدعو إلى بذل جهد محوره المطالبة بالغاء قانون العودة الصهيوني، وإلغاء هذا القانون يمكن أن يحدث نقلة نوعية لصالحنا، ومما يسر مهمتنا أنه قانون يقطر عنصرية.

وثمة موضوعات أخرى مفصلية يمكن إبرازها وصياغة خطاب فكري سياسي حولها، وفي مقدمة هذه الموضوعات كون الكيان الصهيوني حتى الآن بلا دستور. وبالتالي بلا حدود ثابتة، وهو أمر يعطي الحق لكل دولة لها حدود مشتركة معه أن تستخدمها ورقة ضغط مؤثرة. كما أن القانون الدولي يعطي القدس وضع الأراضي المحتلة لباقي الأراضي التي احتلت في عدوان يونيو 1967 لكنه إلى جانب ذلك "**أرض وقف**"، وبالتالي لها وضعية خاصة لم يفكر أحد في أن يدرسها ويخرج بنتائج يمكن البناء عليها على أرض الواقع.

ومثل هذه الأفكار ينبغي أن يشارك في طرحها معارضو التسوية إسلاميين كانوا أو قوميين، فمعارضة التسوية لا تعني عدم السعي للتأثير في مسارها. ولعل انفراد الولايات المتحدة بوضع الوسيط أول ما يحتاج إلى اعادة نظر، أولًا: لأنها ليست وسيطًا محايدًا، وثانيًا: لأن في هذا الوضع إخلالًا لميزان علاقتنا بالمجتمع الدولي، وتجاهلًا لقوى دولية أخرى هي أقل انحيازًا للكيان الصهيوني كروسيا والصين وفرنسا. وقد تكون مظلة الأمم المتحدة أكثر حفظا لماء وجه المفاوض العربي.. وغيرها وغيرها من الأفكار.

المثقفون المصريون قطعوا خطوة مهمة في هذا السبيل، واجتمعت مجموعة منهم من تيارات سياسية مختلفة ليشكلوا "**عقلًا ثقافيًا جمعيًا**" لا ينشغل بأن يكون رد فعل لما يحدث على أرض الواقع، وهي خطوة إذا كتب لها النجاح والاستمرار ستكون منعطفًا مهما في تاريخ الحركة الوطنية المصرية، وستفتح الباب لمزيد من الجهود محورها "**الفكرة**" لا الفعل، وإن كانا توأمين.

وتحتل قضية الصراع العربي الصهيوني قمة جدول الأعمال، وهو ما يبشر بانتقال المثقفين المصريين إلى مرحلة سيكون أداؤهم فيها أكثر نضجًا، وبالتالي أكثر قدرة على التأثير. وعندما توجد الأفكار المدروسة بعناية فليس بإمكان صانع القرار العربي أن يتجاهلها بسهولة، وإن فعل فسوف يدفع ضريبة مكلفة في زمن وفرت فيه ثورة الاتصالات للأفكار حرية حركة غير مسبوقة وتأثيرًا أوسع، وقد دشن رد الفعل الشعبي العربي المناصر لانتفاضة القدس حالة من التواصل المختلف بين رجل الشارع وصانع القرار، فإذا اكتملت أضلاع المثلث بدور فاعل للمثقفين، كانت كفتنا مرشحة لوضع أفضل.

لبنان .. أسئلة تلد أخرى والحسم مؤجل ([10])

ينفرد لبنان بوضع سياسي خاص في العالم العربي، وهو يتأسس على وضع سكاني أكثر فرادة وخصوصية، فالولاءات المذهبية والطائفية حاضرة في الواقع السياسي، بل حاكمة، وخلال تاريخها الحديث مرت لبنان بأكثر من تجربة مريرة عندما حاولت طائفة بعينها الاستئثار بالقرار السياسي، أو تغليب انتماء واحد من انتماءات لبنان المتعددة على ما سواها.

ولبنان الصغيرة مساحة وسكانًا تتمتع بتأثير كبير على الساحة العربية لا يتناسب مع مساحتها الصغيرة، ولا مع ملايينها الأربعة. وقد كان هذا التأثير دائما مرهونا بوجود حالة من الوفاق الداخلي بين الشركاء (الفرقاء) يجعلهم مجتمعين دولة قادرة على التأثير، وبحكم التنوع الطائفي المذهبي المتأصل في المجتمع اللبناني سعى كل فريق، تقريبًا، إلى أن يتقوى بالخارج، فصار للفاتيكان وفرنسا والولايات المتحدة، وأطراف عربية عديدة دور ملموس في الواقع السياسي اللبناني.

بين الطائفي والحضاري

ورغم تعدد طوائف المجتمع اللبناني، فهناك استقطاب أساسي يتجاذب لبنان منذ عقود، هو استقطاب حضاري تتأرجح فيه لبنان بين أن تكون جزءًا من محيطها الحضاري

([10]) نشر في 27/ 4/ 2001.

العربي الإسلامي فعلًا وانفعالًا، وبين أن تلتحق بالغرب. وقد دارت الحرب الأهلية اللبنانية بشكل أساسي حول هذا المحور.

فالرغبة في الارتباط بالغرب جرت بعض فصائل الطائفة المارونية إلى تل أبيب، وتركت جراحًا عميقة في الجسد اللبناني لم يكن أعمقها الاقتتال اللبناني/ اللبناني، بل كان الدور الكتائبي في مذابح صبرا وشاتيلا التي كانت قمة التنصل من الهوية والتنكر للذات، ولم يكن استعداد آل الجميل لتوقيع اتفاق تسوية منفردة مع الكيان الصهيوني إلا نتيجة طبيعية لهذا النهج الذي أراد لبنان طائفة قاهرة تستأسد على الطوائف الأخرى وتقهرها، وتستقوي عليها بالغرب.

وقد فرضت الهوية العربية على لبنان أعباء لاشك في أنها أعباء كبيرة قد لا تتجاوز قدرتها، لكنها تتجاوز صلابتها، فعندما قرر العرب أن تعمل المقاومة الفلسطينية انطلاقًا من الأرض اللبنانية كانوا يحملون لبنان من تبعات المقاومة أكثر مما تستطيع احتماله، وهو ما جعل خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان إحدى المعارك الرئيسة في الحرب الأهلية اللبنانية. صحيح أن إخراجها لم يكن موضع إجماع من القوى المتصارعة، لكنه في النهاية بات محتمًا، وبخاصة بعد أن دخلت قوات العدو الصهيوني بيروت (1982) في سابقة لم يشهدها الصراع العربي الصهيوني من بدايته إلى الآن.

فعندما تجرأ الكيان الصهيوني على ذلك لم يجد اللبنانيون رد فعل عربيًا يشعرون معه أن الدور الذي اضطلعوا به كضريبة لانتماء بلدهم إلى أمة تعيش حالة مواجهة وترى لبنان مساحة مواجهة ذات مواصفات خاصة، موضع تقدير حقيقي. بل تركت بيروت وحيدة لتواجه آلة الحرب الصهيونية. ومن هنا فإن من رأوا أن على لبنان أن يتخلص من "**عبء الهوية**" أخطأوا، لكن خطأهم كان نتيجة خطيئة عربية أكبر. فمن وضعوا المقاومة الفلسطينية في لبنان نسوا في غمرة الخلافات العربية التي أعقبت كامب ديفيد أن الواقع

الجديد يفرض إعادة ترتيب الأوضاع، لكن الواقع الذي لا ينتظر أحدا غير الأوضاع دون استئذان، فكان الثمن فادحًا.

الوجه الآخر للعملة

بظهور حزب الله واضطلاعه بالدور الأكبر في مقاومة الكيان الصهيوني ظهرت صيغة جديدة لدور لبنان في الصراع العربي الصهيوني، فالمقاومة لبنانية، ومبررات وجودها احتلال الكيان الصهيوني جزءًا من التراب اللبناني. وهكذا أصبح بقاء حزب الله قوة مسلحة جزءًا من حالة شرطية، وبانسحاب القوات الإسرائيلية من الجنوب اللبناني جردت العقلية الطائفية حزب الله من دوره النضالي، ونظرت إليه كميليشيا مسلحة في مجتمع طائفي، كانت كل طوائفه حتى وقت قريب تمتلك حق إنشاء ميلشيا مسلحة بمنطق الأمر الواقع.

ولذا فإن الحديث عن خروج القوات السورية من لبنان بدأ خافتا مع الانسحاب الإسرائيلي، وارتفع شيئًا فشيئًا حتى تبلور كموقف واضح، بعد أن فقد الوجود السوري، نظريًا، مبرر استمراره، كما يتردد. وهذه المطالبة يخطط لها أن تكون مقدمة لإعادة صياغة وضع حزب الله في المجتمع اللبناني، فيتحول إلى حزب مدني وينزع عن نفسه الصفة العسكرية.

بل إن بعض المراقبين يذهب إلى أن الولايات المتحدة لا تفضل انسحاب القوات السورية من لبنان في الوقت الحاضر حتى تقوم بنفسها بنزع سلاح حزب الله، بعد أن يسترد لبنان سيادته على كامل ترابه، فالمقاومة الفلسطينية التي أخرجت من لبنان كانت تعمل في إطار صراع عربي صهيوني أما المقاومة اللبنانية، شاء قادتها أم أبوا، فكانت جزءًا من عملية تسوية تستهدف تغييب مفهوم الصراع.

وهذا السقف السياسي لا يملك حزب الله أن يتجاوزه وإن كان أقل مما يطمح إليه. وبالتالي فإن السقف السياسي الذي يعمل في ظله حزب الله مختلف عن السقف السياسي الذي كانت تعمل في ظله المقاومة الفلسطينية، فهو لا يتم بقرار مستقل عن القرار اللبناني، كما كان الحال مع المقاومة الفلسطينية.

ورغم أن الانسحاب الإسرائيلي بدا كما لو كان قد أفقد الوجود السوري مبرر استمراره، فإن مزارع شبعا التي احتفظ بها الكيان الصهيوني أبقت حق المقاومة مشروعًا. ولم يضيع حزب الله الفرصة واستمر في عملياته ضد قوات الكيان الصهيوني.

دبلوماسية القصف

مع تطور الأوضاع داخل الأراضي المحتلة، وبخاصة استمرار انتفاضة الأقصى، فرض هاجس الأمن نفسه على الكيان الصهيوني فكان انتخاب أرييل شارون. وبمجيئه تم تغليب منطق التخويف على منطق المساومة والمماطلة الذي ساد طوال حكم باراك، وظن شارون أنه قادر على أن يكسب بالردع ما لم يكسبه غيره بالمراوغة التي لم تخل من عنف. وكان قصف موقع القوات السورية في لبنان رسالة إلى أطراف عديدة مفادها أن سوريا ولبنان مسئولان عن نشاط حزب الله، وأنهما سيدفعان معًا ثمن عملياته. والأرجح أن شارون لم يتصور أثر هذا الخيار على التوازنات السياسية الداخلية في لبنان.

فالمطالبة برحيل القوات السورية مؤسسة على أن الخطر العسكري الصهيوني على لبنان قد زال، وأن التراب اللبناني تحرر، وبالتالي فليس على لبنان واجب إزاء القضية الفلسطينية، أكثر من أي قطر عربي آخر، الدعم السياسي وشيء من الدعم المادي. وفي إطار حقيقة أن مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية وقعت اتفاقات تسوية منفردة مع الكيان الصهيوني، فمن حق لبنان أن يفعل وليس عليه أن يدفع ثمن تحرير الجولان، فهي أرض سورية وعلى سوريا أن تعمل لتحريرها.

وكما هو متوقع تغيرت لهجة خطاب المطالبين بالانسحاب السورى عقب الضربة الإسرائيلية الأخيرة، لأنها ذكرت لبنان بأيام قاسية عانت فيها من الآلة العسكرية الصهيونية كما ذكرتها بأن المدافع لم تسكت وأن التسوية لم تزل بعيدة، وعليه فإن المظلة العسكرية السورية لم تفقد بعد مبررات وجودها، وربما لو توقع شارون هذا الأثر الذي أحدثته الطائرات الأربع التي أصابت الموقع العسكري، لكان فكر كثيرًا قبل إصدار الأوامر بخروجها. فكل الأطراف اللبنانية المعارضة لخروج سوريا، وضمنها حزب الله، نظمت مظاهرة مؤيدة للوجود السوري ضمت 300 ألف متظاهر، ولم تحدث الأثر الذي أحدثته 4 طائرات.

إلغاء الطائفية أم الطوائف؟

رغم تمتع لبنان بنسبة تعليم عالية بالقياس إلى معظم الدول العربية، وكونها أحد أهم مراكز الإنتاج الثقافي العربي، فإنها لم تزل قائمة في تنظيمها الاجتماعي والسياسي على الطوائف، وهذه الوضعية التي لازمتها رغم إحرازها هذا القدر الضخم من التمدن تعني أن زوالها ليس مرهونًا بتغيير ثقافي. وربما كانت الطائفية كروح تحكم عمليات الاجتماع السياسي أكثر خطورة على لبنان من وجود الطوائف نفسها.

وقد أدت الطائفية إلى محن لم يبرأ منها لبنان بعد تماما، غير أن الطوائف كان لوجودها دور ملموس في عبور الأزمة سريعًا، وما حدث في الطائف أن الطائفية تحولت إلى اتفاق (تعاقد) يمنع تحولها إلى صراع، وهى بالتالي لم تختف، وربما كان تصور اختفائها بهذه السرعة ضربًا من الخيال. غير أن ثمة حلًا وسطًا بين الاستسلام للواقع والقفز عليه بشكل غير منطقي، فلم يتضمن اتفاق الطائف، الذي ما زال أساس التعايش القائم في لبنان حتى الآن، تصورًا يتسم بالواقعية للخروج من الطائفية، وبالتالي فإن الصراع الطائفي،

على مستوى البنية ما زال قائمًا، كل ما في الأمر أنه تم وضعه في إطار حدد أن يكون سلميًا، منخفض المستوى، وأرجأ حسم كل ما كان ينبغي حسمه.

ولا شك في أن الصراع العربي الصهيوني لعب دورًا في تفجير الصراع اللبناني /اللبناني، وها هو الآن يلعب دورًا آخر في تأجيل علاج جذوره. وما تأجل فسوف يحل عاجلًا أو آجلًا طالما جذوره باقية، وفى مقدمته سؤال الهوية الذي ما زال يؤرق لبنان.

فلسطين المحتلة: تصعيد أم تمهيد ([11])

التصعيد الدموي الذي تشهده الأرض المحتلة مشهد لم تنجح كل قدراتنا على بناء علاقة ألفة مع الكوارث على قهره، فهو يتكرر منذ شهور ورغم ذلك يزداد إيلامًا، على عكس ما كان كثير من "**خبراء**" الإعلام الوهميين يتصور ويراهنون. فمشهد جنازات الشهداء، ودماء الأطفال، وحطام المنشآت الفلسطينية، لم يفقد بعد قدرته على التأثير، ولم يتحول إلى مجرد مشهد إعلامي، رغم التراجع الواضح في اهتمام كثير من المحطات الرسمية بإبرازه.

واستمرار وتيرة التصعيد اكتسب بعدًا جديدًا نتيجة استخدام الكيان الصهيوني كل ما في جعبته من وسائل، بعد أن فشلت رصاصات التخويف رغم قسوتها في أن تضع حدًا للثورة المشتعلة. لقد وصل الكيان الصهيوني إلى هذه المرحلة بعد أن نجح الفلسطينيون في أن يتجاوزوا بالانتفاضة حدود الاحتجاج إلى الضرب في العمق، وبالتالي هز أعمدة نظرية الأمن الصهيونية.

لكن الكيان الصهيوني ما زال حتى الآن أكثر قدرة على حماية مواطنيه، وأكثر جرأة في استهداف المدنيين الفلسطينيين، وهو خلل له أثره في زيادة الخسائر البشرية بين صفوف الفلسطينيين بشكل لا يقارن بالخسائر على الجانب الآخر.

([11]) نشر في **24/ 5/ 2001**.

والمفارقة أن هاجس (الأمن) الذي أتى بالسفاح شارون الى كرسي رئيس الوزراء، وقد صور نفسه في صورة القادر على تحقيق أمن الكيان الصهيوني، أيًا كان عدد الجماجم الفلسطينية التي ستتحطم ليتحقق هذا الأمن. هذا الهاجس تحول خلال الفترة القليلة الماضية من حلم الى كابوس. وتأكد أنصاره أن مزيدًا من العنف الصهيوني يعني مزيدًا من الضربات الموجعة في قلب (الكيان) والنتائج السياسية بعيدة المدى لهذه التجربة قد تكون أكبر من الدلالات المباشرة للأحداث.

وإذا كانت "**انتفاضة الأقصى**" التي ما زالت مستمرة حتى الآن قد أثرت في أمن الكيان الصهيوني تأثيرًا عميقًا، فإن لها وجوهًا أخرى يستفيد منها الكيان الصهيوني استفادة كبيرة. فهذا التصعيد ليس فقط نتيجة رد الفعل الفلسطيني على زيارة شارون للمسجد الأقصى، بل هو تمهيد نيراني يسبق المعركة الأكبر.

فخلال مسيرة الصراع العربي الصهيوني لعب الكيان الصهيوني مع العرب لعبة (السقوف المنخفضة) ويقصد بها أن يعرض باستمرار مشروعات التسوية السياسية يعلم مسبقًا أن العرب لا يمكن أن يقبلوها، ثم يستخدم رفض العرب في تقديم نفسه للعالم في صورة الراغب في السلام المحاصر ببحر من الأعداء الدمويين المتعطشين للحرب.

وللصورة التي ترسمها كل دولة لنفسها دور مهم في السياسة الدولية. وفي هذه المرحلة من التسوية يرغب الكيان الصهيوني في الوصول إلى تسوية نهائية تتضمن أكثر الموضوعات خطرًا (القدس – اللاجئين – الحدود النهائية..) وهي أهداف من الضخامة بحيث تحتاج إلى تمهيد نيراني مناسب. ما يثير القلق أننا نحن العرب لا نجيد تحويل العطاء الفلسطيني في المقاومة إلى رصيد لموقف سياسي له صفة الشمول والوضوح، بل ننظر اليه نظرة قاصرة.

فما يحدث في أرض فلسطين المحتلة كان يمكن في مناخ عربي مختلف أن يكون انتفاضة لتحرير فلسطين غير أنه، أيًا كان حجم إنجازه المباشر وأيًا كانت التضحيات التي

بذلت فيه، مصيره الإهدار بسبب غياب الرؤية الاستراتيجية. والعودة للمفاوضات كسقف سياسي عربي أصبح لأول مرة منذ عقود موضوع اتفاق رسمي لم يكن في حاجة إلى كل هؤلاء الشهداء والجرحى.

وهذه التضحية العظيمة ليست قادرة — حتى لو صارت أضعافًا مضاعفة — أن تغير هذا السقف. وفي سياق تحتل فيه كلمة (الأمن) موقع السيادة من الخطاب الرسمي الصهيوني لا يوجد ما يمكن اعتباره تصورًا عربيًا واضحًا شاملًا للأمن سواء كان أمن الفلسطينيين في الارض المحتلة، أو أمن الدول العربية المحيطة بالكيان الصهيوني، وما لهذين الطرفين من الأمن هو ما يبقى بعد أن يتأكد الكيان الصهيوني من استتباب أمنه.

فهل يدفعنا هذا التصعيد إلى التفكير بشكل أكثر جدية في درجة التهديد التي يمثلها هذا الكيان للأمن العربي كله؟

وهل يحتل أمن الفلسطينيين مكانًا أكثر أهمية إلى جانب قضايا القدس والأرض؟

إن الذي يحدث في فلسطين المحتلة تصعيد في سياق الانتفاضة ومسارها، لكنه في مسار الصراع تمهيد سيكون له ما بعده. فعندما يتوقف الرصاص ويجلس الفرقاء الى مائدة المفاوضات، وهو المطلب الرئيس في الخطاب الرسمي العربي والفلسطيني، سيكون الشعب الفلسطيني قد قطع شوطًا طويلًا منهكًا قدم فيه الكثير من أبناءه بين شهيد وجريح.

وبالتالي سيكون من الصعب حينئذ نشوب انتفاضة أخرى، وهو أمر لن يحتاج الكيان الصهيوني إلى جهد كبير لإدراكه، أي أن المفاوض الفلسطيني سيكون أكثر إحساسًا بالضعف، وهو ما تتمناه أطراف عديدة. وعندئذ سيكون هذا المفاوض الفلسطيني عاجزًا، لأسباب تتصل ببنية السلطة الفلسطينية ومنهج عملها، عن تحويل الدم الفلسطيني الى رصيد تفاوضي.

ووفقًا لآليات تداول السلطة في الكيان الصهيوني يتوقع أن يعود حزب العمل إلى السلطة منفردًا أو ضمن ائتلاف، فيصبح كل ما يطرحه من مقترحات للتسوية مرشحًا

للقبول فلسطينيًا بأقل درجة ممانعة، لا لأنه يعيد قدرًا يمكن قبوله (في إطار منطقة التسوية) من حقوق الشعب الفلسطيني، بل لأنه بديل عن حرب شاملة يواجهها شعب أعزل، وستكون آثار الحرب في نفوس الناس أكثر خطورة من أثرها في الجدران التي تهدمت.

إنه تمهيد نيراني دموي لمعركة ستكون المفاوضات فيها مجرد بروتوكول للتوقيع، وما واجهه الفلسطينيون بصدور عارية قد يواجهه المفاوض الفلسطيني وظهره للحائط، بعد أن قدم الفلسطينيون تضحية قد تكون الأكبر في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، مقابل تسوية قد تكون أسوأ من كل ما رفضناه جميعًا!

الكيان الصهيوني:
مشكلة بنيوية وتحديات سياسية واقتصادية ([12])

عندما ظهرت الصهيونية كفكرة قبل أكثر من مئة عام بقليل بين أعضاء الجماعات اليهودية، كانت تستند إلى مجموعة من المقولات والشعارات. وكانت هذه المقولات ردًا على واقع هذه الجماعات التي كان معظمها جماعات وظيفية هامشية، ارتبط أعضاؤها بمهن معينة رسمت ما يسمى: "**صورة اليهودي**" في العقل الغربي، إذ كان معظمهم يعملون في مهن كالربا والدعارة والتهريب، وهو ما جعل كلمة يهودي ترتبط في الوجدان الغربي بهذه المهن المشينة.

ورفعت الصهيونية شعار "**تطبيع اليهودي**" أي إعادته إلى حالته الطبيعية ليعمل في كل المهن ويتخلص من الهامشية. وربطت الصهيونية بين ذلك وبين إنشاء دولة لليهود يعملون فيها بالزراعة والصناعة شأنهم شأن كل الشعوب الأخرى. وقبل أن تنشأ الدولة الصهيونية كان العمال العرب يشكلون قوة العمل الحقيقية في الاقتصاد الصهيوني.

بعد قيام الدولة بدأت العمالة العربية "**تتسرب**" إلى قطاعات بأكملها في الاقتصاد الصهيوني. وقد رأى الصهاينة في ذلك وسيلة للسيطرة الاقتصادية على الفلسطينيين، فاعتمدت سياسة إضعاف مقاومة الاحتلال عن طريق زيادة الدخل. إذ أدى اتجاه الفلسطينيين إلى المنشآت الاقتصادية الإسرائيلية كعمالة إلى ارتفاع مستوى دخلهم واعتمادهم بدرجة كبيرة على الاقتصاد الإسرائيلي.

([12]) **نشر في 18 / 6/ 2001.**

ويعود إقبال إسرائيل عليهم لسبب آخر هو أن الإسرائيليين يرفضون القيام بالأعمال اليدوية والمتدنية. وقد بلغت هذه العمالة في النصف الأول من التسعينيات أكثر من مئة ألف فلسطيني. وسبق أن حاول التجمع الاستيطاني الصهيوني التخلص من العمالة العربية بعد الانتفاضة الأولى، فاضطر لاستيراد عمالة أجنبية من تايلاند ورومانيا بلغ عددهم 48 ألفًا، لأن الهامشية عادت مرة أخرى للمجتمع الصهيوني، وعادت قاعدة هرم العمل تخلو من الأيدي العاملة الصهيونية.

وأدت العمليات الاستشهادية وبخاصة في عام 1993، 1994 إلى انخفاض أعداد العمال الفلسطينيين بشكل حاد، فازداد الاعتماد على الأيدي العاملة الأجنبية. وحسب إحصاء عام 1997 كان الأجانب يشكلون 10% من اليد العاملة في إسرائيل وعملوا في قطاعي البناء والزراعة. وبعد أن كان هؤلاء العمال موضع ترحيب أصبحوا يثيرون ردود فعل معادية، وتعتقد السلطات الإسرائيلية أن "**مشاكل اجتماعية**" عدة نشأت من تدفق العمال الأجانب الذين تضاعفت أعدادهم خمس مرات خلال ثلاثة أعوام.

وهذه المشكلة البنيوية المزمنة تضع الكيان الصهيوني أمام تحدٍ سياسي اقتصادي له نتائج اجتماعية سلبية، فالاستعانة بالعمالة الفلسطينية تضمن استمرار تبعية الاقتصاد الفلسطيني للاقتصاد الصهيوني. لكن هذه العمالة مازالت قنابل موقوتة تهدد أمن الكيان الصهيوني. وهو ما يفسر قدرة الفلسطينيين على الوصول بعملياتهم الاستشهادية إلى ما يسمى "**أرض إسرائيل**" بسهولة.

وقد أسقطت هذه العمليات الاستشهادية عدة أكاذيب صهيونية في مقدمتها أن إنشاء الكيان الصهيوني سيؤدي إلى "**تطبيع الشخصية اليهودية**". في الوقت نفسه أسقطت أكذوبة أن الأرض التي أنشئ عليها هذا الكيان أرض بلا شعب، فشعبها موجود يدافع عنها ويقدم حياته لأجل تحريرها. وعلى صعيد الأمن تشكل هذه العمليات تحديًا

نوعيًا شديد الصعوبة، فهذا الكيان المدجج بأحدث الأسلحة وأشدها فتكًا بنى منظومته العسكرية على مواجهة حرب نظامية، وحاز من الأسباب ما يضمن له التفوق على كل الدول المجاورة.

لكنه غير قادر على التعامل بكفاءة مع انتفاضة أو "**حركة تحرير شعبية**"، وصُنع قنبلة لا يحتاج إلى خبرات تقنية راقية بل يمكن أن يتم بإمكانات موجودة في الحياة اليومية للناس. أما الإنسان الذي يحملها فهو سلاح غير قابل للقهر، فكما استطاع أن يصنع القنبلة ويحملها إلى تجمع بشري صهيوني، فهو قادر على إصابة هدفه، وهذه العمليات تشكل نهاية أكذوبة "**العربي الغائب**" فهو موجود وقادر على تهديد أمن الكيان وسكانه.

وهذا التحدي المركب أخطر ما يواجه الكيان الصهيوني، فهو قادر على تكبيده من الخسائر البشرية أكثر مما تكبده في حروبه النظامية. وخلال الفترة من 1994 إلى 1997 قتل أكثر من 150 صهيونيًا. والعمليات الاستشهادية، فوق ذلك، تجبر إسرائيل على التعامل مع وضع ظلت لعقود قادرة على أن تفلت منه، وهو نقل الحرب على أرضها.

فبعد عقود من النجاح في نقل حروبها على أرض أعدائها صارت مضطرة إلى خوضها على أرضها. وبتحطيم هذه الأكاذيب الصهيونية يولد وعي صهيوني جديد مسكون بالرعب، فبعد جهود جبارة لتدمير بنية الممانعة والمقاومة عبر منظومة الترغيب والترهيب والاحتواء والاختراق تظل المقاومة حقيقة لا سبيل إلى إنكارها.

وبدل أن يتمكن الكيان الصهيوني من استخدام ورقة الاقتصاد للسيطرة على المجتمع الفلسطيني، يصبح الاقتصاد الثغرة التي يدخل منها الفلسطينيون إلى قلب "**إسرائيل**" حاملين معهم الموت. وهذه الثغرة قد لا يتمكن الكيان الصهيوني من سدها لأسباب ديمغرافية وثقافية ستظل التهديد الأكبر لأمن الكيان الصهيوني.

وإذ يتبدد أمن هذا الكيان لدرجة يضطر معها لاستخدام الجيش النظامي في مواجهة مدنيين، تفقد صورته في الغرب بريقها ويسقط قناع الدولة الديمقراطية. وتصبح بالتالي قدرة على أنصاره في الغرب على ترويج صورة له ك "**حارس للمصالح الغربية في المنطقة**"، محدودة.

ويعني هذا ببساطة أن الكيان الصهيوني غير قادر على مواجهة حركة مقاومة شعبية منظمة، ويعني أيضًا أنه عندما تتمكن من فرض المعركة عليه (التوقيت – الميدان – السلاح) يمكن أن يهزم، وبذلك تنهار أكذوبة أخرى تضخمت في الوعي العربي حتى كاد كثيرون يعتبرونها مسلمة لا تقبل النقاش، هي أن هذا الكيان قوي متماسك على كل المستويات. وهكذا تختصر عملية استشهادية واحدة مئة عام من الأكاذيب.

الرهانات الامريكية والحسم المؤجل ([13])

الحكم على السياسة الخارجية لأية دولة بأنها ناجحة أو فاشلة معياره مستهدفات هذه السياسة، والوسائل التي تختار الاعتماد عليها من بين سلة البدائل المتاحة. والفترة الماضية من حكم الرئيس بوش قد لا تكون كافية لتقييم حصاد سياسته الخارجية، إلا إذا كان معيار النجاح والفشل درجة القبول التي تتمتع بها هذه السياسة لدى الحلفاء والخصوم.

وقد جاء بوش الجمهوري بعد فترتين من حكم الديمقراطيين أخذت السياسة الخارجية فيها شكلًا مستقرًا، وقد كانت السمة الرئيسة لسياسة كلينتون الخارجية تهدئة الملفات الساخنة، وإظهار قدر كبير من المرونة مع الخصوم والحلفاء على السواء، أما بوش فاستبدل بالتهدئة التصعيد في معظم الملفات الساخنة، وبالتالي فإن معيار نجاح السياسة الخارجية الأمريكية أو فشلها هو قدرتها – من خلال التصعيد – على حماية المصالح الأمريكية.

وقد كان النهج الديمقراطي هو التدخل النشط – دبلوماسيًا – في المناطق التي تمثل أولوية قصوى للمصالح الأمريكية فزار كلينتون الصين ليكون أول رئيس أمريكي يزورها منذ أن زارها ريتشارد نيكسون زيارته التاريخية في بداية السبعينات، كما زار فيتنام، واقترب من ملف التسوية السلمية في الشرق الأوسط بدرجة لم تحدث منذ عهد الرئيس الأمريكي – الديمقراطي أيضًا – جيمي كارتر.

([13]) نشر في 2/ 8/ 2001.

وجاء بوش ليعلن أن الولايات الأمريكية لن تتدخل بهذه الدرجة في المفاوضات، وستترك الأمر بصفة أساسية للفلسطينيين والإسرائيليين. ويشكل مشروع درع الصواريخ مثلًا جيدًا على الخيار الجديد الذي اختارته الولايات المتحدة في إدارة علاقاتها الدولية، فعلى خلاف سياسة كلينتون التي استهدفت توسيع تحالفاتها بضم دول شرق أوروبا لحلف شمال الأطلسي، وفتح مجال حيوي جديد للدبلوماسية الأمريكية في إفريقيا التي ظلت حتى عهده مهملة، يبني بوش بمشروعه جدارًا ضخمًا من الخوف بين أمريكا والعالم كله. وهو ما يكفل لها استجابة سريعة وغير مكلفة من أية عاصفة تعرض عليها صداقتها.

فتكريس التفوق جزء من استراتيجية لدفع الخصوم – والحلفاء أيضًا – إلى طلب رضائها. وهو أقصى ما تحلم به أية قوة عظمى في العالم. وهذا المشروع المثير للخلاف نسخة معدلة من مشروع "**حرب النجوم**" الذي كان يلوح به الرئيس الأمريكي – الجمهوري أيضًا – رونالد ريجان. والآثار المحتملة لمثل هذا المشروع على اقتصاديات الخصوم سيكون لها أبلغ الأثر في الاقتصاد الأمريكي وقدرته على المنافسة.

فلاشك في أن المنافسة الاقتصادية مع خصوم يعيشون حالة استرخاء نسبي إزاء المخاطر الأمنية، أصعب من المنافسة مع منافسين غير مستقرين أمنيًا يخصون الأمن بالقسم الأكبر من دخلهم، ويستحوذ على القدر الأكبر من اهتمامهم.

وحالة الاستنفار التي تشهدها مواقع عديدة – رسميًا وشعبيًا – ضد السياسة الخارجية الأمريكية اختبار حاسم لمدى احتمال نجاحها، فقدر المغامرة في التغييرات التي أدخلها بوش عليها كبيرة، ويطال ملفات قد يشكل الفشل فيها كارثة تصيب المصالح الأمريكية.

ففي آسيا حيث توجد أكثر مناطق العالم افتقارًا للاستقرار تسعى روسيا بخطى ثابتة لإعادة بناء العلاقات في المنطقة في منظومة تحتل فيها مكانا مركزيا، وتشهد علاقاتها مع الصين تطورات إيجابية كبيرة. بل إنها لعبت دور العامل المشترك في جمع الصين والهند،

وهما عدوان لدودان، ليكون كل منهما حليفًا لها. وهو تحالف يشكل رقما كبيرًا في أية توازنات قوى دولية أو إقليمية. وهو ثمرة من ثمار السياسة الخارجية الأمريكية الجديدة.

وقد كان تخويف الأوروبيين من الخطر السوفييتي ضمانًا لبقائهم تحت المظلة الأمنية الأمريكية، بما تعنيه من قدرة عالية على تأثير في القرار السياسي والتوجهات الاقتصادية، وبزوال هذا التهديد انتقلت قاطرة الوحدة الأوروبية وتأثرت المصالح الأمريكية، وما زالت مرشحة لمزيد من التأثر والانكماش في أوروبا. وتحقيق نجاح في شرق آسيا مرهون بوجود حالة من التوتر تمنع السيناريو الأوروبي من أن يتكرر، ولما كانت المنطقة لا تواجه خطرًا عسكريًا حقيقيا يدفعها للارتماء في أحضان واشنطن، فإن الخوف من واشنطن نفسها يصبح الحل الوحيد.

لكن النتائج لم تزل بعيدة والنجاح والفشل واردان بالقدر نفسه.

الولايات المتحدة وتحديات جديدة في الشرق الأوسط ([14])

تأتي زيارة كولين باول للمنطقة في ظل توتر في العلاقات العربية الأمريكية يشمل معظم الملفات المهمة في العلاقات بين الطرفين، فانتفاضة الأقصى والرد الصهيوني عليها، والعنف الشديد الذي صدر عن الجيش والمستوطنين على السواء، والموقف الأمريكي المنحاز للكيان الصهيوني ترك أثرًا سلبيًا واضحًا في العلاقة بين الطرفين.

وعلى صعيد الوضع داخل الولايات المتحدة انتهت فترة شهر العسل من حكم الرئيس بوش، وبدأت تتبلور بشكل ملموس التغيرات التي طرأت على السياسة الخارجية الأمريكية نتيجة وجود رئيس جمهوري في البيت الأبيض. فخلال الفترة القصيرة من حكمه انتقلت السياسة الأمريكية في ملفات كثيرة من التهدئة للتصعيد ويشمل هذا: الموقف من الصين، وتايوان، والسودان، وإحياء مشروع درع الصواريخ الذي يواجه معارضة دولية قوية من الحلفاء الأساسيين والخصوم على السواء. وتأتي هذه التغيرات مترافقة مع ميزانية دفاع زادت 33 مليار دولار دفعة واحدة عن آخر ميزانية دفاع في عهد كلينتون، واتجاه واضح لتكريس سيطرة أمريكية منفردة عالميًا.

وثمة مؤشرات واضحة على أن الدور العالمي للولايات المتحدة يواجه تحديات جديدة مصدرها رد فعل يتسم بالندية والخشونة من قبل معارضي سياساتها الذين لم يمنحوها الأصوات الكافية لتحتفظ بعضويتها في لجنة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة، وهي

([14]) نشر في 6/ 7/ 2001.

اللجنة التي احتفظت بعضويتها فيها منذ نشأة المنظمة الدولية دون انقطاع. وقد تبعها خروجها من لجنة أخرى.

وبعد أن بدأت روسيا تستعيد توازنها كقوة عظمى في ظل رئاسة بوتين، تواجه سياساتها اختبارات صعبة في وسط آسيا وشرقها، وتنظر بغير قليل من القلق لحلف يتكون في هذا الجزء في العالم، بين الصين وروسيا من جانب، وروسيا الهند من جانب آخر، حيث تراهن روسيا على إمكان الجمع بين القوتين الكبيرتين في مواجهة الولايات المتحدة.

وتطفو على السطح من آن لآخر قضايا تشير بقوة إلى وجود خلافات لا سبيل إلى تجاوزها في علاقة أمريكا بحلفائها الاساسيين في المنطقة العربية، وموقفها المعلن من قضية عالم الاجتماع المصري دكتور سعد الدين إبراهيم الذي أدانه القضاء المصري مؤخرًا وحكم عليه بالسجن، وما يصدر عنها من تقارير تدين أوضاع الأقليات وحالة الحريات الدينية متغيرات سلبية على مسار تطور هذه العلاقات، ومما يزيد الأمور سوءًا أن هذه الممارسات تستثنى الكيان الصهيوني من عمليات التقييم والإدانة، وهو ما يؤكد أن هذه المواقف تشكل أوراق ضغط للحصول على تنازلات من الأنظمة العربية في قضايا أخرى.

وتلوح أمريكا بورقة جديدة تمامًا على العلاقات العربية الأمريكية. من خلال جهودها الكبيرة لتسليم الرئيس اليوغسلافي السابق سلوبودان ميلوسيفيتش، وهي الجهود التي كللت بالنجاح، منذ أيام ليكون أول رئيس سابق يمثل أمام محكمة دولية ليحاكم عن جرائم ارتكبها وهو في منصبه.

وقد حاولت الولايات المتحدة طوال سنوات محاكمة النظام الليبي أو الرئيس القذافي بتهمة التورط في قضية لوكيربي، وهو ما لم تتمكن منه، وتبدو في جهودها لمحاكمة ميلوسيفيتش أنها تسعى لإسقاط تهمة التآمر والكيل بمكيالين التي يتهمها بها العرب بها، فالجاني في هذه القضية مسيحي غربي ومعظم ضحاياه من المسلمين، وهي من جانب آخر تظهر حيادًا بشأن محاكمة أرييل شارون التي ينتظر أن تبدأ قريبا في بلجيكا للغرض نفسه.

وصلة هذا الأمر بالعلاقات العربية الأمريكية أن الولايات المتحدة، وهي تعلن سعيها لتغيير نظام صدام حسين، لا يستبعد أن تستخدم جهودًا شعبية بريطانية بدأت منذ سنوات تستهدف تقديمه لمحكمة مجرمي الحرب، وقد نشر مؤخرًا أن الولايات تشهد محاولات سودانية غير رسمية لتحريك دعوى ضد الرئيس السوداني السابق جعفر النميري بتهمة إرتكاب جرائم حرب ضد مدنيين في ما عرف بأحداث (جزيرة أبا) التي تعرضت فيها الجزيرة لقصف جوي استهدف إخماد ثورة شيوعية ضد حكم النميري عام 1970، وفتح هذا الملف سوف تكون له توابعه، فهناك أطراف عربية أخرى لها صلة بهذه الأحداث.

ويتأسس هذا السلوك الأمريكي على رؤية لمفهوم سيادة الدول تسعى الولايات المتحدة لتعميمه وهو مفهوم "**استعمار جديد**"، ويواجه هذا المفهوم معارضة دولية كبيرة. وقد أقر الكونجرس الأمريكي عام 1996 ما عرف بقانون "**مكافحة الإرهاب**" الذي أعطى المحاكم الأمريكية سلطة قبول دعاوى ضد دول وأفراد غير أمريكيين بشأن جرائم إرتكبت خارج حدود الولايات المتحدة، وبناء عليه نظرت دعاوي ضد مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، وشركة سكك حديد فرنسية اتهمت بنقل يهود إلى معسكرات اعتقال نازية، وغيرها من الدعاوى.

وربما كان مما يساعد على مواجهة هذه السياسة الأمريكية بشكل ناجح أن ندرك أنها ليست مؤامرة موجهة ضدنا فساحة المواجهة على هذا الصعيد ممتدة من بكين إلى بلجراد وقائمة المطلوبين ضمت ذات يوم اوجستو بينوشيه أحد أهم حلفائها السابقين. وربما كان من المفارقات التي تستلفت النظر أن بيل كلينتون الذي اختار طوال سنوات حكمه سياسة التهدئة في ملفات كثيرة وتبنى ما يسمى "**الغموض البناء**" لإبقاء بعض الملفات المهمة بعيدة عن التصعيد اختار دبلوماسية محترفة هي مادلين أولبرايت التي عرفت كوزيرة خارجية بأداء وخطاب مستفزين، أما جورج بوش الذي يتبنى منطق التصعيد والضغط والتهديد مع الحلفاء فاختار كولين باول!

وعلى المحللين السياسيين العرب إذا أرادوا تقديم صورة قريبة من الدقة عن السياسة الخارجية الأمريكية أن يتجاوزوا الظواهر السطحية المباشرة وصولًا إلى البنية العميقة لهذه السياسة. فمنذ هنري كيسنجر لم يتول هذا المنصب من يصبغه بصبغته الشخصية، ومعظم وزراء خارجية الولايات المتحدة هم جزء من آلة ضخمة لا يملكون تحديد وجهتها منفردين. وفريق السياسة الخارجية الأمريكية الحالي يغلب عليه القصور، وبالتالي فإن خطاب باول وأداءه الهادئ واجهة لسياسة متشددة، فهو لا يتصرف بناء على أصوله الأفريقية أو مواقفه الشخصية التي عرفت بالاعتدال.

ويغفل كثير من المحللين السياسيين العرب أن كولين باول ينتمي للمؤسسة العسكرية الأمريكية، فهو عسكري محترف تدرج فيها حتى وصل إلى أكبر منصب عسكري، إذ تولى رئاسة هيئة الأركان المشتركة في عهد أكثر من رئيس أمريكي، كما تولى منصب مستشار الرئيس الأمريكي لشئون الأمن القومي.

والمؤسسة العسكرية الأمريكية حسب وصف المؤرخين استولت على القرار السياسي الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية — من خلال آلياته المعروفة — ويرى العسكريون الأمريكيون أن على الولايات المتحدة أن تستبعد خيار الإنعزال عن العالم، وأن عليها بدلا من ذلك اتباع سياسة للتدخل النشط في مناطق الأزمات وعدم التردد في إستخدام القوة العسكرية عندما تقتضي الضرورة ذلك.

وصلة المؤسسة العسكرية بمجمع الصناعات العسكرية صلةٌ وثيقةٌ، فمزيدٌ من مبيعات الأسلحة يعني مزيدًا من النفوذ وهو بدوره يعني مزيدًا من مبيعات الأسلحة وهكذا. وإذا كانت القضية الفلسطينية تمثل أحد أهم ملفات العلاقات العربية الأمريكية، فإنها هي الأخرى في وضع حرج بسبب الطريق المسدود الذي وصلت إليه مسيرة التسوية. وتبدو المراحل التي مرت بها متواضعة الحصاد، وأكثر من أي وقت مضى، فإن انفجار

الأوضاع صار واردًا بين الفلسطينيين وسلطات الاحتلال، أو بين الكيان الصهيوني وأي من جيرانه العرب.

غير أن جولة باول في المنطقة قد تكون مؤشرًا على أن الولايات المتحدة ستعود إلى لعب دور فاعل في المنطقة من خلال دبلوماسية نشطة بعد أن تصورت أن بإمكانها دفعها إلى زوايا الاهمال بين اهتمامات الخارجية الأمريكية.

روسيا.. اختراق يهودي ([15])

منذ انهيار الاتحاد السوفييتي عادت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إلى واجهة المشهد السياسي الروسي بقوة. وكما هو متوقع، أعادت روسيا، بعد قليل من صدمة الانهيار، صياغة رؤيتها لهويتها. وهي الصياغة التي احتل فيها المكونان السلافي والأرثوذكسي دورًا رئيسًا.

وتحليل الدور الروسي/ الأرثوذكسي، والعرقي المذهبي في حرب البلقان يؤكد هذه الحقيقة، فبعد طول نفي لهذين البعدين، عادت روسيا دولة يدين معظم سكانها بالمسيحية على المذهب الارثوذكسي. وبغياب الأممية زادت أهمية الانتماء العرقي في الواقع السياسي الروسي، وقد حاولت الولايات المتحدة طوال سنوات حكم يلتسين أن تستغل التحول عن النظام الشمولي والأزمة الاقتصادية التي تمر بها روسيا منذ سنوات، لإجبارها على فتح الأبواب أمام نشاط المبشرين المسيحيين من مختلف المذاهب المسيحية، وخاضت الدولة الروسية، والكنيسة الأرثوذكسية الروسية، معًا حربًا ضارية ضد محاولات الولايات فرض قانون للحريات الدينية يحقق هذا الغرض!

ورغم أن معركة قانون الحريات الدينية توارت واحتلت مكانها قضايا أخرى في ملف علاقات روسيا بالغرب، فإن الهاجس لم يزل يلح على النخبة الرسمية الروسية في الكرملين والكنيسة على السواء. وحسب احصاءات مصادر كنيسة روسية فإن طائفة

([15]) **نشر في 8/ 7/ 2001.**

واحدة هي شهود يهوه انتشرت في روسيا وزاد أتباعها بمعدل 30% بين عامي 1991 و1997، وهو رقم مذهل، وقد أصبحت خامس أكبر المجموعات المسيحية في روسيا.

وخلال السنوات المشار اليها كان شهود يهوه يوزعون ما يقرب من 5000 طن مطبوعات سنويًا في روسيا وحدها، ويمتد نشاط شهود يهوه في بولندا وجورجيا وغيرهما من الجمهوريات المجاورة لروسيا، ويفوق عددهم في بولندا مجموع عضوية الكنائس الانجيلية مجتمعة، ويعتمد شهود يهوه على آلة تبشير شديدة الضخامة، فكل أعضاء الطائفة وعددهم 5.8 ملايين ينشطون في العمل التبشيري وبينهم 700 ألف يتعهدون بالعمل خمسين ساعة شهريا.. لنشر المذهب وترويج مطبوعاته.

وينشر شهود يهوه رسالتهم في أكثر من 300 لغة يضاف إليها سنويًا من 18 إلى 25 لغة. وبهذه القدرات الضخمة تمكنوا من تحقيق نجاحهم في روسيا التي ما زالت تعاني توابع زلزال انهيار الاتحاد السوفييتي.

العاصمة الجورجية تبليسي دخلت على خط المواجهة مع شهود يهوه لكن بأسلوب مختلف، فحسب تقرير صدر حديثا عن منظمة العفو الدولية، فإن شهود يهوه هدف لعمليات اعتداء بدأت منذ سنوات، ولم تتوقف. تقرير المنظمة يتضمن وقائع اعتداء على أتباع المذهب من جانب أرثوذكس متشددين يزعجهم ما يقومون به من نشاطات تبشيرية، ومن أشهر هؤلاء الأب مكالا فيشفيلي الذي يتهمه تقرير المنظمة بقيادة حملات هجوم منظمة طالت أتباع طائفة شهود يهوه.

والمنظمة تتهم أجهزة الأمن الجورجية بالتستر على أفعال الأب مكالا فيشفيلي الذي بلغت سطوته حد اقتحام محكمة كانت تنظر قضية تتصل بالطائفة. والصراع المذهبي بين الأرثوذكس وشهود يهوه مركب فيه أبعاد عديدة، وما يهمنا في المقام الأول أن شهود يهوه طائفة جديدة نسبيًا تعتبرها المذاهب المسيحية مسيحية محرفة. غير أن الأبعاد السياسية لهذا الصراع ، وهو شأن مسيحي ينبغي النظر اليها بوصفها قضية مهمة للعرب

والمسلمين، فهذه الطائفة يشكل المكون اليهودي أحد أهم سماتها، وينظر اليها – غالبًا – بوصفها أحد أذرع المشروع الصهيوني.

ولذلك فإن حالة الاضطراب التي تعتري علاقة الدولة الروسية بالأقلية اليهودية لا تنفصل عن هذه القضية، ومن الضروري البحث عن صيغة تساعد على مواجهة نشاط هذا المذهب الذي يستهدف وضع "**اليارمولكا**" على رأس كل مسئول روسي.

إنه صراع مهم سنتأثر بنتائجه شئنا أم أبينا.

من قتل مشروع التسوية؟ ([16])

على أنقاض مسيرة التسوية تسير القوى المتصارعة في الشرق الأوسط دون خطة واضحة، حيث كل الاحتمالات واردة، وكل المخاطر قابلة للتحقيق على أرض الواقع. وإذا كان الخطاب الإعلامي لكل من الفريقين يحاول أن يحمل الطرف الآخر "**منفردًا**" المسئولية عن وصول مسيرة التسوية إلى طريق مسدود، فان التحليل الهادئ البعيد عن الاستخدام السياسي قصير النظر يؤدي إلى نتائج شديدة الأهمية، بل قد يكشف عن عوامل سيكون لها تأثير حاسم في مستقبل هذه المسيرة ومحاولات إحيائها.

فمسيرة التسوية التي بدأت بزيارة السادات للكيان الصهيوني بدأت بالقفز على المرجعية الدولية واستبدلت بها مفاوضات مباشرة برعاية دولة واحدة تتخذ موقف الانحياز التام لأحد طرفي الصراع (الولايات المتحدة الأمريكية)، وهي نادرًا ما لعبت دور الراعي، وكثيرا ما لعبت دور الشريك الكامل.

وقد كانت المرجعية الدولية تعني التفاوض تحت رعاية الأمم المتحدة، وهو ما كان يعني وضع قراراتها المتصلة بالصراع في موضع المرجعية الملزمة للطرفين. وجاء مؤتمر مدريد (1991) في ظرف دولي غير موات تَمَثَّل في انهيار الاتحاد السوفييتي، وهو ما عزز انفراد الولايات المتحدة برعاية المفاوضات، وفي ظل وضع عربي شديد التردي خلفه الغزو العراقي للكويت وما ترتب عليه من نتائج.

([16]) **نشر في 29 / 7/ 2001.**

وفي هـذا المنـاخ جلـس العـرب للمـرة الأولى منـذ بـدء الصـراع العـربي الصـهيوني ليفاوضوا الصهاينة، ورغم أن الفترة التي شهدت انعقاد مفاوضات مدريد من أسوأ فترات التاريخ العربي الحديث، الا أن مفاوضات التسوية التي بدأها السادات منفردة أصبحت متعددة الأطراف. ورغم أن خيار التسوية يؤدي بالضرورة وفي إطار أية مرجعية إلى عدل منقوص يأتي على حساب الحقوق العربية، فإن الصهاينة أبوا إلا أن يضيعوا على العرب المكسب الذي انطوت عليه صيغة مدريد، ونجحوا في إعادة الأمور إلى النقطة التي توقفت عندها على يد السادات، فكانت **اتفاقية أوسلو** التي ربحت منها إسرائيل مغانم كثيرة كان في مقدمتها إقرار فلسطيني مجاني بأن المرجعيات السابقة كلها مهدرة.

وتعد كل الحلقات التي تلت أوسلو كلها نتيجة مباشرة لها لأنها مكنت الكيان الصهيوني – للمرة الأولى أيضًا – من الانفراد بالفلسطينيين، وحولت الدول العربية الى فريقين: وسطاء، ومتفرجين. وقد كان إدراك العرب والصهاينة على السواء في المراحل الأولى من مسيرة التسوية أنهما يسعيان لحل جزئي مرحلي سببًا من أسباب النجاح في هذه المراحل، والنجاح هنا يقصد به الخروج باتفاق موقع، ولا يعني أن الاتفاق الموقع هو بالضرورة عادل أو ذو مشروعية.

وكانت استراتيجية تأجيل الحل النهائي وقضاياه أهم ضمانات استمرار مسيرة التسوية. أما عندما ظن الفريقان أن بامكانهما التوصل إلى "**حل نهائي**"، بغض النظر عن تمني البعض أن يكون عادلًا شاملًا، تبددت الأوهام وتحطمت المسيرة كلها.

فخلال كل مرحلة من مراحل التسوية كان الطرفان يتفقان بشكل تعاقدي على مرجعية يبرمان وفقًا لها اتفاقًا، كلاهما يعرف أنه يؤجل صدامًا ولا يعالج الطبيعة الصراعية التي اصطبغت بها علاقة الطرفين، حتى أصبحت جزءًا من بنائها.

وتعدد المرجعيات كان أحد أهداف الكيان الصهيوني من جولات المفاوضات السابقة، لأنه حصل خلالها – عمليًا – على اعتراف عربي بأن المشكلة لن تتم معالجتها

وفقًا لمرجعية القانون الدولي، وفي الوقت نفسه ليس لها مرجعية واحدة يمكن بناء عليها الوصول للتسوية المنشودة، وبالتالي فكل الحقوق (المقدسات – الأرض – السيادة) متنازع عليها وليست مغتصبة.

والعنف الذي تفجر في الأرض المحتلة كان تعبيرًا عن ضرورة إخراج المقدسات من دائرة المتنازع عليه، أكثر من كونه احتجاجًا على تواضع نتائجها. واذا كانت أطراف عديدة – عربية وغير عربية – تحاول إعادة الطرفين لمائدة المفاوضات، فإن هذه الجهود غير قادرة على جمع الطرفين على مرجعية، إلا إذا كان مجرد تفاوضهما إنجازًا.

العنف اذن لم يقتل مسيرة التسوية، بل كان صرخة انطلقت في جنازة شخص مات بالفعل، وهي ليست صرخة حزن على المتوفى بل صرخة غضب موجهة لمن يصرون على أن الفقيد ما زال حيًا، ولمن يؤكدون أنه لولا هذه الصرخة لأمكن إعادته للحياة. التسوية السياسية ماتت بالسكته الدماغية غير مأسوف عليها، وما بقى عالقًا لا يقبل أي من الطرفين التفاوض بشأنه، وتلك هي المعضلة الكبرى التي تلقي ظلالًا كثيفة على استقرار المنطقة.

الحرب .. خيار وارد ([17])

عندما أقدم الرئيس المصري الراحل أنور السادات قبل أكثر من عشرين عامًا على توقيع أول اتفاق تسوية عربي منفرد مع الكيان الصهيوني أطلق شعار: "**حرب أكتوبر آخر الحروب**". وقبل أن يمر وقت طويل على اغتياله اجتاح جيش الكيان الصهيوني لبنان ووصل إلى بيروت. وخلال الثمانينيات والتسعينيات لم تنقطع أشكال الصراع ما بين عمليات استشهادية وعمليات أكثر تنظيمًا لحزب الله وانتفاضة استمرت لسنوات. وافتتح القرن الحادي والعشرين بحالة توتر ممتدة لم تنجح كل الإجراءات الأمنية والسياسية في إزالتها. والأرجح أنها مرشحة لاحتمالات أشد سوءًا.

وقد عادت الحرب لتطرح نفسها كاحتمال وارد من خلال تصريحات سياسية وتحليلات إعلامية وتجاوز الأمر ذلك إلى نشر سيناريوهات محتملة. على صفحات **هآرتس** الإسرائيلية كتب جدعون سامت (11/ 7/ 2001) مقالًا استهله بقوله: "**عدد مفرط من السياسيين يتحدثون في هذه الأيام بصورة مبهمة عن إمكانية اندلاع الحرب**"، وفي أول محاضرة يلقيها منذ أن خسر الانتخابات ظهر إيهود باراك مرتديًا زيًا عسكريًا وحذر من عمل عسكري يقدم عليه شارون في ظل ظروف دولية غير ملائمة. أما شيمون بيريز فبدأ هو الآخر يحذر من عواقب خطوة عسكرية شاملة.

ورغم تصريح شارون قبل أيام بأن الشرق الأوسط لن يشهد حربًا فإن مؤسسات صهيونية بدأت ترسم سيناريوهات الحرب المحتملة. أحد هذه السيناريوهات يذهب إلى أن

([17]) **نشر في 13/ 8/ 2001**.

إقدام الكيان الصهيوني على إعادة احتلال أرض السلطة الفلسطينية قد يدفع مصر إلى خطوة محسوبة تتمثل في دفع الجيش الثالث ليعبر قناة السويس ويتمركز في سيناء لتنتهي الترتيبات الأمنية التي نشأت عن اتفاقية التسوية.

وحسب هذا السيناريو فإن ذلك لن يعني نشوب حرب إذ سيقتصر رد فعل الكيان الصهيوني على تحريك فرقتين مدرعتين لحماية حدوده. وقد نشرت جريدة "**لاربوبليكا**" الإيطالية مقالا لكاتب يساري إيطالي هو أدريانو سوفري جاء فيه: "**في الآونة الأخيرة كثر الحديث عن أنه لا بديل للسلام، ومع ذلك فالبديل قائم وتزداد احتمالاته يوما بعد يوم**" وهو ما يعني أن الحديث عن الحرب كاحتمال ليس حالة إقليمية وحسب.

والحرب ليست واردة كمتغير نوعي مقابل أو مناقض لخيار التسوية على الجانبين، بل هي واردة كخطوة تكتيكية يحاول بها الكيان الصهيوني تصدير أزمته خارج الحدود، وهي سياسة سبق استخدامها. فالحرب في الخبرة الصهيونية عامل من عوامل الحفاظ على وحدة الصف في مجتمع يهدده صمت المدافع بأخطار يمكن أن تهدد وحدته تهديدا فعليا. وحسب تصريح لعبد الإله الخطيب وزير خارجية الأردن (17/ 7/ 2001) فإن الكيان الصهيوني يعتزم القيام بمهاجمة سوريا و لبنان لإدخال المنطقة – أو بعض دولها – دوامة من عدم الاستقرار تعطيه فرصة التقاط أنفاسه.

ما سقط ليس فقط شعار أنور السادات بل عشرون عاما من السعي وراء سراب تسوية سلمية لصراع من المستحيل حسمه إلا بالحرب أو بصراع مركب ممتد يؤدي إلى تَفَكُّك الكيان، وصولًا إلى زواله. أما البديل فهو شديد المرارة ومن المؤكد أنه أشد مرارة من الحرب نفسها.

أوهام الثقة ([18])

عندما صدر وعد بلفور (1917) استقبلته قطاعات عريضة من النخبة الثقافية والسياسية الرسمية العربية في ثقة بالغة، فتحدثت عن أنه لا يعدو أن يكون سطورًا في رسالة وليست قرارًا سياسيًا، وأن "**بريطانيا العظمى**" ستحفظ للعرب جميل انحيازهم إليها في الحرب العالمية الثانية. وعندما تدفق المهاجرون الصهاينة على فلسطين المحتلة تحدثت هذه القطاعات عن الأمة الكبيرة العريقة التي لا يمكن أن يهدد أمنها "**شذاذ الأفاق**" الذين يمكن هزيمتهم بل القضاء عليهم بسهولة شديدة.

وقد نشر أحد قادة سلاح الطيران المصري السابقين أن التحقيق مع الجنود الصهاينة بعد النكسة كشف عن أن القيادة العسكرية للكيان الصهيوني أعطت تعليمات للقادة الميدانيين بالتوقف عن تنفيذ الخطة إذا واجهتها مقاومة كبيرة من الجيش المصري. فالنصر وليد عوامل كثيرة، في مقدمتها، منع الثقة من أن تتحول من حافز ضروري إلى مخدر يحجب العقل عن إدراك الواقع المتعين.

وما زلنا بعد كل ما خسرناه نعاني مرض "**الركون لأوهام الثقة**"، فلم تفلح: نشأة الكيان الصهيوني، ولا انتصاره في عدة جولات عسكرية، ولا تَوسُّعه على حساب عدة دول، ولا إحرازه تفوقًا نوعيًا على الأمة مجتمعة في ميدان الحرب، ولا امتلاكه أسلحة الدمار الشامل، ولا تمكنه من تحقيق إنجاز اقتصادي و تقني كبير وهو في حالة صراع.

([18]) **نشر في 12 /8/ 2001.**

كل هذه الأسباب لم تفلح في أن تشفينا من مرض أوهام الثقة. وقد بدأت مساعي التيارات الصهيونية الدينية المتطرفة لهدم المسجد الأقصى منذ أن حاولوا حرقه عام 1969، وتحولت هذه المساعي إلى عمل منظم منذ عام 1983. ومنذ هذا التاريخ والصحافة الغربية والعربية تنقل أخبار هذه المساعي. ثم وزع عرفات بنفسه صورة لتصميم هذا الهيكل وحذر من جدية مساعي الصهاينة لإعادة بنائه على أنقاض المسجد الأقصى، وكل هذا ونحن قانعون بإحساسنا بالثقة. وجاءت زيارة شارون التي فجرت انتفاضة الأقصى لتحطم أوهام الثقة.

أما إقدام الصهاينة بالفعل على وضع حجر أساس رمزي للهيكل فجاء في لحظة تحولت فيها أوهام الثقة إلى حالة من: "**اليأس القومي**" تمتد من المحيط إلى الخليج. وإلا فما معنى رد الفعل الكبير (نسبيًا) على زيارة شارون للمسجد الأقصى في العديد من العواصم العربية والإسلامية ورد الفعل الضئيل – بكل المقاييس – على وضع أساس الهيكل؟

فهل يكفي أن نكون أعرق تاريخًا أو أن نرى أنفسنا من منظور عدد السكان أو مساحة الامتداد الجغرافي مقارنة بالكيان الصهيوني لتتملكنا هذه الثقة القاتلة ؟

وهل يدفعنا هذا الدرس إلى إعادة النظر في أوهام الثقة الكثيرة في حياتنا قبل أن تصل بنا إلى هاوية اليأس والإحباط ؟

الرهان على منطق الصدمة ([19])

شأن كل الأزمات الكبرى بدت أزمة التفجيرات التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية كما وصف الرسول ﷺ "**فتنة يصبح الحليم فيها حيران**". والمشهد العربي بعد هذه الأزمة يشبه إلى حد كبير المشهد الذي تلا غزو العراق للكويت. فقد راهن كثيرون بعد الغزو على تغييرات إيجابية تتحقق من الربط بين تحرير الكويت وحل المشكلة الفلسطينية، والمفارقة أن الحدثين ترافقا مع انتفاضة فلسطينية ممتدة وضعت الكيان الصهيوني في وضع شديد الحرج داخليًا وخارجيًا.

وقد أدى الغزو وتداعياته إلى وقف الانتفاضة وجر النظام الرسمي العربي إلى أول مفاوضات مباشرة مع الكيان الصهيوني مدريد 1992. وبالمثل راهن كثيرون على احتمال أن تؤدي التفجيرات إلى دفع الولايات المتحدة إلى إعادة النظر في سياساتها المنحازة للكيان الصهيوني، هو موقف يغفل أن العلاقات بين الطرفين تتجاوز مجرد الانحياز.

وعبر خمسين عامًا، أثبتت التجربة أن الكيان الصهيوني يمثل مرتكزًا أساسيا من مرتكزات السياسة الخارجية الأمريكية وبخاصة في منطقتنا. وإذا كانت التغيرات الدرامية التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتي، وهي تغيرات راهن كثيرون أيضًا على أنها ستؤدي إلى تقليل درجة اعتماد الولايات المتحدة على الكيان الصهيوني، لم تؤد إلى هذه النتيجة، بل أعقبتها اتفاقات تعاون استراتيجي بين الطرفين لم تحدث منذ نشأة الكيان الصهيوني، فإن المراهنة على "**منطق الصدمة**" أو التغيرات الدرامية يصبح في حاجة إلى وقفة للتقييم الهادئ.

([19]) **نشر في 26 / 9/ 2001**.

وأول النتائج الملموسة المترتبة على الأحداث التي شهدتها الولايات المتحدة تراجع الاهتمام الدولي بما يحدث في الأرض المحتلة، وتحوُّل التركيز إلى الانفجارات وتداعياتها. كما أن التوقعات التي راهن عليها البعض هي نتاج منطق تحليلنا، بينما الأحداث تمت معالجتها في الغرب وفق منطق مختلف تمامًا.

فبعد قليل من اضطرار الولايات المتحدة والكيان الصهيوني على الانسحاب من المؤتمر الدولي لمناهضة العنصرية ديربان 2001 بسبب فشلهما في إحراز انتصار حاسم. وبعد أن بدت في الأفق ـ لأول مرة منذ نشأة الكيان الصهيوني ـ ملامح موقف أوروبي أقل انحيازًا للكيان الصهيوني: محاكمة شارون في بلجيكا – الموقف من منتجات المستوطنات – زيارة وفد الجماعات المناهضة للعولمة للأرض المحتلة. جاءت الانفجارات لتمنح اللوبي الصهيوني فرصة ذهبية لم يضيعها للإساءة إلى كل ما هو عربي ومسلم، ووصم الإسلام بقائمة من التهم الظالمة تشكل صورة نمطية طالما سعينا لتغييرها.

وقد بدأ الكيان الصهيوني يحصد ثمار سياسة تبناها منذ عقدين هي تصوير نفسه في صورة الدولة المتحضرة التي يحيط بها بحر من الأعداء الإرهابيين، ولأول مرة منذ أن تبنى هذا الخطاب يجد فرصة لإشعار المواطن الأمريكي أن عدوهما واحد، وأن المستوطن الصهيوني خط الدفاع الأول ضد الإرهاب. وفي هذا الإطار يمكن فهم موقف التنظيمات الفلسطينية التي بادرت إلى إعلان أنها لا صلة لها بما حدث.

وفي الإطار نفسه يمكن فهم سلوك الكيان الصهيوني الذي بادر إلى إرسال طواقم إعلامية من الجيش الصهيوني تصور مشاعر فرح عفوية دفعت إليها مرارات متراكمة من الدعم الأمريكي المستمر للكيان الصهيوني. لكن المشاعر في عفويتها شئ و القرار السياسي الحكيم شئ آخر، إذ ينبغي أن يبنى على حسابات الواقع وتبصر عواقب الأمور. وكلما شعر الغرب أن المنطقة العربية تمثل مصدرًا لتهديد أمنه، ازداد انحيازًا للكيان الصهيوني، وشعر بأهميته كدرع في مواجهة خطر "**الإرهاب العربي الإسلامي**".

وحدوث تغيرات في الموقف الأمريكي من الصراع العربي الصهيوني وارد .كفرض نظري .لكن الأرجح أن يشهد الموقف من الظاهرة الحضارية الإسلامية "**الإسلام – المسلمون – العرب**"، تغيرًا سلبيًا كبيرًا بدأت شواهده تتحقق في عمليات عدوانية تجتاح دول التشكيل الحضاري الغربي من الولايات المتحدة حتى استراليا، وللظاهرة تأثيرات ملموسة في أمريكا الجنوبية وإفريقيا.

وحساب الخسائر لم ينته بعد.

أما احتمال أن تشهد العلاقات الأمريكية الإسرائيلية مزيدًا من التقارب فهو احتمال يبدو أقرب إلى التحقق. وإذا كان ثمة احتمال لحدوث تغير في الموقف الأمريكي من الصراع العربي الصهيوني فسيكون في شكل انكفاء أمريكي على الذات وتقليص للدور الأمريكي على الساحة الدولية. وإن حدث فسيكون معياره الأول بقاء المصالح الأمريكية في الخارج، بمعناها الواسع، آمنة وهو موقف ليس مرشحًا لأن يتبلور إلا على المدى البعيد.

ومن المؤكد أن السنوات القادمة ستحتل قضية مواجهة "**الإرهاب**" فيها موقعًا مهمًا على جدول أعمال السياسة الدولية، والولايات المتحدة التي تتبنى تصورًا للإرهاب تصدر على أساسه قائمة بالمنظمات التي تعتبرها إرهابية والدول التي تعتبرها راعية للإرهاب ستسعى إلى فرض مفهومها الذي لا يفرق بين منظمة "**الألوية الحمراء**" و"**حزب الله**".

وبمثل ما أدت الأحداث الأخيرة إلى ظهور موقف معاد للإسلام والمسلمين في الغرب، أدت إلى ظهور مشاعر كراهية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فخرجت مظاهرات معادية للولايات المتحدة الأمريكية بعضها هتف لابن لادن، والأهم أنها أدت إلى تبلور موقف فقهي يحرم التعاون مع الولايات المتحدة في الاعتداء على بلد مسلم بسبب فعل منسوب إلى أشخاص أو جماعات فيها دون دليل.

ولا شك في أن المواقف العربية الرسمية قد تأثرت بدرجات متفاوتة بهذا الموقف الفقهي الذي تبنته مؤسسات إفتاء رسمية عربية كان في مقدمتها الأزهر الشريف. وهذا

الحضور الديني الملموس على ساحة السياسة ليس مقصورًا على الجانب العربي، فبعض التصريحات الأمريكية حول الحرب الدائرة حول الارهاب عززت لدى الكثيرين هاجس أن الانتقام من طالبان أو ابن لادن مجرد واجهة لعمل عدائي ذي دوافع دينية واستراتيجية بعيدة المدى، وما تردد عن احتمال استهداف العراق أو لبنان يسكب مزيدًا من الوقود على نار هي بالفعل مشتعلة.

والإلحاح على نفي البعد الديني جاء بأثر عكسي في الشارع العربي الذي تعتمل فيه عوامل غضب تتزايد منذ عام هو عمر الانتفاضة التي فجرها الاعتداء على المسجد الأقصى وعرفت في الإعلام العربي باسم انتفاضة الأقصى. وقد كانت الانتفاضة التي تشير دلائل قوية إلى أنها ستكون مستهدفة خلال الأيام القليلة القادمة بجهود ضخمة لوقفها، كانت بوصفها فعلا شعبيًا ممتدًا لا يصل إلى حالة الحرب النظامية الشاملة، ولكونها داخل أرض محتلة حتى بمعايير القانون الدولي، أكثر قدرة على تحقيق نتائج إيجابية في مسار الصراع العربي الصهيوني، داخليًا وخارجيًا على السواء، من عمل كالتفجيرات التي شهدتها نيويورك وواشنطن.

وبالضرورة سيكون على الجاليات العربية التي لعبت دورًا إيجابيًا في خدمة الحقوق الفلسطينية في الغرب أن تنشغل لفترة، لا يعلم إلا الله إلى متى تمتد، بالدفاع عن وجودها وحقوقها، لتتراجع القضية الفلسطينية من واجهة المشهد مختفية وراء دخان الحريق الذي لف سماء المشهد السياسي بالضبط كما لف سماء نيويورك وواشنطن.

دوربان ومحاولات تكريس الاخلاقيات الاستعمارية ([20])

من يتأمل الموقف الامريكي من جدول أعمال مؤتمر دوربان وما شهدته مرحلة الاعداد له، لا يدهشه فقط موقف سياسي منحاز على حساب الحقوق الثابتة للفلسطينيين. بل الاستمرار في إنكار إنسانية أبناء الجنوب، ومن ثم حقوقهم.

فقضية العبودية، ومسئولية الغرب عنها أخلاقيًا وسياسيًا، من القضايا التي يشكل التنكر لها برهانًا قويًا على أن علاقات الشمال الجنوب ما زالت تحكمها أخلاقيات استعمارية ورثت الاستعمار التقليدي، والولايات المتحدة بهذا الموقف تثبت أن معركتها للسيطرة على مؤسسات الأمم المتحدة لم تتوقف.

وهي بذلك تعيد للأذهان ذكريات كان كثيرون يأملون نسيانها عندما انسحبت من منظمة اليونسكو لسنوات، وسعت بكل الوسائل لأن تنزع عنها صبغتها التي كانت تتسم بتعددية حقيقية في عهد أحمد مختار إمبو. ومشهد الدولة العظمى التي تقف لتهدد وتتوعد وتضغط بكل قوة لحرمان المجتمع الدولي كله من حقه في مناقشة قضايا تتصل اتصالًا مباشرًا بقضية العنصرية، هو في حد ذاته موقف عنصري مقيت، فمنطق الوصاية والاملاء ينسف كل

دعاوى المساواة.

([20]) نشر في 4/ 9/ 2001.

وهذا المشهد يختلف كثيرا عن مشهد الدولة العظمى التي وقف وزير خارجيتها (وارين كريستوفر) على منصة **المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان**: (فيينا 1993)، معلنًا أن بلاده لن تسمح بأن تكون الخصوصيات الثقافية مبررًا لإهدار حقوق الإنسان. واعتذار الرئيس الأمريكي لشعب جواتيمالا لأن بلاده تشترك في تحمل المسئولية، بشكل غير مباشر، عن مقتل عدة آلاف من معارضي نظام الحكم فيها، لا يتسق مع موقفها الرافض للاعتذار عن جريمة بشعة راح ضحيتها أكثر من 40 مليون نسمة، كما حرمت ملايين أخرى من أبسط حقوقها، والتهمتها آلة الرأسمالية الشرسة ليصنع عرق الضحايا ودماؤهم رفاهية المواطن الغربي.

وفي هذه النقطة من مسار تاريخ الجنس البشري ينقسم سكان الكوكب إلى متقدمين ومتخلفين، ويرى المتقدمون أن تقدمهم ليس فقط نتيجة تفوقهم في التنظيم الاقتصادي أو السياسي، بل نتيجة تفوق أجناسهم ورقي الدماء التي تجري في عروقهم، وهذه القناعة التي قد يحتاج الوصول لشواهدها إلى تحليل الخطاب الثقافي الغربي وتجاوز الديباجات التي تغلفه، تتجلى آثارها واضحة في تصور هؤلاء المتقدمين أن من حقهم بحكم هذا الرقي الحفاظ على الحضارة التي هم حراسها من (البرابرة) وأن استمرارهم في حراسة تخلف المتخلفين بسيف من نار يحمي الحضارة منهم.

وتلك أسوأ أشكال العنصرية.

وفي هذا السياق نلفت النظر إلى ما تعرضت له أمم الجنوب – الشرق من سياسات إمبريالية مركبة أتت على الموارد الاقتصادية وشوهت الثقافات. وجاءت العبودية لتحطم البنية السكانية للعديد من مجتمعات الجنوب. وليست مصادفة أن ترتبط خارطة انتشار العبودية إلى حد كبير بخارطة التخلف الاقتصادي.

فالعبودية ليست مجرد جريمة قتل ذهب ضحيتها الملايين – وهذه وحدها جريمة شديدة البشاعة – بل جريمة مركبة ولدت جرائم ما زالت تتوالى نتائجها، وبخاصة في أفريقيا

التي من المؤكد أنها لا تتحمل وحدها مسئولية بؤسها وفقرها، فإذا استخدم هذا التخلف مبررًا لمزيد من الاستغلال فإن الظلم يصبح أشد فداحة.

ولقد أثبتت تجارب الصراع في القرن العشرين بأشكالها كافة أن القدرة على التدمير تتزايد بوتيرة غير مسبوقة في تاريخ البشرية، وما لم نثبت جميعًا، على اختلاف انتماءاتنا، أننا نشعر بمسئولية مشتركة إزاء الحفاظ على الأمن والسلم الدوليين، فسوف تكون البشرية أمام مخاطر حقيقية. وأهم ركائز الأمن والسلم الدوليين وجود نظام للعلاقات الدولية يتمتع باحترام حقيقي من كل أطرافه. وجود قواعد ملزمة تتبعها الدول جميعًا بغض النظر عما تحرزه من قوة أو ثروة. ومن هنا فإن مواجهة العنصرية أيًا كان شكلها أو مكان وجودها هو الحد الأدنى، أخلاقيًا وسياسيًا، الذي يضمن تحقيق هذا الهدف.

ففي قلب الحضارة الغربية ما زالت النازية تتنامى وتكتسب أنصارًا، وفي البلقان تنتصب المأساة شاهدًا على أن الآخر الديني والعرقي ما زال مستباحًا في قلب التشكيل الحضاري الغربي، وكذلك ما يعانيه السكان الأصليون في الأمريكتين واستراليا وما جاورها من اضطهاد وإبادة مادية ومعنوية.

وهي حقائق تضفي معنى مختلفًا على أحداث مشابهة كان يراد لها أن تكون من خلال الالحاح الاعلامي برهانًا لا يقبل الشك على أن عالم الجنوب وحده موبوء بأمراض التخلف. ومرة أخرى يستخدم ذلك مقدمة في قياس منطقي فاسد يكون تكئة لمزيد من الايغال في العنصرية. أما قضية اعتبار الصهيونية شكلًا من أشكال العنصرية، فينبغي النظر الى ذلك على مستويين: الأول قانوني متصل بالكيفية التي ينبغي أن تدار بها العلاقات الدولية. ذلك أن القرار الصادر عن الأمم المتحدة في هذا الشأن هو وثيقة صدرت عن مؤسسة دولية تعبر عن المجتمع الدولي، ورغم أننا لا نقر التراجع عنه، إلا أننا نشدد على أن السعي لإعادة الاعتبار اليه سعي مشروع بكل المعايير، وبالتالي فإن مساعي الولايات التي تستهدف منع إدراج الموضوع على جدول أعمال المؤتمر يتجاوز كونه انحيازًا لا يبرره

منطق اخلاقي سوي، ليكون سابقة تحول الصهيونية إلى مقدس لا تجوز مناقشته ولا وضعه موضع التقييم، الأمر الذي يفتح الباب لصراعات ثقافية قد توفر مناخًا لصراعات أخرى أشد تكتوي البشرية بنارها.

من ناحية أخرى وعلى المستوى الفكري تجب التفرقة بحسم بين مفهومين ظلا يبدوان مترادفين بفعل كثافة الأكاذيب الصهيونية وهما: "**اليهودية**" و"**الصهيونية**". أما اليهودية فديانة سماوية نكن لها كل تقدير ومن حق معتنقيها أن يشعروا بحنين ديني إلى بقعة معينة (فلسطين)، وتلك المشاعر ليست موضع تجريم لأنها شعور ديني داخل ضمن حرية المشاعر الدينية التي تكفلها كل المواثيق الدولية.

أما الصهيونية التي ترتب على هذه المشاعر الدينية مشروعًا استيطانيًا أو حقوقًا سياسية مدعاة فهي العنصرية بعينها، فهذه الأرض التي اغتصبها الصهاينة بدعم من القوى السياسية الغربية الكبرى هي أرض فلسطينية، والانتقال من "**الفكرة الصهيونية**" إلى "**المشروع الصهيوني**" يكشف عن المزيد من معالم الجريمة.

فالصهيونية التي استغلت ظرفًا دوليًا مواتيًا، وتصورات لمصالح القوى الغربية الاستعمارية الكبرى لتحول "**الأرض المقدسة**" إلى "**العجل الذهبي**"، ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني من الجرائم ما يفوق ما تعرض له أعضاء الجماعات اليهودية في أي مكان في العالم على امتداد التاريخ الإنساني، فضلًا عن أن الخطأ لا يبرر الخطأ. وأثبتت تجربة المستوطن الصهيوني أن الدولة الصهيونية لن تكون قادرة على البقاء في أرض شعب فلسطين إلا بإبادة أبنائه وسرقة تاريخه وتهويد ثقافته.

ولا فرق في نظر أي منصف بين نقل العبيد من بلادهم قسرًا للغرب ليكونوا وقود آلته الاقتصادية، وبين طرد الملايين من أبناء الشعب الفلسطيني من ديارهم لتقوم على انقاض وطنهم ثكنة عسكرية لحماية مصالح الاستعمار الأمريكي وتستخدم اليهودية لتسويغ جرائمها. إن منطق الازدواجية الاخلاقية هو أهم مرتكزات الفكر العنصري. وقد

كان من أهم مبررات ارتكاب جريمة العبودية، وهو في المقام الأول مرض صهيوني أصيل لأن الصهيونية تقسم العالم بشكل صارم إلى "**الأنا**" و"**الآخر**" وتستبيح في تعاملها مع الآخر كل شئ.

ومن ثم فإن المعركة واحدة، وعلى ضحاياها أن يعملوا معًا لاجتثاث المرض من جذوره. فما لم تكن هناك معركة نخوضها لإقرار معايير أخلاقية تقوم على مساواة حقيقية بين البشر كافة، فسوف يبقى تاريخ البشرية سلسلة من الجرائم المتوالية يرتكبها الأقوى ضد الأضعف. وسوف تتحول الاختلافات بين البشر من مساحة للتفاعل الخلاق إلى قنابل قابلة للانفجار.

شهداء الاغتيالات.. منظور جيلي ([21])

قبل نهاية أغسطس أصدرت مؤسسة "**الحق**" وهي الفرع الفلسطيني للجنة الحقوق الدولية تقريرًا عن سياسة الاغتيالات التي ينفذها الكيان الصهيوني ضد الناشطين الفلسطينيين. التقرير رصد العمليات التي تمت حتى 18 أغسطس وهي 41 عملية راح ضحيتها 41 ناشطًا فلسطينيًا و11 ضحية آخرين.

ورغم أن سياسة الاغتيالات تمثل أسوأ أشكال الجريمة المنظمة التي يقوم بها كيان سياسي يتمتع في نظر القانون الدولي بوضع الدولة، وأنها تفضح درجة الاستهانة بالقانون الدولي والمواثيق الحقوقية الدولية، فإن لها دلالات أخرى تستحق التوقف والتأمل. في مقدمة ما يلفت النظر في الظاهرة طبيعة التركيب الجيلي للمستهدفين، فمن بين 41 شخصًا استهدفهم الكيان الصهيوني نجد ما يلي: 11 شخصًا يبلغ عمرهم 25 عامًا، وما دونها، 14 شخصًا بين 25 و30 عامًا، 9 أشخاص بين الثلاثين والأربعين، 5 أشخاص فقط فوق الأربعين. وإذا أخذنا سن الأربعين مؤشرًا على تجاوز مرحلة الشباب، فإن هذا يعني أن 34 ناشطًا من بين 41 هم ممن لم يتجاوزوا الأربعين من العمر.

فإذا أخذنا في الاعتبار أن هؤلاء الناشطين يمثلون في نظر حكومة الكيان الصهيوني مصدر خطر كبير على أمن الكيان "**ورعاياه المدنيين**"، وهو ما يعني أن هذه الشريحة العمرية الشابة تمثل القوة الضاربة للانتفاضة، وأن هؤلاء قد انخرطوا في صفوف

([21]) **نشر في 19 /9/ 2001**.

المنظمات التي ينتمون إليها في سن مبكرة جدًا ما زال ينظر إليها بوصفها مرحلة تحصيل وتعلم، لا مرحلة عمل. فضلا عن أن يتبوأ المنتمون إليها موقعا قياديًا.

فما دلالة تمتع مثل هؤلاء الشباب بهذه القدرة على التأثير؟

وإذا انتقلنا إلى الانتماءات التنظيمية للشهداء وجدناهم حسب الترتيب التنازلي: 14 ينتمون إلى جماعة حماس بينهم 11 دون الأربعين، 12 من منظمة فتح اثنان منهم فقط ممن تجاوزوا الأربعين، 9 من تنظيم الجهاد كلهم دون الأربعين، 5 لم تحدد انتماءاتهم التنظيمية وجميعهم في الثلاثين وما دونها.

وأول ما تشير إليه الأرقام أن الطبيعة الشابة للمجتمع الفلسطيني منعكسة بشكل واضح على الهيكل التنظيمي للانتفاضة، فحقيقة أن الشعب الفلسطيني من أكثر شعوب العالم خصوبة تمد حركات المقاومة الفلسطينية برصيد هائل يجمعهم، على اختلاف التنظيمات التي ينتمون إليها، أنهم في سن الشباب.

وتطرح هذه الحقيقة تساؤلات بشأن العلاقة بين هرم السلطة في العالم العربي والتركيب الجيلي للمجتمعات العربية، فالشباب يشكلون في معظم هذه المجتمعات نسبة تتراوح بين 40 و60 % ورغم ذلك فإن فرصة وصول هذه الشريحة العمرية إلى مواقع التأثير في بلادها محدودة جدًا، وأحيانًا تكون معدومة. والأوصاف التي يخلعها الإعلام الصهيوني على ضحايا الاغتيالات تقطع بأنهم ذوو أدوار بارزة في قيادة الانتفاضة وبعضهم "**خبراء**" في تخطيط العمليات وصناعة المفرقعات والعمل التنظيمي.

وربما كان للبعد الجيلي دور في نجاحهم يستدعي أن طيلتفت علماء الاجتماع العرب لهذا البعد المغفل. وعلى قمة الهرم التنظيمي لحزب الله يجلس السيد حسن نصر الله الذي انتخب مؤخرًا لولاية رابعة وهو دون الأربعين من العمر، وقد استشهد الدكتور فتحي الشقاقي مؤسس تنظيم الجهاد الإسلامي الفلسطيني بعد سنوات من قيادة التنظيم وهو في العقد الخامس من العمر، والأمثلة من ساحة المقاومة كثيرة.

غير أن هذه السمة التي لفتت النظر إليها ظاهرة اغتيال نشطاء الانتفاضة لا مكان لها في الواقع العربي خارج التنظيمات ذات الصلة بمقاومة المشروع الصهيوني، فالتنظيمات العربية الأهلية (الحزبية والنقابية وما شابههما) يحكمها القانون نفسه الذي يحكم الهرم التنظيمي الرسمي: قاعدة الهرم الضخمة دون الأربعين وقمته تجاوز الستين وأحيانا السبعين في مفارقة عربية كشف عنها تقرير منظمة "**الحق**" دون أن يكون ذلك من أهدافه.

مفارقات عربية جدًا ([22])

زار القاهرة مؤخرًا السياسي البلجيكي ذو الأصل اللبناني دياب أبو جهجه رئيس **الرابطة العربية ببلجيكا**، وهي أحد الأطراف الرئيسة في المساعي العربية التي تستهدف محاكمة مجرم الحرب الصهيوني إرييل شارون رئيس وزراء الكيان الصهيوني.

وفي لقاء معه ضم أهم النشطاء في مجال دعم الحقوق الفلسطينية تحدث دياب عن الرابطة والقضية المرفوعة أمام القضاء البلجيكي. ورغم أن حديثه تضمن الكثير من المعلومات المهمة إلا أن المفارقات التي وردت في حديثه أصابتني بدهشة لم تفارقني لساعات طويلة بعد اللقاء.

أول المفارقات أن سعاد سرور – وهي ممن نجوا من مجزرة صبرا وشاتيلا – ترددت لسنوات على مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية داخل لبنان وخارجها ساعية إلى تحريك دعوى أو تحقيق في المجزرة فتعرضت للتجاهل ثم الطرد. وبعد أن عرضت شبكة **بي بي سي** البريطانية فيلمها الشهير "**المتهم**" وبدأت إجراءات الدعوى كان رد فعل المنظمة هو العتاب الذي يلخصه سؤالهم: لماذا لم تتصلوا بنا أولًا؟

وهو ما يعني بوضوح أن المبادرة الإيجابية اعتبرت تعديًا على المنظمة التي تريد عمليًا احتكار قضية الصراع العربي الصهيوني.

([22]) نشر في 1/ 10/ 2001.

المفارقة الثانية في موقف منظمة التحرير الفلسطينية مفارقة مأساوية تكشف عن أن أمراض التسلط العربية انتقلت إليها، حتى قبل أن تكون لها سيادة حقيقية على شبر واحد من الأرض، فبعد التنكر المؤسف الذي عوملت به سعاد سرور طلب منها إرسال برقية تأييد للقائد!

وردًا عل سؤال عن تمويل الرابطة قال لا نتلقى أي تمويل رسمي عربي وتُموَّل ذاتيًا بالكامل، ولذا فإنهم عاجزون عن تمويل راتب ثابت لشخص واحد متفرغ، فكل ما تنجزه الرابطة – وهو كثير ومكلف – عمل تطوعي. وبطبيعة الحال تراكمت عليها الديون بشكل يهددها، في ظل الرقابة المحاسبية الرسمية الصارمة، بأن تعلن السلطات البلجيكية إفلاسها لتسقط القضية المرفوعة أو على الأقل تتأثر بشكل كبير.

وبطبيعة الحال تتعامل الرابطة – بشكل غير رسمي – مع عواصم ومؤسسات رسمية عربية كان شعار معظمها "**أعانكم الله**". وفي عبارة قاطعة قال دياب: "**حتى الآن لا علم لي عن دولة عربية لها مصلحة في كشف جريمة صبرا وشاتيلا**". غير أن ذلك لا يعني خلو الساحة العربية من أطراف عربية تتفاعل مع الملف، فهناك أطراف عربية تعتقد أن محاكمة إيلي حبيقة يمكن أن تضر بها عرضت تمويلًا مشروطًا، وهو ما رفضته الرابطة.

مفارقات الرسميين العرب لا تقتصر على ذلك، فكثير من السفارات العربية في أوروبا تتبنى موقفًا سلبيًا – بل أحيانًا عدائيًا – من الجاليات العربية في أوروبا، وتوافق على الخطاب الغربي الاتهامي الذي يصم هذه الجاليات بكل نقيصة. وحتى لا تتهم بالدفاع عنهم، توافق سفارات عربية كثيرة على مما تعانيه هذه الجاليات من قمع.

ويعني هذا الموقف أن مؤسسة الدبلوماسية العربية لا تعتبر هذه الجاليات رصيدًا لها، بل تراها عبئًا يجب التخلص منه، وإعلان براءتها التامة منها عمليًا، بشكل يزيل كل لبس. ويرى دياب أن هذه الجاليات هي وحدها القادرة على إحداث تغيير حقيقي في

الموقف الأوروبي المنحاز للكيان الصهيوني، فهم قادرون على جعل هذه القضية قضية أمن قومي في أوروبا.

المحامون العرب الذين تولوا القضية في مراحلها الأولى عكس أداؤهم مفارقة أخرى مزدوجة، فالدور الذي قام به إيلي حبيقة في تنفيذ جريمة صبرا وشاتيلا معروف بل مشهور، وكل تقييم أخلاقي لما يجب فعله يقطع بضرورة توجيه التهمة إليه.

لكن المحامين قصروا التهمة على متهمين صهاينة فارتكبوا خطأ مزدوجًا، فبالإضافة إلى التجاوز الأخلاقي الذي ينطوي عليه هذا السلوك، فإن الدولة البلجيكية التي واجهت حرجًا شديدًا بسبب القضية وتداعياتها السياسية سعت للتخلص منها بدعوى أنها قضية سياسية وراءها دوافع عنصرية. وكان خلو الدعوى من اتهام إيلي حبيقة برهانًا كافيًا، وبالفعل أحيلت القضية إلى محكمة الاستئناف البلجيكية، وما زالت في انتظار قرار يحدد مصيرها.

ولا شك في أنه درس بليغ في أن الحسابات السياسية الضيقة يمكن أن يكلف الأمة الكثير في قضايا مصيرية، وهو درس لم تكن كل إخفاقاتنا في الصراع العربي الصهيوني كافية لأن نستوعبه.

هل الصهيونية في ذمة التاريخ؟ ([23])

اللفظ الدال على الأدباء والمفكرين في العبرية يعني: "**رجال الروح أو القادة الروحيون**"، ويعامل الروائيون في الكيان الصهيوني بوصفهم القادة الروحيون لهذا الكيان، وتدرس أعمال مشاهيرهم في المدارس العامة والجامعات، كما تبرز وسائل الإعلام رؤاهم وتصوراتهم، بدءًا من الأدب والثقافة مرورًا بالأخلاق والدين وانتهاء بالسياسة الخارجية. فهم بدرجة كبيرة قوة من أهم قوى توجيه الرأي العام على المستوى الآني ومصدر من مصادر تشكيل وعي المجتمع الصهيوني بنفسه وبالعالم.

وقد بقي الكيان الصهيوني منذ نشأته حتى وصول الليكود للحكم في منتصف السبعينيات تحكمه الصهيونية العمالية التي أنشأته، وتشكل وعي الجيل المؤسس في ظل هذا التوجه الذي لعب دورًا كبيرًا في تدعيم صهيونية الكيان في وجه محاولات قطع الصلة بينه وبين الصهيونية، ليصبح مجرد دولة لا تتصف بأي خصوصية دينية أو أيديولوجية.

ومنذ توقيع اتفاق التسوية مع مصر، عادت الحياة بالتدريج للأفكار التي تستهدف التنصل من الصهيونية، حتى تبلورت الظاهرة مؤخرًا فيما يسمى "**ما بعد الصهيونية**". وقد تناول باحثون ومحللون عديدون ظاهرة ما بعد الصهيونية وجذورها النظرية ومقولاتها السياسية. لكن الأهمية المشار إليها للأدب في المجتمع الصهيوني تجعل تتبع آثار الظاهرة على هذا المجال كاشفة لمدى عمق التحولات التي تتضمنها الفكرة، وبخاصة

([23]) **نشر في 20/ 10/ 2001.**

أن الروائيين الإسرائيليين البارزين لا يكفون عن معالجة مفهومي الصهيونية والدولة اليهودية في أعمالهم.

فهي من ثم مرآة تنعكس عليها التحولات التي تطرأ على رؤية المجتمع الصهيوني لهذين الموضوعين. ومن الأمثلة المهمة في هذا السياق مائير إسحاق شاليف الذي لمع نجمه مع نشر روايته: "**غراميات روسية**" (1988) التي وزع منها في الكيان الصهيوني مائة ألف نسخة وكانت ضمن الكتب الأكثر مبيعًا في النمسا وألمانيا.

تدور أحداث الرواية حول ثلاثة رجال وفتاة من الصهاينة جاءوا إلى مزرعة هزيلة في الجليل ونجحوا في تحويلها إلى مزرعة مزدهرة، ولم يقلع أحد مؤسسي هذه المزرعة الجماعية عن حب عاهرة روسية في بلدته الأصلية التي جاء منها، لكنه تزوج طاهية المزرعة بحكم الضرورة. ثاني المؤسسين أنفق كل ما لديه في تكديس السلاح والذخيرة وفي النهاية انفجر المخبأ وهو بداخله، وحزن رفاقه برهة لمصرعه، لكنهم حزنوا حزنًا شديدًا على الأسلحة التي دمرت.

ثالث المؤسسين "**بغل**" يتحدث عنه الجميع في الرواية كما لو كان آدميًا، بل إنه حين مات أقاموا باسمه بناء ووصفوه بأنه من أبرز شخصيات الحركة، ويؤكد شاليف من خلال شخصيته إخلاص رواد الحركة الصهيونية للبنادق والبغال واحتقارهم الحياة الإنسانية بشكل تام. وعلى طول صفحات الرواية يرد ذكر الحرب بشكل مبهم دون إشارة لأسماء وتواريخ، ويموت البشر فيها دون أن يكترث بهم أحد.

ويصور شاليف الصهاينة أشخاصًا يعيشون حياة لا موضع فيها لأية دوافع سياسية أو تاريخية تعطي تضحياتهم معنى، وشخصياته لا تعرف أي شئ عن المثاليات كالسعي للتحرر من الاضطهاد أو استعادة الكرامة عبر الاستقلال الوطني، وبشكل صريح تصور الرواية ضحالة الصهيونية العمالية ونفاقها وخستها، كشيء ليس فيه ما يدعو

للإعجاب، وهو يصور المتمردين عليها على نحو يدفع للتعاطف معهم. وتأتي نهاية الرواية بأن يفقد الصهاينة الشيء الوحيد الذي يهمهم "**أسطورة تفوقهم الروحي**".

الروائي الصهيوني الشهير عاموس عوز أكثر صرامة وقسوة، وتتسم أعماله عمومًا بغموض شديد فيا يتصل بالدولة الصهيونية ورموزها و"**انتصاراتها التاريخية**". عوز يحتقر الكثير من مقومات الدولة اليهودية ويقرر أن المحرقة جعلته يقبل القومية اليهودية بدرجة ما، وقد بذل جهدًا غير عادي في مؤلفاته وأحاديثه الإعلامية لتشويه الأفكار والرموز التي ترتكز عليها الدولة. وهو لا يستسيغ الولع الصهيوني بالقدس ويعكف منذ سنوات على صيغة أيدلوجية معادية للقدس إلى حد ما.

أما أكثر آرائه غرابة وإثارة للدهشة فهو قوله: "**أدرك أن هذا سيبدو اقتراحًا مخبولًا وغير واقعي الآن لكنه سيكون مقبولًا خلال قرن أو قرنين، ينبغي أن نحول هذا الشعب إلى شعب دون ديانة محددة فليكن أفراد الشعب اليهودي مسيحيين أو مسلمين، وينبغي من الوجهة الدينية أن يكون هناك خيارات مختلفة، حتى يتسنى لأبناء شعبنا الانتماء إلى أديان عديدة**".

وكما هو الشأن في معظم البلدان الغربية يجنح الفنانون الإسرائيليون نحو رفض المثاليات السياسية لدولتهم، وبدرجة أكبر من غيرهم من صناع الثقافة، النحات الإسرائيلي إيجال تومركين يتهم الدولة الصهيونية في أحد أعماله بأنها لم تجد الخلاص إلا في فوهة المدفع، ويستدعي في أعمال أخرى مقارنات بين الدولة الصهيونية والصليبيين ويخلص إلى أن "**الصهيونية كانت حلما أما الواقع فمأساة**"، الفنان يورام زوروف يصور المستوطن الصهيوني في صورة شخص بدين مثير للاشمئزاز على وشك السقوط، أما الرسام بيرجنر فيصور الرواد الصهاينة في هيئة حيوانات واسعة الأعين هزيلة تثير بضعفها الشفقة، وهو يؤكد في أعماله أن: "**الصهيونية صارت في ذمة التاريخ**".

وفي أحيانٍ كثيرة يعبر الفنانون الصهاينة بشكل صريح دون رمز عن أن الدولة الصهيونية هي الجحيم، ومن الطبيعي أن يكون الحل هو الهجرة من الجحيم، وتلك هي الرسالة المتضمنة في كثير من أعمالهم. وقد استضاف المتحف الإسرائيلي بالقدس عام 1991 معرضًا موضوعه "**حالة الاغتراب اليهودي وفقدان الجذور**".

والفكرة الكامنة وراء المعرض هي الاعتراف بأن اليقظة من الحلم الصهيوني تركت في الفن الإسرائيلي آثارًا عميقة، وأن إسرائيل لم تعد وطنًا، حتى بالنسبة لليهود الذين يعيشون فيها، بل إن الكثيرين من الفنانين شغلوا أنفسهم بالدعوة لفكرة أن غرس اليهود في هذا المكان بشكل غير طبيعي أدى إلى الاختناق، وأن الأفضل حثهم على الهجرة من هذا البلد.

إنها صورة الأزمة العميقة التي يعيشها الكيان الصهيوني، وهي أزمة لن تحلها سياسة الاغتيالات ولا المزيد من الاستخدام المجنون للقوة لإسكات صوت الآخر، فصيحات الإنذار هذه المرة منطلقة من داخل المجتمع الصهيوني.

وللتاريخ سننه التي لا تتبدل...ولا بالأسلحة النووية!

من الامبراطوريات إلى القرية الصغيرة ([24])

مع كثرة الحديث عن عالم معولم اقتصاديًا وأمنيًا وإعلاميًا، ظهرت مفردات كثيرة تحاول وصف ملامح التغير، ورمزت حركة تفتت الدول إلى اتجاه عكسي تمامًا. وقد تنبأ الكثيرون بتحطم البنية التقليدية للدولة/ الأمة لتحل محلها كيانات أكثر تناغمًا وأقل مركزية، فتنبأ الفرنسي جان ماري غاينهو في كتابه "**نهاية الدولة الأمة**" بأن تسقط الدولة ويحل محلها عصر استعماري جديد تكون أداته الرئيسة شبكة الاتصالات والمؤسسات الإعلامية.

فالعالم أصبح قادرًا على بناء مجتمعات أكثر تحررًا من قيود الجغرافيا والسلطة المركزية. لقد كان عدد دول العالم عند اندلاع الحرب العالمية الأولى 62 دولة، ومع انتهاء الحرب الباردة أصبح العدد 193 دولة بينها 35 دولة يقل عدد سكانها عن نصف المليون نسمة.

وحسب دراسة لرئيس **دائرة العلاقات الدولية بجامعة بوسطن** الأمريكية، فإن استمرار تفتت الدول القائمة يمكن أن يرفع عدد دول العالم إلى 3500 دولة، فهل تحول العالم إلى قرية صغيرة حقا؟.

لقد أصبح الإنسان أكثر قدرة على معرفة المعلومات في وقت أقل من ذي قبل، لكنه أصبح قادرًا على معرفة ما هو متاح بالفعل، بينما تطل السرية برأسها من شقوق

([24]) نشر في 26/ 10/ 2001.

عديدة لتضيق المساحة المتاحة ابتداء أمام أجهزة الإعلام. وطغت الاعتبارات المهنية والاقتصادية على عمل أجهزة الإعلام التي تزايدت قدرتها على التأثير في القرار السياسي وصناعة الرأي العام.

لكن أجهزة الإعلام التي اختصرت المسافة زمانًا ومكانًا صنعت مسافات وحواجز أخرى بين الشعوب والثقافات وعززت الاختلافات، وبتركيزها على ما يحقق الإثارة، بدوافع مهنية وسياسية معًا، وهي بالتالي، جعلت "**القرية الصغيرة**" في حالة تدافع خشن بالمناكب بين المصالح المتناقضة والمذاهب المختلفة ووفرت رصيدًا لفكرة الصراع.

والأزمات الكبرى العالمية غالبًا ما تكشف عن مواطن الخطر في بنية النظام، وما تشهده الولايات المتحدة في إطار حملتها العسكرية على أفغانستان من جدل حول حدود الأمن وحدود الحرية منعطف سيترك آثارًا عميقة، لا في الولايات المتحدة فحسب، بل في العالم كله. فقد أثبتت تجربة العقدين الماضيين إلى أي حدٍ يمكن أن تكون أجهزة الإعلام سلاحًا ذا حدين. فمثلا درجة الانتشار التي حققتها فكرة مثل "**صراع الحضارات**" التي ظهرت للمرة الأولى في صيف 1993 تحققت بفضل وسائل الإعلام، فخلال أقل من عقد من الزمان حققت ما لم تحققه خلال عقود عديدة أفكار أخرى ظهرت قبل بدء العصر الذهبي لوسائل الإعلام وانتشارها، وهو ما يشير أيضًا إلى أهم سمات المزاج العقلي والنفسي الذي تساهم أجهزة الإعلام في صناعته.

فالمنتج الإعلامي سطحي بقدر ما هو براق، ضيق الأفق بقدر ما هو واسع الانتشار، وهنا مكمن الخطر. فالعالم قرية صغيرة، ليس فقط لأن السلع تعبر الحدود بسرعة أكبر وسهولة أكثر، ولا لأن البث المباشر حطم سيادة الدولة بل لأن التقنية العسكرية حطمت هذه السيادة – عمليًا – بالصواريخ عابرة القارات وأقمار التجسس والاستطلاع فائقة القدرة.

قد تكون "**القرية الصغيرة**" منحت البسطاء المباهج الساذجة التي يحلمون بها من منتجات استهلاكية غربية، لكنها مكنت من يريد من الضعفاء أن يهدد أمنها، ففي عصر الإمبراطوريات لم يكن بإمكان فرد أو مجموعة صغيرة أن يلحق بأي منها واحد على ألف من الخسائر التي نجمت عن حادث كالذي شهدته الولايات المتحدة مؤخرًا.

وبالتالي فإن أجهزة الإعلام صنعت قرية صغيرة لكنها وضعت في داخلها أسباب انفجارها، فالتراكم المعرفي متسارع بوتيرة كبيرة والمسافات تتلاشى، لكن الحواجز لا تتلاشى.

وحيث إن العودة إلى عصر الإمبراطوريات لا يبدو ممكنًا، فإن المشكلة تظل قائمة!

هل هو صدام حضارات؟ ([25])

تصدرت مقولة صمويل ب. هنتنجتون: "**صدام الحضارات**" واجهة المشهد الإعلامي العالمي كإطار نظري لتفسير أحداث 11 سبتمبر في الولايات المتحدة، ومنذ أن نشرها هنتنجتون للمرة الأولى 1993 كانت أطروحته موضوع تحليلات وردود كان القاسم المشترك فيها أن هنتنجتون وضع "**دين**" (الإسلام) مقابل "**منطقة جغرافية**" (الغرب).

وهذا التقابل بين الدين والجغرافيا ليس خطأ كما تصور كثيرون، بل يلخص منهجًا في النظر والتحليل يرى الغرب واقعًا ملموسًا بينما خصومه مجرد أشباح، أفكار وأديان وأيديولوجيات، يمكن الإشارة إليها جميعًا بعبارة "**إمبراطورية الشر**". غير أن إسقاط المقولة على ما يحدث الآن لا يختلف عن تصريح جورج بوش الذي استخدم فيه تعبير الحروب الصليبية وتصريحات سيلفيو برلسكوني التي أثارت ضجة كبيرة قبل قليل، إذ تعني جميعها أن أسامة بن لادن يمثل الإسلام وأن برلسكوني يمثل الغرب، وبهذا المعنى فقط يكون الصدام حتميا بين الإسلام والغرب!

فالحضارة الإسلامية إذا اختصرت في شخصية مثل بن لادن، والغرب إذا اختصر في شخص مثل برلسكوني فلا مفر من صراع الحضارات، لكن هذا الاختصار – لحسن حظنا جميعًا – غير ممكن. وقد طرحت الأحداث الساخنة التي يشهدها العالم على أجهزة الإعلام قضايا كانت حتى وقت قريب هم الأكاديميين في المقام الأول، فتقييم عطاء حضارة ما للتاريخ الإنساني ليس مما يسهل التعامل معه إعلاميًا.

([25]) نشر في 31/ 10/ 2001.

وقد كنا طوال عقود نشكو من أن الكثير من المؤرخين والمفكرين الغربيين ينكرون دور الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ الإنساني، ويزيفون حقائق التاريخ ليتهربوا من الاعتراف بأن للحضارة الإسلامية فضلها الكبير على نهوض أوروبا. وإقرارنا بأن هذا المسلك مناف لمقتضيات العدالة يفرض علينا أن ننصف خصومنا، فـ "**الخطأ لا يبرر الخطأ**"، والحضارة الغربية لا يمكن اختصارها في اللوبي الصهيوني أو البنك الدولي أو تجار الحروب الغربيين.

وهناك صراع داخل الحضارة الغربية نفسها بين أنصار العولمة من شركات متعددة الجنسية ومافيات جريمة منظمة من ناحية وبين تيار واسع من مناهضي السياسات الاستعمارية، وهو ما يعبر عنه المفكر المعروف الدكتور عبد الوهاب المسيري بالصراع بين "**داروين**" و"**مايكل أنجلو**" والمنتصر حتى الآن هو للأسف داروين. ورغم أن تاريخ علاقة منطقتنا بالغرب مليء بالصفحات السوداء التي كنا فيها ضحية نزواته العسكرية التي لا تكاد تنقطع منذ الحروب الصليبية، فإن العداء المبدئي لم يكن يومًا قاعدة هذه العلاقة، كما أن ما نال المسلمين في الغرب من تمييز لم يتحول، حتى بعد أحداث 11 سبتمبر، إلى حالة عداء شاملة.

ويكفي أن نقارنه بما حدث في نيجيريا مثلًا، وهي دولة يشكل المسلمون فيها أغلبية، إذ وقعت مصادمات طائفية بسبب أحداث أمريكا راح ضحيتها المئات من الجانبين، وفشل الجيش النيجيري نفسه في وقفها. وتغذية مشاعر العداء الكاسحة لدى الطرفين يمنح فرصة ذهبية لخفافيش الظلام، وبخاصة في الكيان الصهيوني الذي يستمد إحساسه بالأمن من وجود علاقة صراعية بيننا وبين الغرب تجعل وجودها أحد أعمدة منظومة الأمن الغربية.

وكل تَحوُّل عن العلاقة الصراعية يفقد المشروع الصهيوني أحد أهم مبررات وجوده، وإن كانت أسباب الصراع قائمة تغذيها بصفة أساسية رغبة الغرب في التوسع الدائم على حساب الآخر.

خطورة منطق الاستئصال ([26])

شاع مصطلح "**العرب الأفغان**" في الخطاب الإعلامي العربي والعالمي، لوصف غير الأفغان المقيمين في أفغانستان منذ أن كانت مسرحًا لعمليات مقاومة ضد الاحتلال السوفيتي، وينبغي الانتباه ابتداء إلى أن هذه الفئة تضم جنسيات عديدة غير عربية، وقصر الاصطلاح على العرب دون غيرهم وراءه دون شك أهداف سياسية، ربما كان في مقدمتها، الإيحاء بأن هؤلاء "**ظاهرة عربية**" يمكن أن تتحول إلى تهديد لأمن الدول العربية.

وهؤلاء المقاتلون شاركوا في عمليات المقاومة المسلحة التي بدأت في مناخ دولي داعم لحركة المقاومة الأفغانية، التي كانت بغير شك حركة تحرير وطني ضد احتلال أجنبي يتمتع عملها بمشروعية أخلاقية وسياسية لا غبار عليها. ومن قبيل خلط الأوراق والافتئات على التاريخ إهالة التراب على هذه المقاومة بسبب انحراف قادتها عن المسار الصحيح، فتصحيح أخطاء الواقع لا يبرر الافتئات على الماضي.

وقد تشابكت أوراق الملف الأفغاني، مبكرًا، مع أوراق ملفات أخرى شائكة محليًا وإقليميًا، ولعبت حالة غياب الاستقرار التي عاشتها أفغانستان لسنوات دورا كبيرًا في تحويل أفغانستان إلى مركز لنشاط تنظيمات إسلامية أصولية مسلحة أخرى، كما وفرت مناخًا ملائمًا لتحول هذه الفئة، التي قضت سنوات تمارس العمل العسكري، من جزء من عملية ذات هدف محدد وعدو واضح، إلى قنابل موقوتة تأجل انفجارها بسبب تمكنها من

([26]) نشر في **8/ 12 / 2001**.

الكمون في أفغانستان التي كانت ظروفها السياسية المضطربة وطبيعتها الجغرافية القاسية توفران لهم فرصة للبقاء.

ومع أحداث 11 سبتمبر وتداعياتها التي جعلت أفغانستان مسرحًا لعمل عسكري ضخم لم يكن ليقف عند حدود القضاء على تنظيم "**القاعدة**" أو تقويض حكم حركة طالبان، صار ملف "**العرب الأفغان**" ذا أهمية متزايدة. وما يبدو من مسار الأحداث خلال الفترة الماضية أن ثمة اتجاهًا للتعامل مع العرب الأفغان بمنطق "**الاستئصال**". يشير إلى ذلك سلوك قوات ما يسمى "**التحالف الشمالي**" في المناطق التي استولى عليها.

إذ ارتكبت هذه القوات فيها جرائم قتل جماعي استهدفت غير الأفغان وفي مقدمتهم العرب الأفغان، وكانت جرائمهم مثار استنكار بعض الدوائر في الغرب نفسه. كما تشير إليه شواهد كثيرة تؤكد أن الولايات المتحدة سوف تتستر على جريمة ذبح العرب الأفغان دون أن تتوفر لهم فرصة محاكمة عادلة، وفق أي قانون أفغاني أو غير أفغاني، ودون أن تشكل لهم – حتى – محكمة دولية خاصة.

وتغليب منطق الاستئصال بحق هذه الفئة يعني الاستمرار في معالجة الخطأ بخطأ ليصبح الملف الأفغاني سلسلة ممتدة من الأخطاء يؤدي بعضها إلى بعض، فحق الإنسان في محاكمة عادلة تحتمه الاعتبارات الأخلاقية قبل أن تفرضه المواثيق الدولية. وتجاهل هذا الحق يعني أن غبار الحرب حجب مقتضيات العدالة التي توجب على الدول ألا تتصرف كالتنظيمات السرية وتستبيح دماء خصومها لمجرد أنهم خصوم.

وإذا كان درس 11 سبتمبر قد فرض على المجتمع الأمريكي أسئلة كثيرة مثل: لماذا يكرهنا العالم؟ فينبغي الاستفادة من الدرس بوقف الممارسات السياسية التي تبذر في نفوس الآخرين بذورًا تسبب كراهية الولايات المتحدة.

ومن أراد أن ينعم بالأمن فعليه أن يبحث عنه بتحري العدالة، فهو ليس مرهونًا بالقوة، أو القدرة على التخلص من الخصوم. فضلًا عن أن منطق الاستئصال تمت تجربته ضد جماعات إسلامية أصولية متطرفة في أماكن أخرى من العالم وكانت ثمرته شديدة المرارة. وما زالت الجزائر، بعد ما يقرب من عقد من الحرب الشرسة مع بعض هذه الجماعات، عاجزة عن تحقيق الأمن.

وقد يكون من الضروري تقديم أدلة عملية على أن الخروج عن القانون تتم مواجهته بالالتزام بالقانون، فمن عرف منهم مسبقًا أن مصيره هو في كل الأحوال القتل دون محاكمة، مذنبًا كان أو بريئًا، فسيقرر بالضرورة الحرب حتى الموت.

ما يعني أن أجيالًا ستنشأ على مفردات: الثأر، والعداء، والانتقام، والقتال حتى الموت، وهذه الروح – سواء سميناها انتحارية أو استشهادية – تغذي روافد: التطرف، ومعاداة العالم، والارتماء في أحضان العنف، كلغة وحيدة يفهمها الآخر.

وربما كان الأفضل أن تكون هناك مبادرة عربية في هذا الشأن تضمن لهم محاكمة عادلة في بلادهم، فقسم كبير منهم خرج من بلده منذ سنوات في إطار نوع من السماح الضمني كانت تفرضه الظروف آنذاك، كما أن تحولهم إلى مطاردين يائسين يبحثون عن مأوى يمكن أن يعرض أمن بلدانهم لمخاطر جسيمة، إذا أمكن اختراق تنظيماتهم واستخدامهم في أعمال عدائية ضد بلادهم، وهو أمر وارد وله سوابق، فضلا عن أنهم يملكون القدرة التنظيمية التي تمكنهم من ذلك. فمثل هذه المبادرة تفرضها اعتبارات أخلاقية ونفعية في آن واحد .

وما يستفاد من تجربة السنوات القليلة الماضية في ملف جماعات العنف الأصولية استيعابهم في إطار وطني داخل بلادهم ضرورة عربية ملحة، فاستبعادهم سياسيا أدخل عدة أقطار عربية في دوامة عنف سياسي أضر الأطراف كافة، ومعالجة قضيتهم معالجة أمنية محض يعقد المشكلة ولا يحلها. ومن الخطورة بمكان دفن الرؤوس في الرمال وتجاهل المصير

الفادح الذي يواجهونه، والتصرف باعتبار أن الأزمة "**هناك**" بعيدًا عن الحدود، فالملف الأفغاني أصبح أقرب مما يظن كثيرون، وهو لم يغلق بعد، وفي القلب منه ملف "**العرب الأفغان**".

صنع القرار في الغرب بين الساسة والإعلاميين ([27])

أثارت وضعية العلاقة بين صانع القرار الأمريكي وأجهزة الإعلام الكثير من التساؤلات داخل الولايات المتحدة وخارجها. وقد أفادت منظمة "**صحفيون بلا حدود**" التي تتخذ من باريس مقرًا لها أن وزارة الدفاع الفرنسية حظرت على وكالة فرنسية تقدم خدمة صور ملتقطة بالأقمار الصناعية أن تبيع صورًا من أفغانستان لوسائل الإعلام.

واعتبرت المنظمة أن ذلك العمل يرقى إلى مستوى الرقابة. حيث إن فرض حظر عسكري على صور الأقمار الصناعية المدنية يحرم وسائل الإعلام من أداء وظيفتها الرقابية. وبخاصة بعد أن أصبحت كل الصور التي بحوزة وكالة "**سبوت إيماج**" من أفغانستان والدول المجاورة – وضمن ذلك إيران وباكستان – متاحة للجيش الفرنسي وحسب. وهو ما يعني أن المشكلة لا تنبع من أسباب ذات خصوصية أمريكية وأنها ربما تركت أثارها على الأداء الإعلامي على جانبي الأطلسي بدرجات متفاوتة.

ويدور الآن نقاش حول مدى المشروعية الأخلاقية للقيود التي فرضتها الإدارة الأمريكية على التعاطي الإعلامي مع عمليتها العسكرية ضد أفغانستان. وقد قفز التفسير التآمري لواجهة الخطاب الإعلامي العربي بشكل ملحوظ، ورغم أن ما حدث يلقي بالكثير من ظلال الشك على مصداقية أجهزة الإعلام الغربية. إلا أن الإحساس بالصدمة مصدره أن حقيقة العلاقة بين صانع القرار الغربي وأجهزة الإعلام لها آليات محددة لا يعرفها الكثيرون، رغم عدم حدوث سوابق.

([27]) **نشر في 19 /12/ 2001.**

ومن يريحهم الاكتفاء بالقول بأن التاريخ يكرر نفسه فتشوا فوجدوا سوابق مماثلة بعضها موغل في القدم. ففي عام 59 قبل ميلاد المسيح أمر يوليوس قيصر بوضع معيار مزدوج للوثائق المتعلقة بالأحداث السياسية. وثار جدل حول القضايا التي يجب أن تبقى سرًا تحتفظ به الدولة والقضايا التي يمكن نشرها للعلن.

وفي العام نفسه. نظم يوليوس قيصر ما أصبح الآن عرفًا مستقرًا. فأصبح هناك سجلات خاصة لمداولات مجلس الشيوخ. وأخرى منقحة ومحررة للعامة. وكأن ازدواج المعايير مرض غربي ذو تاريخ عريق. والعلاقة بين الإعلامي وصانع القرار السياسي في الغرب كانت موضوع دراسات عديدة في الغرب حاولت التأريخ للعلاقة ووضعها موضع التحليل. وقد قدم الأكاديمي الأمريكي تيد كاربنتر في كتابه: "The captive press" تأريخًا لتطور هذه العلاقة. وبخاصة أثناء الحروب، فبدءًا من أبراهام لينكولن الذي فرض رقابة إجبارية ولاحق الصحافيين الذين يخرقونها، والسلطة السياسية تسعى لتطويع الصحافة.

وعندما وضعت الحرب العالمية أوزارها كان هناك قناعة لدى الإدارة الأمريكية بأن الصحافة إما أداة يجب استخدامها لبث الإعلام الحكومي أو خصم يجب إلزامه الصمت وخلال الحرب الكورية سادت فكرة مفادها أن "**الصحافة المسئولة هي تلك التي تدعم الحرب**"، وقد عبر نائب وزير الدفاع الأمريكي (1965) أرثر سيلفستر عن هذه القناعة بأوضح – وأوقح – تعبير عندما قال أثناء حرب فيتنام: "**الإعلام في زمن الحرب ملزم بأن يكون أداة طيعة في يد الحكومة. فهذه مسألة تتعلق بالأمن القومي الأمريكي. ومن الحيوي جدًا عقد قران القلم والسيف**".

وقد انتهى الأمر بالصحافيين أن اختاروا بمحض إرادتهم عقد هذا القران. أما الرقابة الطوعية التي فرضتها بعض أجهزة الإعلام الأمريكية على نفسها، فيشير كارنبتر إلى

أنها ليست أمرًا جديدًا. وقد أخضعت الصحافية الأمريكية المرموقة جوهانا نيومان هذه العلاقة للتحليل في كتابها:

Lights, camera, war: is media – Technology Driving international politics?

وتقرر هي الأخرى أن السيطرة هي لصانع القرار السياسي. فالتلفزيون "**يزودنا بالعدسات وحسب أما القيادة فتزودنا بنقاط الاهتمام والتركيز**"، وتبرهن على صحة هذا بأن صور الوحشية والدمار التي كانت في البوسنة والصومال كانت متساوية، لكن جورج بوش اختار استخدام صور الصومال لكسب تأييد الرأي العام. وتؤكد هذه التجارب أن ملكية وسائل الإعلام ليست الضمان الوحيد لنزاهتها بل تأتي المعايير الأخلاقية في المقام الأول. وأن الموقف من الآخر في الضمير الغربي ما زال موقفًا عنصريًا، وأن مجمع الصناعات العسكرية الذي أحكم سيطرته على الولايات المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية ما زال صاحب الكلمة الأولى والأخيرة.

سرايا كنيسة المهد: الحدث وسياقه الصحيح ([28])

"وفي بيت لحم تبنت مجموعة مسيحية مسلحة، أشهرت نفسها مؤخرًا باسم: "سرايا الدفاع عن كنيسة المهد"، مسؤولية إطلاق نار أوقع ثلاثة جرحى في صفوف الجنود الإسرائيليين قرب كنيسة المهد".

خبر صغير بثته وكالات الأنباء ضمن سيل الأخبار التي تتدفق من الأرض المحتلة كل صباح كما تتدفق دماء أبنائها زكية تعطر أرض فلسطين بأريج الشهادة، وكان مفهومًا أن تغطي بشاعة مشهد حصار مكان مثل "**كنيسة المهد**" بكل ما تعنيه لكل مسيحي في العالم، على دلالة خبر كهذا.

وكان من الطبيعي أن تكون المعلومات القليلة متاحة عن مثل هذه الجماعة التي اختارت العمل المسلح بما يعنيه ذلك من فرض السرية على كل ما يتصل بها من معلومات.

كل ذلك كان طبيعيًا ومفهومًا، أما أن تتعامل بعض منابرنا الإعلامية مع الحدث كما لو كان انقلابا لا سابقة له في تاريخ المقاومة الفلسطينية فهذا ما يبعث على القلق الشديد بشأن مدى وعي شرائح كثيرة من المجتمع العربي، بينهم "**إعلاميون محترفون**" يجيدون التعامل مع الوقائع مفصولة عن أي سياق عام. وهذه المعالجة تعني أن بعضنا ابتلع الطعم الصهيوني الذي ابتلعه قبلًا مسيحيون عربا ظنوا التحالف مع المشروع الصهيوني، أو

([28]) نشر في **9/ 5/ 2002**.

على الأقل الوقوف منه موقف الحياد يمكن أن يحقق لهم مكاسب سياسية، أو يجعلهم بمنأى عن آلة البطش الصهيونية.

تذكروا أنطون داود

عندما بدأت انتفاضة الأقصى قبل أكثر من عام لم يدرك كثيرون مغزى أن تتعرض مدن فلسطينية يشكل المسيحيون أغلبية سكانها لهجمات شرسة من الجيش الصهيوني، وإذا كان المسجد الأقصى يمثل رمزًا من رموز الصراع قادر أكثر من أي رمز آخر على تكثيف المعنى وتبسيطه في آن واحد، كما أنه ينفرد بقدرة على إثارة حماس رجل الشارع المسلم لا ينافسه فيها رمز فلسطيني آخر، فإن هذا لا يعني أن حركات المقاومة الإسلامية لا ترى شواهد الوجود المسيحي في فلسطين، في القدس وبيت لحم وغيرهما أو لا تولي تحريرها الأهمية نفسها، والسبب ببساطة أن ذلك واجب شرعي ليس متروكًا للتقدير الشخصي أو المشاعر. ومنذ أن بدأت الهجمة الاستيطانية الصهيونية الشرسة كان لمسيحيي فلسطين أدوار في عمليات المقاومة ينبغي لفت النظر إليها في هذه المرحلة من مسار الصراع، وقد شهد الحادي عشر من مارس ضربة هي من أقسى ما وجه للوجود الصهيوني على الإطلاق نفذها مسيحي فلسطيني هو أنطون داود.

كان أنطون يعمل سائقا لدى القنصل الأمريكي العام بالقدس، وكان معروفًا لكثير من رجال الهاجاناه وجعله عمله موضع ثقتهم ، غير أنه – وهذا هو الأكثر أهمية – كان موضع ثقة حركة المقاومة الفلسطينية التي كان عمادها آنذاك تنظيمات إسلامية ورموزها من علماء الإسلام ودعاته.

واهتزت القدس

وكان أنطون لا يبدي أي اهتمام بالصراع الدائر على أرض فلسطين ويعمل في صمت لكسب ثقة القنصل الأمريكي، وفي صباح الحادي عشر من مارس ركب أنطون سيارة القنصل الأمريكي (فورد موديل 1947) والعلم الأمريكي يرفرف عليها واتجه إلى مبنى الوكالة اليهودية الذي كانت تحرسه قوات الهاجاناه وسمح له رجال الهجاناه بالدخول دون أي إجراء أمني. ولم يتصور أحد أن في الصندوق الخلفي لهذه السيارة قنبلة زمنية تبلغ زنتها مائتي كيلو جرام. واهتزت القدس بهذا الانفجار الكبير الذي دمر عدة مبان يهودية مهمة وقتل أكثر من ثلاثين صهيونيًا.

وعندما طلب من القائد المعروف فوزي القاوقجي أن يتولى مسئولية الدفاع عن مدينة يافا في المعارك التي سبقت إعلان الدولة الصهيونية مباشرة ووجد أن قائدها غير قادر على حمايتها عزله وأسند قيادتها إلى ميشيل العيسى. وإذا كان السياق لا يتسع للحصر والإحصاء فإن مثل هذه الوقائع/ العلامات تضع ميلاد "سرايا الدفاع عن كنيسة المهد" في سياقه الصحيح .

الهوية معركة القرن الحادي والعشرين ([29])

كان القرن العشرون قرن صراع الأيدلوجيات بامتياز، وشكَّل الصراع بين الرأسمالية والفاشية السمة الرئيسة للنصف الأول منه، فكانت الحربان العالميتان الأولى والثانية جولتان حاسمتان اختفت بعدهما الأنظمة الفاشية في الغرب واليابان. ورغم أن صراع الهوية كان جزءًا من بنية الصراع بين الرأسمالية والفاشية فإنه لم يكن السمة المميزة للصراع. ولعبت الانتماءات القومية والمذهبية والدينية أدوارا شديدة الأهمية في هذا الصراع.

وبينما كانت الأنظمة الفاشية في ألمانيا وإيطاليا واليابان وغيرها كانت أنظمة قومية حلولية شديدة العداء للدور الذي تقوم به المؤسسات الدينية في المجتمع، فإنها، وبصفة خاصة النظام النازي، استخدمتها كورقة لاكتساب المشروعية فأنشأت كنيسة "**نازية**" إذا جاز التعبير. وبطبيعة الحال لم تكن المصالح غائبة عن هذا الصراع، لكنها لم تكن أبدًا محركه الرئيس.

وخلال النصف الثاني من القرن العشرين كان الصراع بين الرأسمالية والشيوعية السمة المميزة، فانقسم العالم إلى معسكرين كل منهما يحاول التبشير بأيدلوجيته. وفي هذا المناخ الحافل بصخب الصراع الأيديولوجي، ولد الكيان الصهيوني متحالفًا مع الأيدلوجية الرأسمالية بصفة أساسية. ومع مطلع القرن الحادي والعشرين يكاد الصراع الأيديولوجي يختفي ليحل محله صراع الهويات.

([29]) نشر في 15/ 9/ 2002.

صحوة الهويات

وقد راهن محللون كثيرون على أن زوال الصراع الأيديولوجي بهزيمة أحد طرفيه سيؤدي بالضرورة لأن تكتسح الرأسمالية "**الأيديولوجيا المنتصرة**" العالم لتصبح خيارًا عالميًا، يظهر بانتصاره "**المواطن العالمي**" وفق الشروط الرأسمالية. ولأن التاريخ لا يسير وفق قانونٍ خطيٍ بسيط، تغيَّر ميدان الصراع تمامًا، وفقدت الأيديولوجيا بريقها أو كادت، وضمن ذلك الأيديولوجيا المنتصرة نفسها. ونزعت مجموعات سكانية كثيرة في العالم المتقدم والمتخلف على السواء نزوعا متفاوتًا بلغ أحيانًا حد التطرف نحو تأكيد هويتها.

وقد كان مفهومًا أن يؤدي زوال الاتحاد السوفيتي لظهور قوس قزح من الهويات التي حجبتها الإمبراطورية الغاربة، وكان طبيعيا أيضا أن يصبح مواطنو هذه الجمهوريات أمام أسئلة لا تحسمها الأمم عادة في لحظة كاختيار اللغة، فاختار بعضها الحرف التركي واختار بعض آخر الحرف اللاتيني وهكذا. وبرز حضور الهوية بشكل شديد الوضوح في الموقف الروسي من الصراع في البلقان، حيث بدا إلى حد كبير الدور الفاعل للمذهب والعرق في صياغة الموقف الروسي الرسمي من هذا الصراع.

وفي إطار عملية تحلل للكيانات السياسية التي قامت على اجتماع مجموعات سكانية مختلفة تشكل الدولة بالنسبة لها إطارًا لهوية سياسية تحجب هويتها الثقافية بمعناها الشامل، ظهر صراع الهويات واحتل واجهة المشهد السياسي، واكتشفنا فجأة أن تشيكوسلوفاكيا دولتان وأن يوغوسلافيا عدة دول وأن ما يجمع دول البلطيق (أستونيا ولاتفيا وليتوانيا) أضعف بكثير مما يفرقها. ومن الشمال للجنوب امتدت الظاهرة، فانفصلت إرتريا عن إثيوبيا، ثم انفصلت تيمور عن إندونيسيا، ويوشك أن يلحق بهما جنوب السودان.

صناعة الاختلاف

وتلجأ النخب السياسية غالبًا عند إدارتها صراعات الهوية لتأكيد الاختلاف والإلحاح عليه، إن لم يكن موجودًا، لبلورة هوية وطنية أو قومية مختلفة تكون مرتكزًا للانفصال عن المحيط الذي توجد فيه. وقد لفت نظر المحللين عند انفصال تيمور أنها على المستوى الاقتصادي لا تملك مؤهلات الدولة، ورغم ذلك فإن ما شغل النخبة السياسية للدولة التي تحمل لقب "**أفقر دولة في العالم**" لم تتجه لامتلاك مؤهلات الاستقلال الاقتصادي بل أولت اهتمامها الأكبر لبناء الهوية.

وكما لعب الدين دورًا في بناء حواجز بين سكان تيمور وبين إندونيسيا بدأت نخبة "**التحرر الوطني التيمورية**" تغذي مفهوم الاختلاف بقوة. وفي مايو 2002 اختارت تيمور الشرقية – ضمن مساعيها لخلق هوية خاصة بها تميزها عن إندونيسيا – اللغة البرتغالية لكي تكون لغة التعليم في المدارس والجامعات. ولكي تعطي للأمر مسحة من القداسة سمتها "**لغة الثورة**". ويشكو مواطنو تيمور من أنه سيكون من الصعب عليهم تعلم البرتغالية لأنهم يتحدثون الإندونيسية، لكنها أصبحت إجبارية الآن. ودستور الدولة يعتبر البرتغالية ولهجة تيتوم المحلية الرئيسة اللغتين القوميتين برغم أن لهجة تيتوم تعتبر بدائية.

البرتغالية أيضا لغة مستعمر

وتعكس مثل هذه القرارات اندفاعًا عاطفيًا غالبًا تكون له آثار مدمرة، فالمفاضلة بين البدائل المتاحة لم تأخذ شكلا موضوعيًا بل استندت لمبررات عاطفية متشنجة، فللبرتغالية عند "**قادة الثورة التيموية**" الوليدة (وهو تعبير فيه تجاوز شديد) مغزى آخر، فقد كان المتمردون التيموريون يتحدثون البرتغالية لتجنب الجواسيس!! أما قائدهم – الذي سيكون أول رئيس لأفقر دولة في العالم بعد نجاح تمرده زانانا غوسماو وهو شاعر أيضًا – فهو مولع بالبرتغالية!

وبعيدًا عن الاعتبارات العملية التي لم يؤخذ أيٌّ منها في الاعتبار، فإن هجر اللغة الإندونيسية بوصفها "**لغة المستعمر**" لا يبرر فرض البرتغالية بقرار فوقي، لأنها هي الأخرى لغة مستعمر أقدم!

واستخدام لغة لا يجيدها سوى 5 % فقط من السكان سيكون مكلفًا كما سيكون مضيعة كبيرة للوقت. وحسب دراسة أعدتها **الأمم المتحدة** فإن نحو ألفي موظف سيكونون بحاجة إلى تعلم البرتغالية لإدارة شؤون الدولة. وعلى المستوى العملي فإن الأهالي يجدونها صعبة، والمدارس لا تجد من يعلمها. وعبَّر طالب بكلية العلوم عن نتائج هذا القرار بعبارة موحية يقول: "**بدلًا من أن تكريس وقتي لدراسة الفيزياء والكيمياء أتعلم العد وتسمية أجزاء جسم الإنسان باللغة البرتغالية!**".

وتلخص إحدى الراهبات المأزق قائلة: "**أنا كنت سأختار التيتوم كلغة رسمية، لأن هذه هي اللغة التي يجيدها معظم الناس، لكني أعلم أن الناس يقولون إنها بدائية ولن يمكن تحديثها بسهولة**". وتيتوم واحدة من نحو 30 لغة أو لهجة يتحدث بها سكان تيمور الشرقية، ومن المعتقد أن 82 % يتحدثون بها بينما يجيد 43 % اللغة الإندونيسية. ودافع وزير خارجية تيمور عن اللغة البرتغالية قائلا إنها اختيار أغلب المواطنين.

حروب المرجعيات الدينية

وفي الإطار نفسه قرر الرئيس الإرتري أسياس أفورقي منذ أيام فك ارتباط الكنيسة الأرثوذكسية في إرتريا عن مرجعيتها البابوية في أثيوبيا التي ارتبطت بها منذ عشرات السنين، وقرر إلحاقها بالكنيسة الأرثوذكسية في الإسكندرية الأمر الذي ساعد في تزايد المعارضة في صفوف نصارى إرتريا إثر تضرر مصالحهم بعد فك ارتباط الكنيسة الإرترية عن مرجعيتها في أثيوبيا وإلحاقها بالكنيسة الأرثوذكسية بالإسكندرية.

ورغم أن الكنيستين يتبعان مذهبًا واحدًا، إلا أن القرار واحد من تجليات "**حرب الهوية**" التي تجعل بعض النخب تعتقد أن دورها هو تعزيز الإحساس لدى مواطنيهم بالاختلاف عن الآخرين وهو دور خطير ونتائجه ستكون أخطر.

إمبراطورية المغول الجديدة! ([30])

شينتارو إيشيهارا سياسي ياباني كبير أثار جدلًا شديدًا في اليابان وخارجها في نهاية الثمانينات عندما رشح نفسه لرئاسة الحزب الليبرالي الديمقراطي في اليابان. وسبب الجدل أن ترشيحه لهذا المنصب سلط الأضواء على كل أعماله وكتاباته وضمنها كتاب كان حصيلة مناقشات مشتركة بينه وبين أكيو موريتا رئيس مجلس إدارة شركة "**سوني**" وحمل عنوان: "**اليابان تستطيع أن تقول لا**" أو "**اليابان لم تقل لا**".

وبسبب رد الفعل الأمريكي العنيف على الكتاب الذي كان رسالة جريئة للولايات المتحدة مفادها أنها ليست القوة الكبرى الوحيدة في العالم، قرر أكيو موريتا أن يوقف طباعة الجزء الذي يخصه خوفًا على مصالح شركته من انتقام أمريكي، بينما خاض شيتنارو إيشيهارا المعركة حتى النهاية، وأصبح رمزا للتحدي الياباني الذي تواجهه الولايات المتحدة.

وقد عاد اسم شينتارو إيشهارا ليحتل واجهة المشهد السياسي الياباني بعد أن أصبح حاكمًا لمدينة طوكيو، متمتعًا بشعبية جارفة تجعله مرشحًا لمنصب رئيس وزراء اليابان بتصريحات ينتقد فيها الولايات المتحدة لا تقل حدة عما أورده في كتابه الشهير: "**اليابان تستطيع أن تقول لا**".

([30]) **نشر في 14/ 11/ 2002.**

فقد خصصت مجلة "**بينغيشونجو**" اليابانية الشهرية المحافظة ملفا عن الولايات المتحدة يبلغ حجمه مائة صفحة تحت عنوان "**أميركا تفقد مصداقيتها**". ولم تترك المجلة اليابانية شيئا عن التوجه الأميركي الجديد للهيمنة عالميًا إلا وأثارته، بدءًا من السيادة الخارجية والمعالجة على "**الطريقة الأمريكية**" للملفات الدولية العالقة، ومرورًا على دور الدعاية السيئ في "**حرب الإرهاب**"، وانتهاء بوسائل الإعلام "**المسايرة للتيار**" اليميني.

وكان أكثر ما ورد في الملف إثارة لاهتمام الرأي العام تصريح شينتارو إيشيهارا الذي يقول فيه إن "**الولايات المتحدة في الطريق لأن تصبح إمبراطورية مغولية جديدة، هدفها ليس تسيير العالم فحسب بل الهيمنة عليه بالقوة دون أن تتمكن من تثبيت نظام جديد**". وغني عن البيان أن العلاقات الأميركية اليابانية أحد أكثر القضايا حساسية في اليابان منذ عام 1945، فهناك تيارٌ متنامٍ في المجتمع الياباني يدعو إلى علاقات متوازنة بين البلدين تتخلص فيها اليابان من عقدتها القديمة، ويمثل إيشيهارا أحد أهم رموز هذا التيار الجديد.

وما زال شينتارو إيشيهارا يطرح الأسئلة التي سبق أن طرحها في كتابه، وقد جعل عنوان الفصل السادس منه: "**شريكان أم سيد وعبد؟**" وهو يطرح السؤال نفسه في الملف المشار إليه، ويجيب بقدر كبير من الجرأة، ويكشف دون مواربة عن التعامل الحقيقي – في نظره – الذي تبديه واشنطن تجاه أوروبا والصين واليابان. فتلك دول إما أنها "**كم لا وزن له**" في أحسن الأحوال، أو "**عدو محتمل**". وهو يخشى أن اهتمام أميركا بروسيا على حساب آسيا يدفع باليابان للتقارب مع الصين، وهو سيناريو "**كارثي**" على حد قوله!

وهو يرى أن القوة الأميركية العسكرية والتكنولوجية لا تعني استبعاد انتقال مركز القوة الاقتصادية العالمية إلى مكان آخر، ولا يستبعد أن يكون هذا المكان اليابان. وهذه اللغة الجديدة على الثقافة والسياسة في اليابان يجب أن تحظى باهتمام كبير من صانع القرار العربي الذي يبدو حائرًا أمام متغيرات السياسة الأميركية بعد الحادي عشر من

سبتمبر. والموقف الألماني من الرغبة الأميركية في تنفيذ عمل عسكري ضد العراق دون تفويض من الأمم المتحدة يعكس التحول نفسه بشكل مختلف بعض الشيء.

فألمانيا بقيت لعقود تحكمها في علاقتها بالولايات المتحدة العقدة نفسها، ورغم ما أنجزته من نجاحات اقتصادية ضخمة جعلتها أحد عمالقة الاقتصاد في العالم، ما زالت تشعر أنها في عالم السياسة من الأقزام. ومحاولات مواجهة الرغبة الأميركية في الهيمنة ستكون أهم ما يشغل منطقتنا في السنوات المقبلة، لكن ليس عبر المراهنة على منافسي الولايات المتحدة التقليديين (روسيا — الصين — فرنسا)، بل عبر الاهتمام الجاد بالقوى الصاعدة القادمة من عالم الاقتصاد بإنجازات ضخمة وبخاصة اليابان وألمانيا، وهو ما يرشح شينتارو إيشيهارا بقوة لأن يكون أحد أهم نجوم السياسة في عالم الغد.

مخططات غربية صهيونية: حضور إسرائيل ليس المشكلة .. بل غيابنا ([31])

الوجود الصهيوني في آسيا الوسطى أحد العوامل التي سيكون لها دور كبير في صياغة مستقبل آسيا الوسطى وكذا مستقبل الكيان الصهيوني. ورغم أهمية المعلومات في رسم صورة هذا الوجود ومستقبله، فإن وضعه في سياقه الصحيح لا يقل أهمية عن الاستزادة من المعلومات (**نشرت "البيان" في أعداد 4–1 و8–1 و12–1 – 2002 دراسة مهمة من 3 أجزاء عنوانها: أبعاد التغلغل الصهيوني في آسيا الوسطى للدكتور مُحَمَّد فراج أبو النور**).

كم عمر التسلل؟

الوجود الصهيوني في جمهوريات آسيا الوسطى لم يحدث فجأة ولم يتم في جنح الظلام، بل كانت الوفود الرسمية الصهيونية تتوالى حتى قبل انهيار الاتحاد السوفيتي على عواصم جمهوريات أسيا الوسطى حاملة مشروعات محددة وتمت دراستها جيدًا لتحقق أهداف الطرفين من العلاقة. والتحذير من خطورة مخططات الكيان الصهيوني ليس جديدًا.

وفي حوار أجرته معه جريدة **الأهرام** القاهرية (**9 – 6 – 1995**) روى الدكتور مُحَمَّد عبد الهادي رئيس الهيئة القومية المصرية للاستشعار عن بعد، مستشار وزير البحث

([31]) **نشر في الملف السياسي 25 /1 /2002.**

العلمي المصري (سابقًا) كيف بذر الصهاينة بذور هذا الوجود، حتى قبل انهيار الاتحاد السوفيتي.

ففي عام 1990 قام عزرا وايزمان – وكان وقتها وزيرًا للبحث العلمي – بزيارة موسكو وأعلن أن بلاده مهتمة بالتعاون مع الاتحاد السوفيتي في مجالات الفضاء، ولعمق الأزمة الاقتصادية، وافق الرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف على عرض تقدمت به مجموعة من المستثمرين الصهاينة العاملين لحساب الكيان الصهيوني لشراء مساحات من المجمع الفضائي في "**بيكونورة**" بجمهورية كازاخستان. وإثر هذا سافرت مجموعة من العلماء الصهاينة رفيعي المستوى لدراسة أساليب العمل في المجمع.

المصالح لا اللوبي

ويستند هذا الوجود إلى مفاهيم راسخة، في مقدمتها أن وجود أقلية يهودية في أي من هذه لبلدان يعني أن هذه الأقلية تقوم بدور تآمري لتعزيز الوجود الصهيوني فيه بشكل آلي، وهو مفهوم رائج لدرجة أن الرئيس الروسي السابق بوريس يلتسين طلب مساعدة الكيان الصهيوني ليفوز بأصوات مليوني يهودي روسي في الانتخابات، مهددًا بأن فشله يعني وضع قيود على هجرة اليهود.

بينما تشير الحقائق إلى أن دولة مثل أوزبكستان مثلا تربطها علاقات قوية بالكيان الصهيوني رغم أن عدد أكبر الأقليات اليهودية فيها، يهود سمرقند، لا يزيد عن 1000 يهودي من أصل 15000 هو تعدادهم عام 1989، والحي اليهودي الذي كانوا يقطنونه وكان يدعى (المحلة) أصبح اليوم يعج بالغجر القادمين من الهند حيث باتوا يشغلون بيوت اليهود المهجورة.

وحسب التصورات الصهيونية فإن ما مجمله 37000 من اليهود في آسيا الوسطى مسجلون على أساس أنهم يحققون متطلبات الهجرة إلى إسرائيل. وأن ثلثيهم

يتواجدون في أوزبكستان، وأما الثلث الباقي فهو منتشر في أنحاء متفرقة من الدول الإسلامية الأربع في آسيا الوسطى. فلو أن هذا النفوذ الصهيوني كان مرتبطًا حتمًا بوجود أقليات يهودية، لكانت سياسات التهجير التي يتبعها الكيان الصهيوني تهديدا مباشرًا لهذا النفوذ، وهو ما يكشف درجة التناقض الكامنة في التفسيرات التي يتداولها كثير من المحللين.

كما أن هذا الوجود ليس منفصلًا عن مخطط عام يشمل شبكة من التحالفات المتساندة، لعل أهمها العلاقات بين الكيان الصهيوني وكل من الهند والصين، كما أنها ترتبط بعلاقات مع بعض فصائل ما كان يسمى "**التحالف الشمالي الأفغاني**". وهذه العلاقات قامت على إدراك صهيوني دقيق لحاجات كل دولة على حدة من العلاقات معها، وكان القاسم المشترك الأعظم في هذه المنظومة أن تقدم نفسها بوصفها دولة ذات خبرات متميزة في مواجهة "**الأصولية الإسلامية**" التي تعتبرها معظم دول المنطقة من الصين حتى البلقان خطرًا جسيمًا يهدد استقرارها.

العدو المشترك

وفي وجود "**عدو مشترك**" تقاربت المسافات كثيرًا بين الفرقاء، ومنذ عام كشفت نشرة "**تيك ديبكا**" العسكرية الإسرائيلية في تقرير لها – حول التغلغل الإسرائيلي في جمهوريات وسط آسيا الإسلامية – النقاب عن وجود خبراء عسكريين ورجال استخبارات إسرائيليين حاليا في "**بشكيك**" عاصمة جمهورية قيرغيزستان الإسلامية؛ وذلك لمساعدة الجيش الروسي في إنشاء وتدريب جيش تدخل سريع لمحاربة المسلمين في المنطقة من أربع فرق عسكرية: روسية وقيرغيزية وكازاخية وطاجيكية.

وقد شهدت الفترة الأخيرة – طبقا لما أكده التقرير الذي أذيع الثلاثاء 1/ 5/ 2001 تعاونًا روسيًا إسرائيليًا في إطار ما يسمى بـ "**محاربة التطرف الإسلامي**"، الأمر الذي تكلل بالتوقيع على عدد من الاتفاقيات الأمنية والاستخباراتية المشتركة التي يتبادل

في إطارها خبراء الأمن والمخابرات الروس والإسرائيليون الزيارات بشكل متواصل وعلى فترات قصيرة.

وتنص هذه الاتفاقيات على القيام بعمليات مشتركة بين الاستخبارات الروسية والموساد الإسرائيلي لمكافحة ما يسمى بـ "**الإرهاب**" (وبخاصة في الشيشان وجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية)، والاستفادة من "**الخبرة الإسرائيلية الطويلة**" في هذا المجال، فضلًا عن إنشاء بنك للمعلومات حول الحركات والجماعات التي يصفها الروس والإسرائيليون بالإرهابية ومواقعها ومصادر تمويلها، وتبادل المعلومات والخبرات بدون تحفظ.

تركيا وإسرائيل

وعلى الجانب الآخر ينطلق حكام أسيا الوسطى في علاقتهم مع الكيان الصهيوني من تصور أنه طريق الوصول للغرب الذي يشكل النفوذ الصهيوني فيه قوة مهمة. ويرى الخبراء أن دول آسيا الوسطى والقوقاز، عشية انتهاء الحرب الباردة واضمحلال الاتحاد السوفييتي ونيل استقلالها، هرعت مسرعة في بذل مساعيها لاستجلاب المعونات الاقتصادية والاستثمارات التي كانت في أشد حاجة إليها. وأنها تعجلت تعزيز العلاقات مع القوى الكبرى، كما أعطت أهمية خاصة لتوطيد العلاقات مع إسرائيل وجذب مساعداتها؛ معتبرةً إياها بوابة الغرب وصداقته.. ومن هنا بادروا بتوطيد العلاقات الدبلوماسية على وجه السرعة.

وقد استفاد الكيان الصهيوني استفادة مزدوجة من تدخله في آسيا الوسطى، فبينما كانت تركيا تحاول لعب دور كبير كقوة إقليمية لها قدرة على التأثير في هذه المنطقة، فضلت التحالف مع الكيان لمواجهة التنافس الإيراني، وفي الوقت نفسه، وفرت للصهاينة غطاء "إسلاميًا" لدخول المنطقة. بينما الدور التركي من ناحية أخرى يمنح الكيان

الصهيوني مزيدًا من أسباب التفوق العسكري على العرب، مقابل أن يبيع الكيان الصهيوني لتركيا وهم أنه قادر على إدخالها الاتحاد الأوروبي، وجعلها أهم حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية بنفوذ اللوبي الصهيوني.

الغياب العربي

والحديث عن الحضور الصهيوني يستدعي بالضرورة الحديث عن الغياب العربي، وهو ظاهرة يشتبك فيها السياسي بالديني بدرجة كبيرة. فمنذ بداية وجودهم في هذه المنطقة سعى الصهاينة للبحث عن غطاء "**إسلامي**" وهو ما وفرته لهم تركيا، كما أنها استغلت حالة الصراع السياسي الذي تشهده دول هذه المنطقة بين أنظمتها السياسية وحركات معارضة مسلحة – غالبا إسلامية – ترى الأنظمة السياسية الحاكمة في آسيا الوسطى، كأنظمة علمانية، استمرارًا للنظام الشيوعي السوفيتي.

وقد عزف الكيان الصهيوني على هذا الوتر، واتكأ على مخاوف حكومات هذه الدول ليبعدها عن احتمال بناء علاقات قوية مع العالم العربي والإسلامي بوصفه المحيط الطبيعي لحركة هذه الدول.

ولا شك في أن إعلام "**مناهضة الإرهاب**"، الذي صدرت معظم أدبياته من عواصم عربية عانت من وجود معارضة أصولية مسلحة فيها، قدم للكيان الصهيوني المادة الخام التي ساعدته على رسم صورة للمنطقة العربية تتجسد فيها أكثر الأشياء إخافة لحكومات هذه المنطقة.

كما أن محاولة تصوير هذا العنف بوصفه مجرد جريمة منظمة لم تؤد إليها أسباب سياسية أضر بصورة الإسلام والعرب على السواء أكبر الضرر، وبخاصة أن صورة هذه التنظيمات في أجهزة إعلام هذه الدول خضعت لعمليات تضخيم متعمدة كان هدفها

كسب تعاطف العالم، لكن الآثار البعيدة لهذا الخطاب الإعلامي ستترك تأثيراتها السلبية في أسيا الوسطى وغيرها.

وثمة مؤشرات على وجود مخططات مشتركة غربية/ صهيونية تستهدف الاستفادة من أحداث الحادي عشر من سبتمبر والعدوان الأمريكي على أفغانستان لتحميل العرب المسؤلية الكاملة عما لحق بأفغانستان من دمار، وهو ما يعني بناء حاجز من الكراهية والخوف بين هذه المنطقة وبين كل ما هو عربي. فالوجود الصهيوني في هذه المنطقة لا يهمنا من حيث كونه هزيمة لنا في سباق مصالح، فنحن لم ندخل هذا السباق حتى نخسره، لكن ما يهمنا منه نتائجه السياسية وبخاصة عندما يوضع في إطار تصور أشمل هو علاقات الكيان الصهيوني في آسيا.

وهي علاقات يمتد بفضلها نفوذ تل أبيب من أنقرة حتى بكين، وبدل أن ننظر إلى هذا الوجود مكتفين بالوصف والتحليل والتحذير ينبغي أن يكون هناك تحرك عربي لأجل إنهاء حالة غيابنا عن هذه المنطقة. فوجود الكيان الصهيوني فيها ليس المشكلة بل غيابنا.

فضح منطق الترانسفير [32]

"**الترانسفير**" كمصطلح سياسي، أحد مفاتيح فهم الفكر الصهيوني. ويعني طرد عنصر سكاني من محل إقامته وإعادة توطينه في مكان آخر. والترانسفير يعبر عن مفهوم جوهري في الحضارة الغربية يتجاوز المفهوم السياسي، ويمكن إعادة النظر في تاريخ الحضارة الغربية الحديثة باعتبارها "**حضارة الترانسفير**".

واللحظة التاريخية التي يؤرخون بها لبدء العصر الحديث شهدت واحدة من أكبر عمليات الترانسفير في التاريخ، حيث تمت عملية الاستيطان الاحلالي في ما سمي "**العالم الجديد**"، وبدأت بنقل الساخطين سياسيًا ودينيًا (البيوريتان) للأرض الجديدة، وتلت ذلك عملية ترانسفير أخرى مختلفة، وإن كانت شديدة الضخامة، تمثلت في نقل الأفارقة إلى الأمريكتين لاسترقاقهم ليكونوا وقود آلة الرأسمالية الغربية.

وطوال القرون الخمسة الماضية لم تتوقف عمليات الترانسفير، فنقل السكان الأصليون من الهنود الحمر وغيرهم من أماكن سكناهم في مسلسل دموي من التهجير والابادة، ونقل الفائض البشري الأوروبي إلى جيوب استيطانية عديدة لعل أشهرها جنوب أفريقيا، ونقل كثير من البشر ليتحولوا إلى مرتزقة في الجيوش الغربية في حروبها الممتدة في معظم أنحاء العالم.

---

[32] نشر في 2/ 1/ 2002.

ولم تقتصر الظاهرة على الغرب الليبرالي، فقام الاتحاد السوفييتي ولعدة عقود بعمليات ترانسفير شديدة الضخامة نقلت فيها شعوب بأكملها في اطار عمليات هندسة سكانية لم تزل آثارها واضحة في أماكن عديدة من خريطة الامبراطورية الغاربة. وكان الترانسفير صلب الفكرة النازية التي كانت بلورة للمشروع الحضاري الغربي لا شذوذًا عنه.

فهتلر عندما أراد اخلاء المجال الحيوي الألماني أراد أن ينفذ في قلب القارة الأوروبية ما نفذه منافسوه الأوروبيون "**هناك**" بعيدًا في: أحراش أفريقيا، وجبال الأمريكتين وصحارى استراليا، التي ارتوت بدماء الضحايا، الذين قاوموا عملية ترحيلهم والذين استجابوا لها على السواء. وليس ثمة أدنى مفارقة في قبول الصهاينة أن يرتكبوا ضد غيرهم (الفلسطينيين) الجريمة نفسها ببشاعة لا تقل عن بشاعة ستالين والنازي، ففي هذا الاطار وعلى هذه الخلفية ولد المشروع الصهيوني نسخة مكررة من النازية.

وبعد أكثر من نصف قرن على نشأة الكيان الصهيوني، وبينما بدأ يتبلور في الغرب وعي بالجريمة التي ينطوي عليها منطق الترانسفير، وما سببه لكثير من البشر من شقاء، وما انطوى عليه من عنصرية، يصر قادة الكيان الصهيوني على تبني منطق الترانسفير ويجدون في دوائر صنع القرار في الغرب من يقبل منطقهم ويحاول تسويقه.

فعندما شهدت نهاية عقد الثمانينيات هجرة أعداد كبيرة من اليهود السوفييت للكيان الصهيوني، كانت هذه الهجرة ثمرة ضغوط ومساعٍ قامت بها عواصم غربية عديدة. وعندما سمح بها السوفييت، كانوا يحاولون تأخير المصير المحتوم باسترضاء الولايات المتحدة وحلفائها بهذه الرشوة السياسية التي تخالف كل ثوابت الموقف السوفييتي من "**المسألة اليهودية**" عبر أكثر من سبعين عامًا.

ومن آنٍ لآخر تتسرب معلومات عن مخططات للترانسفير قيد البحث في دوائر رسمية غربية هدفها تخليص الكيان الصهيوني من "**العبء الديمغرافي الفلسطيني**"، وهذه

المخططات تتجاوز خطورتها كونها جزءا من صراع سكاني داخل الكيان الصهيوني لتكون قنبلة موقوتة تهدد استقرار المنطقة العربية كلها.

وشعار "**الأردن الوطن البديل**" الذي يلوح به علنًا العديد من السياسيين الصهاينة أشهر هذه المخططات لكنه ليس أخطرها. فالغرب – متحالفًا مع الكيان الصهيوني – ما زال يفكر بالفعل في إجراء عمليات هندسة سكانية في المنطقة، قد تكون سببًا في تفجرات خطيرة.

ومن الخطورة التعاطي باهتمام قليل مع مساعي قادة الكيان الصهيوني لتهجير يهود من مختلف أنحاء العالم للكيان الصهيوني، فمعيار الجدية هنا ليس مدى قدرة مصادر الطاقة البشرية اليهودية على إمدادهم بما يريدون، فتلك قضية نظرية غير مفيدة الا على المستوى الأكاديمي.

والكثير من المهاجرين المشكوك في يهوديتهم في موجات الهجرة السابقة أثبتت التجربة أنهم أكثر الفئات شراسة في معاداة الفلسطينيين، الأمر الذي يعني عمليًا أن الكيان الصهيوني سيتحول إلى نقطة جذب لفئات مهمشة من مختلف أنحاء العالم يكونون هدفًا لصهرهم في بوتقة "**كراهية العرب**"، وهو خطر ينبغي أخذه على محمل الجدية.

ومنذ سنوات تسربت أنباء عن مخطط لتهجير عدة ملايين من الفلسطينيين لتوطينهم في العراق، الذي يعاني مشكلة تجانس سكاني مزمنة، ما يعني إدخاله نفقًا مظلمًا قد يمزق أوصاله. وما شهدته لبنان من جدل بشأن قانون التجنيس قبل قليل يشكل مؤشرًا مهمًا على درجة الجدية التي يتعامل بها الغرب مع هذا الملف.

فلبنان ذات الأربعة ملايين نسمة دولة طرد للمهاجرين وليست دولة جذب، وتبلغ جالياتها في المهجر 12 مليون نسمة، وهي فوق ذلك محكومة بحسابات طائفية حساسة. وبالتالي فان المسعى يستهدف نتائج تتجاوز توطين الفلسطينيين فيها إلى إعادة هيكلة بنيتها السكانية تماما.

وقد ورد على لسان السياسي الماروني المعروف بيار حلو عبارة حول هذه القضية تتضمن معلومة مثيرة، فقد قال في حوار أجري معه (الرأي العام الكويتية 8 /11 / 1998): "**لا يمكن أن أنسى كلام كيسنجر الذي قاله العام 1973 والمحفور في ذاكرتي في أن الحل هو أن يصبح الفلسطينيون في لبنان والمسيحيون في كندا وأوروبا**"، وهو ليس إلا فصلًا من فصول مؤامرة يبحث الغرب عن موطئ قدم لتنفيذها.

وما يعكسه التصريح بجلاء أن الغرب يستهدف على المدى البعيد إعادة صياغة الخريطة العربية، الأمر الذي يضفي مشروعية على القول بأن الصراع يتجاوز حدود فلسطين، ونجاح الغرب والكيان الصهيوني في تخويف بعض النخب العربية من "**الكابوس السكاني الفلسطيني**"، شرط موضوعي للوصول لحالة من الرغبة في التخلص من لقضية الفلسطينية كلها... ومن الطبيعي أن توقظ مثل هذه المخططات هواجس الدول المستهدفة، وبخاصة أن حالة الاهتمام بالوضع الديموغرافي في فلسطين أصبحت عابرة للقارات.

فحالة مسيحيي فلسطين تشغل بال الفاتيكان منذ سنوات بدرجة كبيرة، وهي تنظر باهتمام شديد لظاهرة تزايد هجرة المسيحيين الفلسطينيين تحت وطأة الضغوط الصهيونية. ويعرف البابا جيدًا أن وجود مسيحيين فلسطينيين المبرر الوحيد لوجود دور للفاتيكان في "**مهد المسيح**".

وهو يؤكد من آن لآخر: "**الالتزام المشترك ازاء استمرار الوجود المسيحي على مدى ألوف السنين**". وتلقى هذه الحقائق على عاتق صانع القرار العربي والاعلام العربي مسئولية ضرورة فضح منطق الترانسفير، وتجربة مؤتمر ديربان تكشف عن امكانات على ساحة الفعل الدولي يمكن استغلالها، فقضية حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى فلسطين ينبغي ألا تغيب عن أي خطاب اعلامي يستهدف التعريف بالقضية أو التخطيط للعمل لمستقبلها، والبعد الديمغرافي في الصراع ينبغي أن يكون حاضرًا، وأفضل تهيئة لساحة

الصراع الديمغرافي أن يستمر الدعم المالي العربي لفلسطينيي الداخل وألا يتوقف اذا خفت حدة المواجهات في الأرض المحتلة.

التغيير في الوطن العربي ... والتداخل السياسي والاجتماعي ([33])

نكأت قضية التغيير داخل السلطة الوطنية الفلسطينية جرحًا عربيًا عميقًا، فحديث التغيير حديث الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج، تتفاوت حدته من قطر لآخر لكنه حاضر على قائمة اهتمامات كل الأقطار، والتغيير للأفضل عملية مركبة تتداخل فيها الاعتبارات السياسية والثقافية والاجتماعية لتشكل معا معادلة تترتب نتائجها على مقدماتها.

ومنذ بدأ العالم العربي مشواره للبناء الاقتصادي والاجتماعي بعد رحيل الاستعمار العسكري، ومصطلحات "**التنمية**" و"**النمو**" و"**التقدم**" تتردد في خطاب الأكاديميين والسياسيين بل عامة المتعلمين بلا انقطاع. وبطبيعة الحال لعبت الأحوال السياسية الدولية التي أعقبت استقلال هذه الدول دورًا في دفع الكثير منها لاستلهام النموذج الاشتراكي في التنمية، ونتيجة تداعيات الصراع العربي الصهيوني ارتفعت أسهم المؤسسات العسكرية في العديد من الأقطار العربية، كاستجابة بدت – آنذاك – طبيعية، في وجه تحدٍ شاملٍ يستخدم ذراعًا عسكرية طويلة، وتفاعلت الطبيعة العسكرية لهذه الأنظمة مع الطبيعة الاشتراكية التي أصبحت الصبغة الغالبة على اقتصاديات الكثير من الدول العربية – تأثيرًا وتأثرًا – فتركت آثارًا كبيرة على الثقافة بل على بنية المجتمعات عمومًا.

([33]) نشر في 19/ 6/ 2002.

الأيديولوجيا تبني إنسانها

واقتضت فكرة التنمية من خلال النظام الاشتراكي تغليب منطق التغيير من أعلى، وتهميش دور المبادرات الفردية، وغلبة مفهوم التغيير الجذري الفجائي وأسلوب الحشد والجماعية بصيغها المختلفة، والتحكم في مسار التطورات الاقتصادية وكل ما يمكن أن يؤثر فيها من عوامل فأفرزت الاشتراكية أدبها وثقافتها، ووصل طموح البعض إلى أن يحلم ببناء ما أطلق عليه "**الإنسان الاشتراكي الثوري**"، كثمرة لعملية تَحَكُّمٍ شاملة في عوامل التغيير في المجتمع. فبدلًا من أن يبدع المجتمع ثقافته وسياسته ونموذجه الاقتصادي حلت الأيديولوجيا محل الإنسان ثم تغولت فحلمت ببناء "**إنسانها**".

رأسماليون ضد الرأسمالية

وأيًا كانت نوايا من تمت على يديهم هذه التجارب ودرجة وطنيتهم فإن الحصاد كان مرًا والخسائر كانت فادحة، كما أن ارتباط الأيديولوجيا – سواء كانت قومية أو شيوعية – بالطبيعة العسكرية للنخبة ترك بالتدريج أثرًا عميقًا في الكثير من مجتمعاتنا جعلها تميل بشكل متزايد لمحاصرة روح المبادرة والاختلاف، وتغليب التفسيرات التآمرية، واعتبار القدرة على مزيد من الانعزال عن "العالم العدو" أكبر درجات النجاح، عبر هذا عن نفسه في اكتساب أفكار مثل: "**الاكتفاء الذاتي**" و"**إحلال الواردات**" على المستوى الاقتصادي وغيرها... المزيد من الأنصار، وتوج كل هذا بالنظر بقدر كبير من

الريبة لمن يخالفون السائد وينتقدون الأوضاع القائمة.

ومن يتأمل ما شهده العالم العربي من تحولات بدأت في عقد السبعينات بالتحول الاقتصادي الذي دشنه السادات في مصر (1974)، وما توالى بعده من عمليات مشابهة في غيره من الأقطار العربية يدرك أن التحولات لم تتجاوز الإجراءات وبقى الاقتصاد يسير في اتجاه والثقافة تسير في اتجاه آخر.

وحالت أوضاع الحريات السياسية دون أن يصبح للرأسمالية دورها الاجتماعي وتأثيرها السياسي بالقدر الذي يتساوى مع – أو يقترب من – وزنها الاقتصادي. ولم تكن هذه المفارقة الوحيدة فالرأسمالية الوليدة نفسها في معظم الأقطار العربية فضلت أن تتحالف مع النخب السياسية الرسمية، وأن تعطي ظهرها لقضايا الحريات التي تعد في كل المجتمعات ضمانة من أهم ضمانات الاقتصاد التنافسي.

اقتلاع ثقافة التبرير

ولم يختلف موقف الكثير من المثقفين عن ذلك فتحالفوا مع النخب الرسمية، حتى أصبحوا في كثير من الأقطار العربية جزءًا عضويًا من هذه النخبة، ورغم أن لهذا التحالف آثارا أخلاقية خطيرة، إلا أن أخطر نتائجه كانت تبرير الأوضاع القائمة، والتماس الأعذار، وتصيد الأمثلة والنماذج من العالم شرقًا وغربًا، لتصوير حالة التخلف التي نعيشها بوصفها أمرًا طبيعيًا.

فطالما كان هناك "**متخلفون آخرون**" فمن المشروع أن نكون نحن أيضًا متخلفين. ورغم أن المثقف رائد وعليه كما قال الرسول ﷺ ألا يكذب أهله، فإن كثيرًا منهم كذبوا أهلهم بل ضللوهم عمدًا بإشاعة أن ليس في الإمكان أبدع مما كان.

وإذا كان التغيير يطرح من آن لآخر كمطلب غربي أو صهيوني فإن هذا لا يعني مخاصمته أو اعتبار الحديث عنه مشاركة في مؤامرة تستهدف الأمة، ويسبق تغيير الأوضاع القائمة اقتلاع ثقافة التبرير، وكف يد الأيديولوجيين من التيارات السياسية كافة عن منع الشعوب من حقها في التفكير والفعل والمشاركة في بناء المستقبل.

فالتغيير ليس دائمًا عملًا ثوريًا ننجزه كما يخوض العسكريون معاركهم الفاصلة، بل بناء هادئ طويل النفس، وإذا أصبح التغيير روحًا عامة في حياتنا اليومية فسيفرض نفسه حتمًا على صانع القرار العربي.

منطق الفصل والوصل في قضايا الصراع العربي الاسرائيلي ([34])

الصراع السياسي بمستوييه العسكري والدبلوماسي معركة شاملة تستخدم فيها أسلحة وتكتيكات متعددة، وبتراكم خبرات وتجارب الأمم صار هناك ميراث يمكن الاستفادة منه وتناقله. ومن تكتيكات الصراع المعروفة الربط بين قضيتين أو أكثر واشتراط تسويتهما بشكل متزامن.

وقد استخدم هذا التكتيك في تاريخ المنطقة العربية كثيرًا، ففي أثناء الحرب العالمية الأولى استغل الغرب حالة التردي التي أصابت العلاقات العربية التركية وأقنعوا الشريف حسين بن علي بالانحياز لبريطانيا وحلفائها ضد الأتراك مقابل مكاسب سياسية، وقبل انتهاء الحرب انفجرت في وجه العرب – وفي مقدمتهم الشريف حسين نفسه – قنبلة اتفاقية سايكس/ بيكو التي كانت البداية الحقيقية لتحول الدول اليهودية من فكرة إلى واقع. ولم تنته المفاجآت السياسية فأصدرت بريطانيا وعد بلفور المشئوم قبل أن يجف حبر مراسلات الحسين/ مكماهون.

وتكرر استخدام التكتيك مرة أخرى في الحرب العالمية الثانية عندما دعت بريطانيا حكومات الدول العربية الواقعة تحت الاحتلال البريطاني إلى الوقوف معها ضد المحور مقابل الحصول على استقلالها بعد الحرب، وقبلت الدول العربية الوصل بين القضيتين فإذا ببريطانيا بعد الحرب لا تكتفي بالتنصل من وعودها بل ترتكب بدم بارد أبشع جريمة ارتكبت بحق العرب في القرن العشرين وهي رعايتها نشأة الكيان الصهيوني.

(**[34]**) **نشر في 8/ 1/ 2002.**

وعلى قاعدة هذا التكتيك صرح الخبير الفرنسي ألكسندر أدلير المتخصص في شئون الشرق الأوسط والعالم الإسلامي في حوار للقناة التلفزيونية الفرنسية TV5 بأنه يجري في أمريكا الإعداد لصفقة سياسية مثيرة بين ما يسمى بـ "**الحمائم**" و"**الصقور**" داخل الإدارة الأمريكية، وترتكز على طرفي معادلة: الأول، يتعلق بالموقف من العراق، والطرف الثاني، الأراضي الفلسطينية.

وحسب ما ذكر أدلير فإن الحمائم وعلى رأسهم وزير الخارجية الأمريكي كولن باول يريدون تغييرًا عميقًا في السياسة الأمريكية تجاه الكيان الصهيوني، أما الصقور فانهم يتنازلون عن بعض مواقفهم تجاه الكيان الصهيوني مقابل تغيير في موقف الحمائم تجاه العراق. وعليه فإن باول يوافق على إحداث تغيير عميق – بالقوة – داخل العراق، ومقابل الإطاحة بنظام الحكم في العراق، فإن الولايات المتحدة تفرض على شارون الانسحاب الكامل من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967.

ويضيف الخبير الفرنسي أن الأفكار الأمريكية الجديدة قد تفسر الحديث مجددًا عن أسلحة العراق، وضرورة تغيير نظام الحكم في العراق من جهة، ومن جهة أخرى الحديث عن إقامة دولة فلسطينية. وبغض النظر عن صحة المعلومة ومدى إمكان تحويل مثل هذه الصفقة من فكرة إلى واقع، يثير هذا الطرح قضية "**الفصل والوصل**" بين القضايا السياسية المختلفة، والمنطق الذي يحكمه، كما يضع مؤسسات الدبلوماسية العربية أمام تحدٍ كبير لبلورة موقف عربي من العلاقة بين القضايا المختلفة، وجدوى الوصل والفصل بينها.

فعندما غزا العراق الكويت وتبنى دعوة للربط بين تحرير الكويت وتحرير فلسطين، وهو ما اعتبره كثيرون آنذاك ربطًا مفتعلًا هدفه التأثير في مشاعر الشارع العربي. وعندما انعقدت مفاوضات مدريد كانت مفاوضات جماعية أكدت ترابط الملفات التي يشملها التفاوض وهو المكسب الذي حرص الكيان الصهيوني على أن يسلبه من الطرف العربي،

فلم تكن قوة الموقف العربي متوقفة على هذا التفاوض الجماعي، لكنه كان يعني أن ثمة صراعًا أو حتى نزاعًا بين العرب مجتمعين والكيان الصهيوني؟

ومن المؤكد أن هذا لا يتفق مع المخطط الصهيوني الذي يفيده تفكيك الصراع – من خلال صيغة المفاوضات الثنائية – وصولًا إلى تفكيك المنطقة العربية، وعلى ذكر المفاوضات لم يجشم أحد نفسه عناء التساؤل عن جدوى التفاوض مع الاتحاد الأوروبي في مفاوضات الشراكة العربية الأوروبية التي وصلت إلى مرحلة توقيع اتفاقات شراكة مع معظم الدول العربية، لكنها جميعًا اتفاقات شراكة ثنائية وهذه الاتفاقات الثنائية لم تتجاوز فقط الإطار العربي الواحد بل تجاوزت أطر التعاون الإقليمية العربية، والأمر نفسه ينطبق على مشروعات الشراكة العربية الأمريكية.

ولم تتوقف الاختبارات الصعبة فعندما دعا البعض إلى وضع القضية الفلسطينية على جدول أعمال ما يسمى تجاوزًا التحالف الدولي ضد الإرهاب بعد أفغانستان وجدت الولايات المتحدة أن الفصل يخدم مصالحها أكثر من الوصل، فأعلن جورج بوش بصرامة: "**سننتصر في أفغانستان سواء تم حل مشكلة الشرق الأوسط أم لا**".

وعندما أذيع شريط مصور لأسامة بن لادن يتحدث فيه عن أحداث 11 سبتمبر بوصفها نتيجة مباشرة للانحياز الأمريكي للكيان الصهيوني حدثت مفارقة أكبر، إذ توزع الخطاب الإعلامي العربي الرسمي وغير الرسمي على النحو التالي:

*** فريق يؤكد أن خطاب أسامة بن لادن نوع من التمسح في القضية الفلسطينية، وهذا الفريق نفسه الذي طعن في مصداقية خطاب بن لادن تبنى مضمون خطابه مع تحوير بسيط مفاده أن حل القضية الفلسطينية شرط موضوعي للقضاء على الإرهاب من الجذور.**

*** وفريق ثان، تمثله أقلية، انتبه إلى مخاطر هذا الربط على أي نحو واعتبر هذا الخطاب، بالصيغة التي تبناها بن لادن والصيغة التي تبنتها جهات رسمية على السواء، خطابًا بائسًا يفتقر إلى أبسط معاني بعد النظر.**

*** فريق ثالث شغلته بالقدر الأكبر قضية القضاء على الإرهاب من الجذور، ولم يكتف برفض منطق ربطها بالقضية الفلسطينية بل تجاوز ذلك إلى اعتبار قضية الإرهاب في المقام الأول ذات جذور ترتبط ببنية النظام السياسي في الدول العربية التي شهدت معارضة أصولية مسلحة، وهي ظاهرة ترتبط بتردي حالة حقوق الإنسان بشكل دفع العمل السياسي من العلن إلى السرية.**

والهدف من عرض هذه التحليلات ليس الانحياز إلى أي منها، بل طرح قضية الفصل والوصل بين القضايا والمنطق الذي يحكمها، فالطرف الآخر يجيد التلاعب بهذه الوسيلة، وهو يعرف جيدًا متى يصل ومتى يفصل، والتجارب التي قبلنا فيها الوصل بين الصراع العربي الصهيوني وأية قضية أخرى لم يتم إخضاعها لأي نوع من التحليل ليمكننا بناء عليه تأسيس خبرة عربية في هذا المجال، حتى لا نقف دائما أمام المشاريع التي تطرح علينا دون رصيد نستند إليه ويعطينا بدائل للاختيار أو مساحة للمناورة.

ويظل السؤال مطروحًا وعلى الإجابة عليه تتوقف أمور كثيرة مهمة في الحاضر والمستقبل!

لا المقاومة أبدية .. ولا التفاوض ([35])

بصدور قرار فلسطيني بوقف العمليات الاستشهادية اعتبر كثيرون أن القرار مقدمة لوضع القطار الفلسطيني على الطريق الصحيح "**طريق التفاوض**"، وبغض النظر عن الموقف المبدئي من العمليات الاستشهادية كأداة للصراع مع العدو الصهيوني، وهي قضية، أثير حولها غبار من زوايا مختلفة: فقهية وأخلاقية وإنسانية، دون أن ينال الجدل من مشروعيتها على المستويات كافة، فإن الانتصار لخيار وقف العمليات كان نوعًا من الترجيح السياسي، بوصفه بديلًا ضمن سلة من البدائل تحتم كل مرحلة اختيار ما يناسبها.

ولا شك في أن الفلسطينيين في الأرض المحتلة يملكون تقرير الانحياز إلى الخيار الذي يرونه الأنسب للساحة الفلسطينية ويرجحون أنه قادر على تحقيق الأهداف الوطنية للشعب الفلسطيني. أو كما يقول المثل العربي السائر: "**أهل مكة أدرى بشعابها**". وبغض النظر عن مدى احتمال استمرار سريان مثل هذا القرار أو التراجع عنه، وهو أمر تحكمه في المقام الأول المعطيات الواقعية المباشرة داخل الأرض المحتلة، فإن إخضاعه للتحليل والتقويم يظل مشروعًا وضروريًا في آن.

والإقرار بالحقائق السالفة الذكر ينبغي أن يوضع في إطار أوسع من النظر، فاحترام هذا القرار لا يمنع من وضعه موضع التحليل والتقييم: أولًا في إطار ما ينبغي مبدئيًا، وثانيًا في ضوء خبرة التعامل مع الكيان الصهيوني، وثالثًا في ضوء التجارب التاريخية المماثلة.

([35]) نشر في 7/ 2/ 2002.

كما أن الإقرار بحق الفلسطينيين في اتخاذ القرار يعني أن يصدر القرار معبرًا عن الشعب الفلسطيني كله، لا عن السلطة الفلسطينية وحدها. والقرار كما هو واضح صدر تحت ضغط إكراهات واقعية داخلية وخارجية عديدة من التزيد إنكارها أو تجاهل آثارها. فالصهاينة يشعرون أنهم في لحظة تتوافر فيها كل الشروط الملائمة لإحراز انتصار، أو بلغة أخرى إجبار عرفات على تقديم تنازل كبير، وهم يتحركون واضعين نصب أعينهم الظرف الدولي المترتب على أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وما تلاها من تداعيات أضرت بصورة كل ما هو عربي ومسلم، كما أنها خلقت مناخًا سياسيًا وإعلاميًا عالميًا مؤهلًا بقوة لقبول الخطاب الصهيوني بمستوييه السياسي والإعلامي.

ولكن ... لا يجوز أن يعتبر ما هو قائم في الواقع معيارًا وحيدًا، فما ينبغي أن يكون معيارًا يجب أن يظل حاضرًا دائمًا، بقطع النظر عن موازين القوى. ومما يؤكده الواقع أن الكيان الصهيوني جزء من مشروع أكبر يستهدف الأمة العربية. وكثيرون لا يعرفون أن بعض شرائح النخبة السياسية العربية في النصف الأول من القرن العشرين لم تر أبعاد المشروع الصهيوني كلها، ورأت أن بالإمكان قبول وجود "**المهاجرين اليهود**" على أرض فلسطين، كما كان اليهود موجودين في كثير من الأقطار العربية لقرون.

والنظر إلى توقف العنف بوصفه بحد ذاته انتصارًا للنظرة الواقعية مؤشر خطير على ما آل إليه تصورنا لمعنى الواقعية، فمنذ تدشينه في مؤتمر بازل لم يكن المشروع الصهيوني إلا مشروعًا يقوم على العنف – المعنوي والمادي على السواء – أما الكيان الصهيوني فحدث عنه ولا حرج. فالعنف جزء من بنية الفكر وسمة رئيسة من سمات الممارسة لم تفارقه حتى الآن.

ولا حاجة في مثل هذا السياق إلى تقرير حقيقة أن المشروع الصهيوني، في نشأته ومساره، واقعي حتى النخاع. فلماذا نسقط خيار العنف دون أن يسقطه العدو؟ وكيف

نتجاهل ما مارسه من عنف منذ وقع أول اتفاق تسوية مع طرف عربي دون أن يمنعه هذا الاتفاق من إسقاط خيار العنف؟

ولماذا نقبل ربط وقف العنف الفلسطيني بالعودة إلى مائدة المفاوضات ولا نصر على معاملة العنف الصهيوني بالمثل؟ ويحدث هذا رغم أن العنف الفلسطيني مشروع والعنف الصهيوني غير مشروع، أي أننا تجاوزنا خطأ مساواة الجاني بالضحية إلى خطيئة إنصاف الجاني وإدانة الضحية.

ومن المنظور الواقعي نفسه، فإن النظر إلى مجرد جلوس الفلسطينيين والإسرائيليين على مائدة المفاوضات بوصفه – بحد ذاته – انتصارًا عربيًا يعد خللًا جسيمًا يجيد العدو الصهيوني استخدامه من خلال "**متوالية**" من التسخين والتهدئة نصبح في نهاية كل منها مستعدين للجلوس على مائدة المفاوضات وقبول ما هو معروض علينا من مقترحات "**واقعية**".

والمفاوضات عملية مساومة يقتضي قبول خوضها تقديرًا دقيقًا للموقف التفاوضي والأوراق التي يمكن استخدامها، والخطوط الحمراء التي لا يجوز تجاوزها، أي أن يصبح لهذا الفعل مضمون، وأن تكتسب ألفاظه معاني محددة، وكل ما يحدث حتى الآن تنقصه هذه الشروط الموضوعية التي يصبح التفاوض بدونها عبثًا أو انتحارًا.

ورغم أن كاتب هذه السطور ممن يرون التفاوض مع الكيان الصهيوني – حتى بالمعايير السياسية الواقعية – من المحرمات الدينية والوطنية على السواء، فإن هذا الخيار الذي أراه مرفوضًا كان من الممكن – لو أحسنت إدارته – أن يأتي بنتاج أفضل بكثير مما تم الحصول عليه، سواء بالنسبة لمصر أو الأردن أو منظمة التحرير الفلسطينية.

فلو اتخذ قرار التفاوض عربيًا وتم تنفيذه بشكل جماعي لكانت هناك جبهة تفاوضية عربية أقوى من أي دولة تتفاوض بشكل منفرد، وهو ما لم يحدث حتى الآن رغم أن الحل التفاوضي أصبح خيار النظام الرسمي العربي. ومما يتناقض مع أبسط مفاهيم

الواقعية أن من الخيارات التي سادت تجارب التفاوض العربي مع الكيان الصهيوني، التفاوض تحت مظلة أمريكية، رغم علم القاصي والداني والكبير والصغير أن الولايات المتحدة لن تستطيع – لأسباب ذات جذور عميقة في الوجدان والعقل الأمريكيين على السواء – أن تكون طرفًا محايدًا أو راعيًا مؤتمنًا أو وسيطًا نزيهًا في أي مفاوضات عربية إسرائيلية.

التفاوض الجماعي ومرجعية الأمم المتحدة وإشرافها، ليس كل ما تم إهداره في مسيرة التسوية التفاوضية، فافتقار دول المواجهة لأنظمة سياسية ديمقراطية عامل كان ذا تأثير كبير على موقفهم التفاوضي، إذ وجد الصهاينة أن بإمكانهم الاتكاء على هذه الحقيقة للابتزاز، وكان منطقهم بسيطًا ومحرجًا: "**حكوماتكم ليست منتخبة وقد يحدث غدا انقلاب ويأتي من ينقض اتفاقه معنا وبالتالي لابد من ضمانات واقعية لأمننا**".

وبسبب غياب الديمقراطية عن بنية هذه الأنظمة – وضمنها الطرف الفلسطيني نفسه – أديرت المفاوضات إدارة سيئة، وكان دور الدبلوماسيين العرب المحترفين ضئيلًا بشكل مخيف، وفي غياب هذا الدور كان القبول والرفض قرار ملزم يتلقاه المفاوض العربي وهو على طاولة المفاوضات، وما حدث في مفاوضات أوسلو السرية كان قمة في سوء إدارة العمل التفاوضي.

وإذا كانت المفاوضات ضرورة لا مفر منها: فهل يتعارض هذا مع حق الشعب الفلسطيني في المقاومة؟ وهل هناك "**تحرش**" رسمي في بعض العواصم العربية بحق الفلسطينيين في المقاومة بكل الوسائل وضمنها العمل المسلح؟

إن الجولة الأخيرة من التفاوض الفلسطيني الإسرائيلي "**كامب ديفيد الثانية**" كان مصيرها الفشل الذريع، وأسباب الفشل معروفة للأطراف كافة، فما الذي تغير في موقف أي من الطرفين إزاء القضايا الرئيسة (القدس – اللاجئون – السيادة الفلسطينية على الأرض) حتى يصبح الجلوس على مائدة المفاوضات هو ما ينقصنا؟

إن التقدير الذي استندت إليه القيادة الفلسطينية في قرارها بوقف العمليات الاستشهادية حاول أن يكون واقعيًا وأن يتفهم أن استمرار أمة في حالة صراع دائم مستحيل، لكن هذا المنظور أغفل أن المفاوضات هي الأخرى لا يمكن أن تكون أبدية. وحتى الآن لم يتوفر لها أي من الشروط الموضوعية اللازمة لنجاحها.

إنرون ومشكلة "الرجل النظيف" ([36])

تستمد فضيحة إنرون أهميتها من عدة اعتبارات أولها أنها أكبر حالة إفلاس في تاريخ الولايات المتحدة، فهي واحدة من أكبر عشر شركات في الولايات المتحدة وتأتي في المرتبة السابعة، وقدر حجم أعمالها في العام الماضي، بنحو مئة مليار دولار أمريكي.

والتأثير الذي يتوقع أن يحدثه إفلاسها ضخم ومتعدد الجوانب، فالشركة التي يعني إفلاسها بطالة الآلاف من العمال (حوالي خمسة آلاف)، يعني إفلاسها أيضًا أضرارًا متفاوتة لآلاف أخرى من المتقاعدين والموظفين بها، وكذلك حملة أسهمها. وتشبه عملية التحقيق في الأبعاد السياسية لانهيار إنرون عملية تمزيق أخطبوط ضخم.

فعلى المستوى السياسي تشكل إنرون واحدة من أهم المتبرعين للساسة الأمريكيين، إذ قدمت منذ عام 1998 حوالي 8،5 ملايين دولار من التبرعات، حصل الجمهوريون منها على 73%، وحصل الديمقراطيون على 27%، ومن بين أعضاء الكونجرس بمجلسيه تلقى تبرعاتها 50% من أعضاء مجلس النواب، و75 % من أعضاء مجلس الشيوخ، وهو ما صنع لها نفوذًا سياسيًا بلغ حدًا أن اللجان البرلمانية التي تحقق في فضيحة انهيارها، ويبلغ عددها إحدى عشرة لجنة تضم في عضويتها 248 عضوًا، من بينهم 212 عضوا تلقوا تبرعات منها!

([36]) **نشر في الملف السياسي في 15/ 2/ 2002.**

ويأتي الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش على رأس المنتفعين من إنرون التي منحته أكثر من ستمئة ألف دولار منذ بدأ حياته السياسية.

مشكلة الرجل النظيف

وتعتبر فضيحة إنرون الفضيحة الثانية الكبرى التي ترتبط برئيس أمريكي خلال سنوات قليلة، ورغم أن الفضيحة السابقة (مونيكا جيت) لم تكن فضيحة مالية، إلا أن كليهما تعبير عن ظاهرة واحدة تتسم بها الممارسة السياسية في الغرب هي "**البحث عن الرجل النظيف**".

والظاهرة منتشرة على جانبي الأطلنطي بدرجات متفاوتة وشواهدها أكثر من أن تحصى، بدءًا من حياة ميتران الخاصة، وتجاوزات هيلموت كول المالية المتصلة بالتبرعات التي كان يتلقاها حزبه، وحكايات جاك شيراك وما يوجه له من اتهامات في ذمته المالية، وقصص بيرلسكوني القادم من عالم المال طازجًا (أو طائشًا) ليشتري كل شئ في عالم السياسة بالمال، وحكاية كلينتون مع المتبرع الإندونيسي و......

ورغم أن القوانين في الدول الغربية لا تتساهل مع الفساد، فإن آليات الممارسة السياسية في الغرب تؤدي بشكل بنيوي إلى ولادة مثل هذه الظواهر واستشرائها، فالدور الذي تلعبه أجهزة الإعلام في العملية السياسية جعل خوض الانتخابات (أي انتخابات) تحتاج إلى أموال طائلة والعوائد القانونية للمناصب الرسمية لا تكفي لتمويل هذه العملية.

على الجانب الآخر أدى تحول الرسالة السياسية إلى رسالة إعلامية في المقام الأول إلى نتيجة أخطر هي تحول السياسي من شخص حقيقي من لحم ودم إلى "**صورة**" تصنعها أجهزة الإعلام ويتحكم فيها محترفوها وفقًا لاعتبارات مهنية محض، لا مكان فيها لأية اعتبارات أخلاقية.

الساسة ومهرجو السيرك

وبالتدريج ذهب السياسيون أصحاب الأفكار والقدرات الكبيرة وحل محلهم سياسيون أقرب إلى "**مهرجي السيرك**"، صورة الواحد منهم ملساء مسطحة لا عمق فيها ولا أبعاد لها. وحلت الكفاءة في الاستيلاء على أموال المتبرعين وأصوات الناخبين محل القدرة على الإقناع. ولعبت طبيعة الناخبين دورًا كبيرًا في تغول الظاهرة، فالناخب هو في النهاية مواطن أمريكي يشغله الاستهلاك ولا يعرف عن مجريات السياسة في بلاده إلا أقل القليل.

وعندما يسود منطق "**التسويق**" يصبح السياسي سلعة تبحث عن الرواج بغض النظر عن الوسيلة، وكفاءة تغليف السلعة من العوامل المهمة لجذب المستهلك (الناخب) لها. وهكذا يؤدي تغليب منطق الكفاءة وحده إلى وصول أصحاب الأموال إلى غرف صناعة القرار ليحكموا من وراء الستار وتبرعاتهم قادرة على شراء الستار المناسب.

وإذا كانت صلة بوش بإفلاس إنرون تثير شهية هواة الفضائح فإن ظاهرة فساد السياسيين في الولايات المتحدة تضع القضية كلها في سياق مختلف، ولنقرأ الإحصاء التالي عن مؤسسة أمريكية ينتمي إليها 435 عضوا ويرجع إلى عام 1998:

. 29 اتهموا بالاعتداء على زوجاتهم.

. 7 اعتقلوا بتهمة النصب والاحتيال.

. 19 اتهموا بتحرير شيكات بدون رصيد.

. 117 اتهم كل واحد منهم بالمسئولية عن إفلاس شركتين على الأقل.

. 3 اعتقلوا بتهمة الاعتداء على أشخاص آخرين.

. 71 لا يستطيعون الحصول على بطاقات ائتمانية (كريدت كارد) بسبب سوء سجلهم المالي.

. 8 اعتقلوا في محلات تجارية بتهمة السرقة.

. 21 يدافعون عن أنفسهم في قضايا متنوعة مرفوعة عليهم.

أما المؤسسة فهي الكونجرس الأمريكي الذي يضم 435 عضوًا!

وقد أجري هذا الإحصاء في الوقت الذي كان فيه الكونجرس يبحث عزل كلينتون بسبب فضيحة مونيكا. وتكتمل الصورة عندما نعلم أن نيوت جنجريتش رئيس مجلس النواب الذي حاول عدة مرات عزل كلينتون لحقت به هو الآخر فضيحة جنسية مدوية.

ثورة المخدوعين

مع كل فضيحة سياسية أو مالية تمس مسئولًا أمريكيًا يشعر المواطنون أنهم خدعوا، وعندئذ تظهر المقولات الأخلاقية المبدئية وتشيع، وتكرار هذه الفضائح لم يؤد حتى الآن إلى أن يتسامح معها الرأي العام الأمريكي. وإذا كان الرئيس الأمريكي توماس جيفرسون قد عبر عن ضيقه بنظرة الأمريكيين للسلوك الشخصي لرئيسهم فقال: "**إنهم يريدون خصيًا في البيت الأبيض**"، فإن ما تحدثه الفضائح المالية أثر مشابه.

ورغم أن أموال التبرعات تشكل عصب العملية السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن اتجاهات لتقييدها تتزايد باستمرار، وأصبح هناك اتجاه قوي يدعو لإصلاح نظام تمويل الحملات الانتخابية. وقد بلور هذا التيار مشروع قانون يدعمه 218 عضوًا بمجلس النواب الأمريكي يستهدف منع الشركات الكبرى من إفساد الحياة السياسية.

والمبادرة ليست الأولى من نوعها، فمجلس الشيوخ سبق له أن وافق على مشروع قانون يمنع استخدام التبرعات التي يطلق عليها الأموال الناعمة، لكن النواب الجمهوريين الأكثر استفادة من هذه التبرعات عرقلوا مبادرة مماثلة.

والإجراء الذي اتخذه الكونجرس، لأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة، باللجوء للقضاء لإجبار البيت الأبيض على الكشف عن وثائق تتصل بالشركة وعلاقتها بخطة الطاقة، هو بكل المقاييس علامة فارقة في تاريخ السياسة الأمريكية. فللمرة الثانية في سنوات معدودة يكون للقضاء القول الفصل في مسألة حساسة كهذه بعد حسمه معركة الرئاسة بين بوش وآل جور. فكل فضيحة تنبه إلى ثغرة في النظام السياسي، وغالبًا تسن القوانين لسدها، وتلك ميزة كبرى تميز النظام الأمريكي. لكن البنية ما زالت تؤدي إلى استشراء الظاهرة، والثغرة التي أحدثتها فضيحة إنرون كبيرة بكل المقاييس.

قراءة متأنية في أزمة يهود فرنسا ([37])

منذ أن ولدت الحركة الصهيونية وهي تدعي التحدث باسم كل الجماعات اليهودية في العالم، وتدعي أن الدولة التي تريد إنشاءها ستكون دولة اليهود في العالم كله. ومنذ نشأة لكيان الصهيوني وعلاقته بالجماعات اليهودية في العالم تمر بأزمات سببها رفض الجماعات اليهودية في العديد من دول العالم، وبخاصة الدول الغربية المتقدمة وجنوب أفريقيا، الهجرة.

وهي جماعات رفضت الهجرة للكيان الصهيوني رغم أن عمره تجاوز خمسين عامًا، ورغم أنه يحاول تصوير نفسه واحة تقدم وديمقراطية، ورغم أنه مدجج بأكثر الأسلحة تقدمًا كما يملك أنيابا نووية. وبعد أن حقق هذا الكيان: "**انتصارًا كبيرًا**" على ثلاثة دول مجاورة في يونيو 1967، فإن نشوة النصر دفعت بعض رافضي الفكرة الصهيونية من يهود العالم لقبولها، لكنه لم يدفع أكبر الجماعات اليهودية للهجرة إلى الكيان الصهيوني.

الدياسابورا الإسرائيلية!

وقد استخدم لفظ الدياسابورا لوصف وضع الجماعات اليهودية الموجودة خارج الكيان الصهيوني، وكان نجاح الصهيونية يستلزم بالضرورة القضاء على الدياسابورا، ليصبح

([37]) **نشر في 24 /3 / 2002**.

الكيان الصهيوني دولة كل يهود العالم، غير أن المحصلة كانت حكمًا على الصهيونية بالفشل الذريع، رغم قيام الدولة وانتصارها على "**أعدائها**".

وسبب الفشل أن الكيان الصهيوني الذي نشأ قبل أكثر من خمسين عامًا بحوالي سبعمائة ألف مهاجر صهيوني هاجر منه — نعم هاجر منه — ما بين سبعمائة وخمسين ألفًا ومليون مهاجر يهودي، يشكلون دياسابورا جديدة أضيفت إلى جماعات يهودية أخرى هي "**الدياسابورا الإسرائيلية**". والاسم وحده يكفي لتجسيد الفشل.

ومن بين حوالي تسعمائة ألف مهاجر من الاتحاد السوفيتي، وحوالي أربعين ألفًا من إثيوبيا هاجروا للكيان الصهيوني خلال الأعوام الإثنى عشر الماضية، يوجد ما بين 30 و 50 % مشكوك في يهوديتهم، أي أن الدولة التي أنشئت ليهاجر إليها اليهود أصبحت مصدرًا لهجرة اليهود، بينما تستقبل مجموعات بشرية غير محددة الهوية.

وبعد أكثر من قرن من الجهود الصهيونية المكثفة والدعم الغربي غير المحدود، يعيش في الكيان الصهيوني 5,2 مليون يهودي يمثلون 38 % من يهود العالم، بينما يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ستة ملايين يهودي.

فأي نجاح حققته الصهيونية؟!

تجارة الخوف

وما تشهده فرنسا حاليًا من نقاشات محتدمة في صفوف الجالية اليهودية فيها، حول العلاقة مع الكيان الصهيوني، موقف جدير بالتأمل ومحمل بدلالات شديدة الأهمية. وقد سبقت هذا الجدل مقدمات تمثلت في إعلان الدولة الصهيونية، لأول مرة، عن مخطط لتهجير مليون يهودي من الدول الغربية المتقدمة (الولايات المتحدة وكندا وأوروبا الغربية

بالإضافة إلى أستراليا والأرجنتين وجنوب أفريقيا). كما أعطى هذا المخطط أهمية خاصة ليهود فرنسا الذين يبلغ عددهم 700 ألف.

وبعد قليل، وفي مطلع عام 2002، صرح السفير الإسرائيلي في باريس بأن فرنسا تشهد أعنف مظاهر معاداة السامية في أوروبا. وتناقلت وسائل الإعلام الفرنسية حينها هذا التصريح بوصفه "**ناقوس خطر**" يدق بفعل تزايد "**الاعتداءات**" على المؤسسات اليهودية. وكانت النغمة السائدة في الإعلام أن ذلك "**يهدد**" البلاد، وينذر بمواجهات على أساس ديني/ عرقي، ويخترق صمام الوحدة الجمهوري/ العلماني التقليدي في فرنسا. ونشر نائب وزير الخارجية الإسرائيلي ميخائيل ملشيور مقالًا على صفحات جريدة **لوموند** فضح من خلاله دواعي الحملة الصهيونية وأهدافها. وبدا حينها أن الحملة الصهيونية من أجل دفع اليهود الفرنسيين، الذين يشكلون أكبر جالية يهودية في أوروبا، للهجرة إلى إسرائيل قد بدأت تؤتي ثمارها.

وقد كتب فرنسي يهودي "**هنري إسرائيل**" ردًا قويًا على ملشيور جاء فيه أن للصهاينة هدفًا رسميًا من وراء إثارة قضية العداء للسامية، يتمثل في إثارة هجرة جميع اليهود إلى إسرائيل، بدعوى أنهم سيعانون من معاداة السامية أينما حلوا. "**ومن دون شك أن دولة إسرائيل تفكر أن بمقدورها حل المشكل الديمغرافي الذي تواجهه بالكذب والدعاية وبمختلف أشكال المناورات والتضليل**" ."**لقد حان الوقت ليقف يهود فرنسا ويصرخوا عاليًا وبقوة أنهم فرنسيون، وأن بلدنا هي فرنسا، وأن ثقافتنا فرنسية، ومستقبلنا أوروبي**". "**ذلك أن اللعب على حبل "البارانويا" الجماعية الانفعالية، من أجل إقناع قلة من الناس بأنهم معرضون لكل أنواع المخاطر، يعد عملًا مرفوضًا**".

"**ليس هناك موجة معادية لليهود، إن الأمر لا يتعدى كون أن البعض يريدون أن يمر النزاع الفلسطيني الإسرائيلي عبر باريس، ويخلطون بين دولة إسرائيل واليهود.**

وليس لأن بعض الأشخاص صرخوا (الموت لليهود) خلال مظاهرة دعم للفلسطينيين فإننا نواجه عودة اللاسامية".

ومحاولات الكيان الصهيوني بث الرعب في نفوس أعضاء جماعة يهودية لدفعهم للهجرة إليه أمر مسبوق، فعندما رفض يهود العراق الهجرة للكيان الصهيوني قامت المخابرات الإسرائيلية بوضع قنابل في أماكن تجمعهم لدفعهم للهجرة تحت وطأة الخوف.

أنا فرنسي وشارون أجنبي!

وأضاف هنري إسرائيل: "**لكن عندما تمارس شخصيات تمثل الجالية اليهودية الخلط والرعب الفكري، لمطالبة اليهود بالموافقة المطلقة على ممارسات أريل شارون، فإنهم يشجعون أكثر من أي شخص آخر الاعتقاد بأن هناك في أوساط الجالية اليهودية شعورًا بولاء وانتماء مزدوج، لا يخدم لا مصالح اليهود في فرنسا و لا المجتمع الفرنسي ككل**".

"**وكمواطن فرنسي، أرفض أن يتجرأ وزير أجنبي ويقول لي ماذا ينبغي أن أكون، وماذا علي فعله وأين ينبغي أن أعيش. وإنني أفترض كذلك أن المساعدات المقدمة من قبل الوكالة اليهودية من أجل استقبال الناجين الجدد المزعومين من معاداة السامية ستجد مكانًا لها في مستوطنات غزة أو القدس الشرقية. لا، حقيقة حان الوقت لكي نقول للحكومة الإسرائيلية هذا كثير، كثير**".

جدل الدعم والتنصل

ما يعكسه الحوار الدائر في فرنسا أن الصهيونية لم تنجح في إقناع القسم الأكبر من يهود العالم بمشروعها، لكنه يعكس، في الوقت نفسه، تصاعد إحساس قطاعات واسعة

من الجماعات اليهودية في العالم بأن الكيان الصهيوني وسياساته عبء عليها، وهناك مواقف مشابهة تصدر من آنٍ لآخر من جماعات يهودية أخرى، كما حدث مؤخرًا في جنوب أفريقيا. وإذا كان العنف الذي يمارسه الكيان الصهيوني ضد الفلسطينيين يجعل رغبة أي يهودي في الدفاع عن سياساتها القمعية أمرًا صعبًا، فإن سلوكيات رسمية أخرى تضع أعضاء الجماعات اليهودية أمام تحديات أكبر، وبخاصة ما يثير قضية ازدواج ولاء اليهودي بين الكيان الصهيوني وبين الوطن الذي ينتمي إليه بالميلاد والجنسية.

وقد كان تعقيب اليهودي الوحيد الذي كان عضوًا في الحكومة البريطانية التي أصدرت **وعد بلفور** أنه يرفضه لأنه "**جعل لتهمة ازدواج ولاء اليهودي أساسًا موضوعيًا لأول مرة**"، لكن سلوك الكيان الصهيوني أضاف سوابق أخرى لعل أشهرها قضية لجاسوس الأمريكي جوناثان بولارد الذي تجسس لحساب الكيان الصهيوني بدوافع دينية وأدى القبض عليه لإثارة القضية ازدواج. وقد أكد كثير من قادة الجماعة اليهودية آنذاك إدانة سلوك بولارد. فإذا كانت مخططات التهجير تثير القضية في بلد مثل فرنسا، فإن هذا من المؤكد أن يدفع المزيد من يهودها للتنصل من الصهيونية.

نهاية خرافة اللوبي

غير أن أحدًا من المحللين الذين تناولوا هذا المخطط الصهيوني، لم يشيروا إلى دلالة يشير إليها رغم أهميتها الشديدة سياسيا ومعرفيا على السواء، هي أن رغبة الكيان الصهيوني في تهجير يهود الدول الغربية، وبخاصة في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية (بغض النظر عن احتمال استجابتهم قبولًا أو رفضًا) يعني أن قادته يدركون أن الدعم الغربي للكيان الصهيوني ليس سببه وجود هذا اللوبي "**الخارق**" المسيطر على مقدرات الدول الكبرى شرقًا وغربًا. فبقاء جماعات يهودية في العواصم الغربية هو ما يضمن استمرار هذا اللوبي، والرغبة في تهجير هذه الجماعات يكشف القناع عن حقيقة أن الدعم الغربي لهذا

المشروع جزء من رؤية الغرب لذاته وللعالم، وأن ثمة اعتبارات مصلحية (نفعية) ودينية وثقافية تضمن استمرار هذا الدعم غير المحدود.

وهذا هو الدرس الأكثر أهمية!

من "المجال الحيوي" إلى "مساحة الحياة" ([38])

رياح عاتية تهب على المشروع الصهيوني وتهدد ثوابته تهديدًا جديًا، رغم ما يتسلح به الكيان الصهيوني من أسلحة تقليدية وغير تقليدية، ورغم ما يبديه من شراسة في التعامل مع الشعب الفلسطيني. ففي الداخل يسود شعور طاغ بأن الحرب والتسوية السلمية كلاهما لا يضمنان تحقيق الأمن، إذ تؤدي المواجهة مع الشعب الفلسطيني إلى مزيد من الإحساس بالخوف ومزيد من اللجوء إلى العنف بما يعنيه من إساءة إلى صورة الكيان الصهيوني في العالم.

وإلى جانب آثاره الاقتصادية السيئة، ينعكس هذا الخوف بالضرورة على قدرة الكيان على أداء وظيفته كحارس للمصالح الغربية في المنطقة، إذ يتحول الحارس من مصدر للإحساس بالأمن إلى رمز متبلور لتبدد الأمن، كما أنه يضفي مزيدا من القتامة على صورة المستقبل.

خرافة "إسرائيل الآمنة"

وحالة المواجهة على المستوى البنيوي تقطع بأن الكيان الذي أنشئ ليكون "**دولة اليهود**" أقل مكان يمكن أن يشعر فيه اليهود بالأمن على وجه الأرض، فضلًا عن أن هذه

([38]) نشر في **9 / 4 / 2002**.

المواجهة تقلص قدرة الكيان الصهيوني على إغراء مزيد من يهود العالم للهجرة إليه لمواجهة مأزق ديمغرافي يتسم بأنه عميق ومزمن في آن واحد.

فاحتمال الذوبان في "**بحر من الأعداء**" يعد بالنسبة للإسرائيليين كابوسًا فظيعًا، وبخاصة في ظل معدلات زيادة سكانية متدنية وازدياد كبير للروح الاستهلاكية بين الصهاينة. وشيوع هذه الروح لا يقتصر أثره على العزوف عن تكوين أسر، أو الاكتفاء بأسرة صغيرة بل يمتد ليشمل فقدان الحافز للخدمة في الجيش الصهيوني. إذ حلت الرغبة في الاستمتاع والاستهلاك محل الحلم الصهيوني التقليدي، "**الرائد**" الذي يبني بيته بجانب البركان ويحقق ذاته من خلال القتال.

وتشكل هجرة الفلاشا علامة فارقة في تاريخ المشروع الصهيوني الذي تأسس على يد اليهود الإشكناز من شرق أوروبا ليكون جيبًا استيطانيًا غربيًا، فبسبب الصراع الديمغرافي لجأ الصهاينة إلى تهجير يهود البلاد العربية الذين أصبحوا بمرور الوقت المجموعة السكانية الأكبر عددًا، وقد أدى هذا إلى ظهور الصدع الأكبر في بناء الكيان الصهيوني وهو الصراع السفاردي/ الإشكنازي. أما تهجير يهود الفلاشا، فرغم أنه أحدث آثارًا سلبية أقل حدة من الصراع السفاردي/ الإشكنازي إلا أنه كان اعترافًا بأن المشروع فشل في إقناع يهود الغرب بالهجرة إليه، كما كان إشارة قوية إلى أن الكيان سيعطي أولوية للبقاء على تحقيق الذات أو الحفاظ على الهوية.

ويكاد الكيان الصهيوني بعد هجرة يهود الاتحاد السوفييتي (السابق) يتحول إلى مجتمع من المهمشين من شتى أنحاء العالم، فنسبة غير اليهود بين هؤلاء المهاجرين تتجاوز 30 % هم خليط من المسيحيين وأدعياء اليهودية والملحدين. وقد وصلت الأزمة إلى قمتها بادعاء أن قبائل البشتون المسلمة التي تتوزع بين أفغانستان وباكستان هي قبائل يهودية يجب تهجيرها للكيان، ثم تحولت الأزمة إلى ملهاة عندما قامت منظمات صهيونية بتهويد بعض قبائل الهنود الحمر وتهجيرها بالفعل للكيان الصهيوني!!

الدياسبورا الإسرائيلية

أما الهجرة من الكيان الصهيوني فهي أكبر هزيمة مني بها المشروع الصهيوني منذ ظهوره، فخلال أقل من نصف قرن على نشأته هاجر منه عدد يتراوح بين سبعمائة ألف يهودي ومليون يهودي اختاروا حياة الشتات، وأصبح الكيان الذي أنشئ ليحل محل الجماعات اليهودية المشتتة في العالم ويجمعها في دولة واحدة مصدرًا لهجرة اليهود للعالم!

وخلال عمر انتفاضة الأقصى تفاقمت الظاهرة بشكل غير مسبوق، وبدأت أجراس الإنذار تنطلق في عواصم أوروبية عديدة محذرة من طوفان هجرة يهودية من الكيان الصهيوني، وكأن التاريخ عاد إلى الوراء قرنًا كاملًا.

ففي المجر حذر الزعيم اليميني المتطرف إيزتفان سوركا سكان العاصمة بودابست من أن الأجانب، وعلى رأسهم الإسرائيليون، يحاولون شراء المساكن والشقق في العاصمة المجرية هربًا من المشاكل في الشرق الأوسط، الأمر الذي يهدد المجريين بمنافسين جدد لهم في معيشتهم.

وأوضح الزعيم المجري اليميني في مؤتمر صحفي عقده خصيصًا للتحذير من التحرك الإسرائيلي، أن الأسباب الاقتصادية وحدها لا يمكن أن تفسر سبب شراء الإسرائيليين الشقق والأملاك الأخرى. وأشار إلى أن ذلك يجب أن يفسر بوصفه هجرة مستهدفة. وقد استخدم الزعيم اليميني تعبير "**مساحة الحياة**" الذي شبهه البعض بالتعبير الشهير الذي صكه الزعيم النازي الألماني أدولف هتلر "**المجال الحيوي**" لتبرير سياساته التوسعية والعنصرية.

وأكد سوركا أنه لا يعارض مجيء الألمان والنمساويين والإسرائيليين بل والصينيين إلى بودابست، لكن من الضروري أن يعرف المواطنون نسبة الأملاك المشتراة في المدينة التي تهدد المجال الحيوي للمجريين، وإيقاظ هذه المخاوف سيكون له توابعه.

الفرار من السلام

ورغم أن ادعاء الرغبة في العيش في سلام كان أحد ثوابت الخطاب الديبلوماسي الصهيوني الموجه للغرب، فإن الكيان الصهيوني يفر من السلام إلى الحرب لإدراك نخبته السياسية — وبخاصة البقية الباقية من جيل مؤسسي الكيان — أن زوال حالة الصراع تعني: أولًا زوال حالة الإجماع القومي التي يصنعها الشعور بأن وجود الكيان مهدد، وتعني ثانيًا ظهور الشروخ والتصدعات التي تزداد تعمقًا في المجتمع الصهيوني. فإلى جانب الصراع الأكبر (الحاكم) بين الكيان الصهيوني والمحيط الحضاري العربي الإسلامي الذي زرع فيه، هناك تحت السطح: صراع إشكنازي/ سفاردي، وصراع ديني/ علماني، وصراع ثلاثي بين الأرثوذكس والتجديديين والمحافظين، ونزاع أقل حدة بين الكيان والجماعات اليهودية في العالم، هذا إلى جانب إحساس عميق بالافتقار إلى التناغم الثقافي واللغوي.

والخلافات بين الفرقاء تشمل هوية الدولة وحدودها والموقف من الفلسطينيين ومن الغرب وتمتد إلى مخططات المستقبل. وكلها صراعات تحتل واجهة المشهد عندما يسكت الرصاص. وضريبة الفرار من السلام تبدو أكثر وضوحًا في صورة الكيان الصهيوني في الغرب ودرجة تعاطفه معه.

ففي استطلاع للرأي العام نشر في باريس جاء أن 9% فقط من الفرنسيين لا يزالون يتعاطفون مع المواقف الإسرائيلية (مقابل 14% منذ عام مضى)، في حين أعلن 19% منهم تعاطفهم مع المواقف الفلسطينية (أي بزيادة 1% مقارنة باستطلاع أجري العام الماضي)، وتشير الأرقام بوضوح إلى أن التغير لا يستغرق زمنًا طويلًا بل تتغير الصورة من عام إلى عام.

ووفقا لاستطلاع آخر أجرته مؤسسة **بي. في. أي** ونشرته صحيفة **ليبراسيون** الفرنسية فإن أكثر من ثلث عينة الاستطلاع أعربوا عن عدم تعاطفهم لا مع الإسرائيليين

ولا مع الفلسطينيين (مقابل 38% العام الماضي). وفي حال اندلاع نزاع عسكري واسع في الشرق الأوسط فإن 21% قالوا إنهم سيحملون إسرائيل مسئولية الحرب مقابل 11% سيلقون المسئولية على الفلسطينيين.

ويظهر الاستطلاع الذي شمل عينة من 965 شخصًا أن 42% من الفرنسيين يعتبرون أن تغطية النزاع من قبل وسائل الإعلام تتم بشكل موضوعي (مقابل 56% العام الماضي)، واعتبر 18% إنها منحازة لصالح الإسرائيليين (مقابل 9% العام الماضي)، و7% يرون أنها منحازة للفلسطينيين مقابل (9% العام الماضي).

هل عاد هتلر؟

الجدير بالتوقف أن 49% ممن شملهم الاستطلاع أعربوا عن خشيتهم من تنامي مشاعر معاداة اليهود في فرنسا. ورغم أن هذه النسبة تمثل تراجعًا عن نسبة للعام الماضي، إذ قدر 70% من عينة استطلاع مماثل وجود هذا الخطر. إلا أن رئيس مجلس أساقفة فرنسا المونسنيور جان بيار ريكار اعتبر أن تنامي معاداة السامية في فرنسا ليس "**وهمًا**"، مشيرًا في الوقت نفسه إلى ما أسماه "**انعكاسات النزاع الإسرائيلي الفلسطيني**" في بلاده وتسببه في هذا التنامي. وتساءل: "**هل يمكن أن يوجه المرء أيضا انتقادات لإسرائيل من دون أن يوصف بمعاداة السامية؟**" وأضاف: "**أنا أتمنى ذلك**".

ومع تصاعد نفوذ التيارات القومية اليمينية المتطرفة في أوروبا، وهي عدو تاريخي للوجود اليهودي في القارة، وفي ضوء تنامي هذه المخاوف أعلنت الحكومة الإسرائيلية عزمها إقامة منتدى دولي لمكافحة معاداة السامية، في خطوة يعتقد أنها تأتي ردًا على تزايد عدد الأعمال المعادية لليهود في أوروبا. وجاء في بيان لوزارة الخارجية الإسرائيلية أن هذا المنتدى سيضم ممثلين عن الحكومة وأجهزة الاستخبارات ومنظمات يهودية بالإضافة إلى جامعيين.

وفي السياق نفسه وقع اثنان من اتحادات الكنائس الأوروبية ميثاقًا عالميًا لتطوير التعاون بين الكنائس المسيحية على نطاق القارة الأوروبية. وتعهد الموقعون على الاتفاق بمحاربة كل أنواع العداء للسامية واليهودية في الكنيسة والمجتمع.

كما تعهدوا بتطوير الحوار مع بقية الأديان والمذاهب الأخرى. ووقع الاتفاق رئيس مجلس اتحاد الأساقفة الأوروبيين الكاثوليك ورئيس اتحاد الكنائس الأوروبية التي تضم نحو 100 جماعة بروتستانتية وأنجليكانية وأرثوذكسية. ويعترف الميثاق، وهو غير ملزم للموقعين عليه، بحرية الأديان ويعارض كل المحاولات الرامية لاستخدام الدين والكنيسة لأغراض عرقية أو قومية. وأعلن الاتحادان عن معارضتهما لكل أشكال الدعوات القومية التي تؤدي لاضطهاد الآخرين والأقليات العرقية.

فإذا كان المشروع الصهيوني قد فشل في جذب الجماعات اليهودية لتهاجر إليه، وفشل في تحقيق الأمن لمن هاجر إليه منهم، وفشل في بلورة الهوية اليهودية، فهل اختلفت الصورة كثيرا عما كانت قبل قرن مضى؟ الأرجح أن المشروع الصهيوني في واحدة من أعمق أزماته، وعنفه الشديد لا ينفي ذلك بل يؤكده، لكننا للأسف أسرى حالة الضعف العربي المخيفة.

هل نحن عون للفلسطينيين أم عبء عليهم؟ ([39])

من طريف ما أورده الكاتب الأمريكي بوب وودوارد في كتابه الشهير: "**الحجاب**" أن الرئيس الأمريكي رونالد ريجان كان يكره القراءة وكانت التقارير تعد له في صورة أفلام تسجيلية، وعندما كان يستعد لمقابلة رئيس عربي، للمرة الأولى، عرض عليه فيلم تسجيلي قصير جدا فحواه أنه "**شخص فارغ**" أصبح رئيسًا بالصدفة.

وترك هذا الانطباع بصمة على علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بهذه الدولة طوال حكم ريجان. وبعد احتلال العراق للكويت طلب من أكاديمي أمريكي من أصل عربي هو فؤاد عجمي أن ينصح جورج بوش الأب حول أفضل سُبُل التعامل مع العرب أجمعين، وفي أطوار التحضير لعملية عاصفة الصحراء طُلب من البروفيسور أن يعقد جلسة مع الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش (الأب)، من أجل تثقيف الأخير سياسيًا وسوسيولوجيًا حول الذهنية العربية إجمالًا، وحول شخصية صدام حسين بصفة أخصّ.

وقيل عندها إنّ بوش خرج من اللقاء متعجبًا مكفهرّ الوجه، وقال لمساعديه ما معناه: **يا إلهي! أراهن أنّ ألدّ أعداء العرب من الإسرائيليين ما كان سيصوّر لي الشخصية العربية على هذه القتامة!**

وعلى صفحات جريدة **الشرق الأوسط** اللندنية (**15 إبريل 2002**) قدم الكاتب الأمريكي دويل ماكمانوس تحليلًا لأثر صورة عرفات، مقارنة بصورة شارون، لدى

([39]) **نشر في 3/ 5/ 2002.**

الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) في صياغة الموقف الأمريكي من العدوان الصهيوني على الفلسطينيين. ورغم أن هذا البعد الشخصي ليس الفاعل الرئيس في عملية صنع القرار فإن له أثرًا لا يمكن إنكاره، وبخاصة مع نمط من السياسيين قليلي المعرفة.

والبروفيسور الأمريكي نورتون ميرفنسكي أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة كونتيكت يريحنا من عناء تقديم البراهين والشواهد على أهمية هذه القضية فيصف الرئيس الأمريكي الحالي جورج بوش بأنه سطحي، وهو ما يعني أن أثر "**الصورة**" فيه مؤكد.

هواية إهدار الفرص

وحسب ماكمانوس فإن تجربة بعينها تركت أثرًا عميقًا في هذه الصورة، ففي ديسمبر عام 1998، قام الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) – وكان ذلك قبل وصوله إلى منصب الرئيس – بزيارة إلى الكيان الصهيوني استغرقت ثلاثة أيام. وعند عودته للولايات المتحدة كان في ذاكرته تجربتان شخصيتان عاشهما هناك.

الأولى، تتمثل في وقوفه فوق الهضبة التي ألقى المسيح موعظته منها في منطقة الجليل، والثانية، الجولة التي قام بها برفقة أرييل شارون الذي كان آنذاك وزيرًا للخارجية. وفي تلك الجولة التي تمت بطائرة هليكوبتر، أطلع شارون بوش على حدود إسرائيل قبل حرب يونيو 1967.

في الوقت نفسه، طلب بوش مقابلة ياسر عرفات، لكن الرئيس الفلسطيني لم يستجب لمطلبه، وهو موقف من المؤكد أنه لا يثير دهشة ماكمانوس وحده، كما أنه يشير إلى حالة كسل وقصر نظر تكاد تسم الأداء السياسي الرسمي العربي. والشواهد المماثلة أكثر من أن تحصى.

بل إن أحد الإعلاميين الأمريكيين المعروفين سئل في حمى الاهتمام بظاهرة العداء الغربي للعرب وصورتهم في إعلامه، فقال: "**أنصار إسرائيل يحاصروننا بدعايتهم من كل شكل ولون أما العرب فهم مجرد أشباح، فهل يمكن التعاطف مع أشباح؟**".

وبطبيعة الحال أضاع عرفات بهذا الموقف فرصة سياسية ثمينة جدًا. ومنذ ذلك الوقت، كما يقول مكمانوس، وعلاقات الرئيس بوش بكل من عرفات وشارون يحكمها نمط ثابت. فشارون يسعى للتقرب إليه، ونجح في كسب ثقته، ليس من خلال دعمه الكامل لسياسة الولايات المتحدة ضد الإرهاب، بل حتى من خلال صراحته حينما يكون مختلفًا مع سياسات الولايات المتحدة. من جانب آخر، لم يستطع عرفات أن يقيم صلة مماثلة ببوش. فحسب أحد المقربين لبوش، ولم يكن الرئيس الأمريكي يعرف أي شيء عن عرفات عدا كونه وقف إلى جانب صدام حسين في حرب الخليج الثانية، ضد بوش الأب. وفي نوفمبر الماضي، رفض الرئيس الأمريكي طلب عرفات لقاءه في الأمم المتحدة لتقديم الدعم للولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب.

وفي إطار لعبة الاختزال القاتلة التي تتعرض لها صورة العرب، يأتي هذا الجزء من حوار أجرته مجلة **نيوزويك** الأمريكية (**23 فبراير 2002**) مع إيفي إيتام وزير المفدال المتطرف، فعندما سئل: "**كيف ستحل المشكلة في المدى البعيد؟" أجاب: "سأعرض على الفلسطينيين حكمًا ذاتيًا يتوسع بشكل تدريجي.. بإمكانهم التمتع بكل شئ يتمتع به المواطنون الإسرائيليون ما عدا ثلاثة أمور: لن يستطيعوا السيطرة على حدودهم الخارجية، ولن تكون لديهم أية منظمات مسلحة، ولن يسمح لهم بالتصويت. وعندما سئل: "البعض قد يسمي هذا نظام فصل عنصري ؟" أجاب: "يمكن للناس أن يصفوا ذلك كما يشاؤون، ولكن هذه الأوصاف ليست ذات معنى، عليك أن تتذكر أنه ليس هناك واحد من 100 مليون عربي في العالم يتمتع بحق**

التصويت الحر. نحن نعرف ما يحدث في كل هذه الدول العربية التي تحدث فيها انتخابات، إن هذه الانتخابات مجرد خيال"!.

عون أم عبء؟

وعبر مسار الصراع العربي الصهيوني يظل السؤال قائمًا:

إلى أي حد كان النظام الرسمي العربي عونًا للفلسطينيين في صراعهم؟

وإلى أي حد كان عبئا عليهم؟

ويكتسب التساؤل مشروعيته من حقيقة أن "**صورة الفلسطيني**" في الوجدان الغربي والصهيوني على السواء كانت – وما زالت – مرتبطة بصورة العربي، وما يتحمله الفلسطينيون (وحدهم تقريبًا) محصلة صراع مرير دام بين حضارتين عمره أكثر من عشرة قرون.

وإذا أخضعنا الدعم العربي الرسمي للمقاومة الفلسطينية وللشعب الفلسطيني عمومًا لعملية تقييم مركبة تأخذ في اعتبارها المردود السياسي الإيجابي الكبير على صورة النظام الرسمي العربي، بوصفه نصير الحقوق الفلسطينية المدافع عن القدس أولا، ثم عن الحقوق الفلسطينية، مرورًا بعمليات الاستخدام السياسي التي قامت بها بعض الأنظمة القومية لإسكات معارضيها باستخدام ورقة الصراع.

إذا قمنا بهذا التقييم ربما اكتشفنا أن النظام الرسمي العربي كان في المجمل عبئًا على القضية الفلسطينية، بصورته وسياساته على السواء، والاستثناء يؤكد القاعدة ولا ينفيها. فكثير من العواصم العربية شاركت لسنوات في لعبة الإملاء على التنظيمات الفلسطينية، وكثير منها حصل على أمجاد زائفة نتيجة ارتباط نظامه بها. وفي اللحظة التي أصبح الشارع السياسي العربي فيها تغلب عليه الصبغة الإسلامية غلب على فصائل المقاومة الفلسطينية

الانتماء السياسي نفسه، فيصبح النظام الرسمي العربي عاجزًا عن حجب تأييده لهذه المقاومة، وخائفا من نتائج منحها إياه في آن واحد!

إن من أهم نتائج الهجوم الإعلامي الغربي على كل ما هو عربي أنه سيدفعنا إلى تأمل هذه الصورة، وصولًا إلى إدراك تناقضاتها، ففي اللحظة التي تصبح فيها "**الأصولية الإسلامية**" – نتيجة عوامل داخلية وخارجية عديدة – أول أعداء النظام الرسمي العربي ستصبح فصائل مقاومة عديدة واقعة تحت تهديد عربي لا يقل وطأة عن التهديدات الصهيونية.

فهل نسد بالديمقراطية هذه الثغرات جميعًا، فيحصل الإسلاميون على درجة من حرية الحركة في إطار القانون تغلق الأبواب في وجه فتنة العمل السري، وتستكمل الأنظمة شروط المشروعية بالحصول على تأييد حقيقي من الناس، ونبني جسرًا بين قناعاتنا التي تضرب بجذورها في موروثنا الديني ولا يستطيع أي حاكم عربي أن يتنكر لها، من ضرورة أن نتوحد ونؤكد هويتنا الحضارية العربية، وبين واقعنا المحكوم بالتغريب والتمزق على كل المستويات تقريبًا؟

هل نفعل قبل فوات الأوان؟

وعندئذ من المؤكد أن الغرب لن يتحول موقفه منا من الكراهية إلى الحب، لكنه يمكن أن يتحول من الاستهانة والاحتقار إلى الاحترام، وهو تحول من المؤكد أنه يستحق الثمن المطلوب.

أميركا واسرائيل.. علاقة هوية أم مجرد مصالح؟ ([40])

ما الذي يربط تل أبيب بواشنطن؟ سؤال ذهب العقل العربي كل مذهب في محاولته الإجابة عنه، ما بين تفسير ديني يتأسس على وجود تحالف ديني مسيحي يهودي يستهدف منطقتنا العربية الإسلامية، لأسباب دينية محض، وهو تفسير لا يعدم أن يجد ما يعززه من شواهد، وتفسير نفعي يرى المشروع الصهيوني مجرد أداة استعمارية رأسمالية لا دين لها، أو على الأكثر تتستر وراء ديباجات دينية يهودية، بهدف حشد "**المادة البشرية**" التي يقوم عليها المشروع.

وبين هذا وذاك تفسيرات عنصرية تعطي أوضاع اليهود الشرقيين في الكيان الصهيوني مركزية كبيرة، وتعتبرها دليلًا قاطعًا على أن لون البشرة يلعب دورًا أكبر من الدين واللغة. والتفسير التآمري بطبيعة الحال حاضر دائما له أنصاره، وله بغير شك ما يبرره.

تحالف أم تشكيل حضاري؟

وأول ما يشوب هذه التفسيرات من قصور تغليبها عنصرًا واحدًا على حساب العناصر الأخرى في تفسير العلاقة بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، وكذلك في توصيف الصراع، والتوصيف أول مراحل التفسير. فالصراع الدائر في المنطقة العربية صراع مركب ممتد. كما أن محاولة فهم العلاقة بين تل أبيب وواشنطن تحدث بعد أن تبلورت هذه

([40]) **نشر في 20/ 5/ 2002.**

العلاقة، فهي على المستوى المباشر الآني علاقة تحالف، وقد ينشأ تحالف بين عدوين لتحقيق هدف مرحلي، وقد يغير طرف ما تحالفاته بحيث يصبح عدوًا لحليف من حلفائه السابقين، بينما العلاقة بين العاصمتين أكثر من مجرد تحالف.

فعندما كانت الولايات المتحدة أقل انخراطا في السياسة الدولية كانت تقف موقفا مناصرًا للمشروع الصهيوني، فصدر عن الكونغرس عام 1922 قرار يمكن اعتباره "**وعد بلفور أميركي**"، وهو ما يصعب الربط بينه وبين الاضطهاد النازي الذي يتخذ مبررًا لتعويض اليهود، بل إن الولايات المتحدة حتى هذا التاريخ لم تكن قد بلورت مشروعًا واضح القسمات لدورها الدولي.

وقد ورثت الولايات المتحدة – بعد الحرب العالمية الثانية – موقع بريطانيا في قيادة تشكيل حضاري هو الأهم على ساحة السياسة الدولية، هو التشكيل الحضاري الإنجلوسكسوني البروتستنتي، ويضم: الولايات المتحدة، وبريطانيا، واستراليا، ونيوزيلندا، وكندا، والأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا.

جدل الجغرافيا والهوية

وقد كانت صورة العالم خلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية متأثرة بالاستقطاب الثنائي الأميركي السوفييتي، بحيث ظن كثيرون أن الأيديولوجيا حلت محل الهوية، رغم أن الفترة نفسها حفلت بمؤشرات عديدة على الدور القوي الذي تلعبه الهوية في صياغة التحالفات. فمن المؤكد أن قرار فرنسا ألا تشترك في الجناح العسكري لحلف الناتو وإصرارها على الاحتفاظ بغطاء نووي مستقل عن الحلف، ثم سعيها بعد ذلك لدفع مسيرة الوحدة الأوروبية للأمام، وهي تعلم يقينا أن ذلك سيكون على حساب العلاقات الأمريكية الأوربية، يرجعان إلى إحساسها بتمايز على مستوى الهوية عن الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا.

ففرنسا الكاثوليكية بل أكبر دولة كاثوليكية في العالم – رغم علمانيتها – لم تكن لتقبل دور التابع في حلف سياسي عسكري تقوده دولتان تنتميان للتشكيل الحضاري الإنجلوسكسوني هما الولايات المتحدة وبريطانيا، وبالمثل وجدت بريطانيا أن ما يربطها بالولايات المتحدة الأميركية، التي يفصلها عنها جغرافيا المحيط الأطلسي، أوثق مما يربطها بالقارة الأوروبية والمسافة التي تفصلهما أقل بكثير من مساحة المحيط الأطلسي.

وفي نهاية عام 1998 صدمت دول أوروبا عندما اكتشفت وجود تحالف سري إنجلوسكسوني بروتستنتي، وقد صدم حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيون لأنهم اكتشفوا أن استراليا ونيوزلندا القابعتين في أقصى شرق العالم أقرب للولايات المتحدة من حلفاء ربطتهم بالولايات المتحدة عضوية حلف الناتو. واكتشف الحلفاء أيضا أن الولايات المتحدة أنشأت مع هذه الدول شبكة تجسس هي الأكبر من نوعها في التاريخ هي شبكة "**إيشليون**" التي تقوم باستهداف كل دول العالم بلا استثناء. وبطبيعة الحال لم تجد بريطانيا غضاضة في أن تسهل للولايات المتحدة أن تتجسس على جيرانها الأوروبيين.

الهوية تهزم الأممية

وقد كشف بول براكين أستاذ العلوم السياسية بجامعة يال الأمريكية، وهو فضلًا عن ذلك، كان مستشار معظم عمليات إعادة التقويم التي أجرتها الحكومة الأمريكية في حقبة ما بعد الحرب الباردة، وضمنها تلك التي أجرتها وزارة الدفاع (البنتاجون) ووكالة المخابرات المركزية الأميركية (C.I.A)، كشف في كتابه: "**النار في الشرق: تزايد القوى العسكرية الآسيوية والعصر النووي الثاني**" عن حقيقة مثيرة هي أن الأوروبيين في حقبة الاستعمار والهيمنة قاموا بخلق وتحديد وتسمية حدود قارة آسيا، وكانت حدود ما سمي: "**العالم القديم**" أقل وضوحًا من حدود ما سمي: "**العالم الجديد**" الذي كانت تفصله عن قارات العالم القديم محيطات.

ومن الناحية الطبوغرافية كان من الممكن اعتبار آسيا وأوروبا قارة واحدة فلا يفصل بينهما محيط أو بحر، لكن صانعي الخرائط فصلوا بينهما عند جبال الأورال، اتساقًا مع مناخ سياسي لا بسبب ضرورات منطقية، أي أن الفصل بين القارتين في علم الجغرافيا فصل "**ثقافي وسياسي**" أساسه مفهوم للهوية، وهو درس ينبغي استيعابه جيدًا قبل تلقي العلوم الاجتماعية الإنسانية الغربية عموما متقبلين ما تدعيه لنفسها من حياد وعالمية.

ويضيف بول براكين بعدا آخر للقضية مشيرًا إلى أن روسيا في القرن الثامن عشر كانت تسيطر على ممالك أخرى خرجت للتو من حكم المغول، ولرغبتها في ألا تشوه هذه الممالك صورتها كدولة "**غربية**"، فقد سعت إلى أن تكون هناك "**روسيتان**" إحداهما عصرية غربية، والأخرى متوحشة لا تريد التخلص منها طمعًا في ثرواتها. ورغم ما أحدثه قيام الاتحاد السوفييتي من تغيير في بناء السلطة السياسية ونشوء دولة "**أممية**" حاولت صهر كل القوميات، فإن هوية روسيا بقيت تحت الجلد كواحد من أهم العوامل التي تصوغ السياسة السوفييتية.

وكانت الولايات المتحدة في حقبة الثمانينيات – والكلام لبول براكين أيضًا – تعتبر أن الاتحاد السوفييتي لن يعبأ (في حالة نشوب صراع نووي) إذا تعرضت أوزبكستان أو كازاخستان للصواريخ، لذا كانت الولايات المتحدة توجه صواريخها نحو "**روسيا الأوروبية**" لضمان أن تحدث الضربة أقوى تأثير.

ولم يبق بعد هذه المعلومات المدهشة والصادمة إلا أن نصف التجربة السوفييتية التي ادعت أنها فوق القوميات بأنها "**الأممية العنصرية**"!!

ولا عجب في التناقض فالهرب من الهوية حتى لو كان للارتماء في أحضان الأيديولوجيا يفجر المتناقضات.

محور تل أبيب/ كيب تاون

ولعل العلاقة التي كانت بين الكيان الصهيوني ونظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا تمكننا من أن نضع العلاقة بين هذا الكيان والولايات المتحدة في سياق مختلف. فقبل انهيار نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا كانت الدولتان ترتبطان بعلاقة شراكة وثيقة إلى درجة مدهشة، ورغم أن الطرفين يجمعهما –كما ذهب كثير من المحللين –كونهما منبوذين في محيطهما الجغرافي فيما يعد حالة مثالية من حالات التناقض الواضح بين الجغرافيا والهوية، فإن الأمر كان أعمق من مجرد تحالف بين منبوذين. فالنظام العنصري والكيان الصهيوني كلاهما قام على الاستيطان الإحلالي بمعنى عدم الاكتفاء بالاستئثار بالسلطة السياسية وصولا إلى إحلال جماعة بشرية محل "**السكان الأصليين**". وكلاهما نشأ في إطار مصالح التشكيل الإنجلوسكسوني البروتستنتي.

وقد ترجم هذا التوافق نفسه على مستوى العلاقات بين الكيان الصهيوني ونظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا إلى علاقة اعتماد متبادل في مجالات عديدة. فعلى المستوى التجاري، كان نظام الفصل العنصري أهم شركاء الكيان الصهيوني التجاريين، ولم يكن التعاون العسكري أقل قوة فأرسل الكيان الصهيوني متطوعين إسرائيليين ليحاربوا قوى التحرر الوطني، وأمدت جنوب أفريقيا حليفتها بالأسلحة وهكذا. وقد نشر منذ أيام خبر صغير مفاده أن متطوعين من الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا سافروا إلى الكيان الصهيوني لمساندته في مواجهة "**الإرهاب الفلسطيني**" حيث سيساعد هؤلاء في سد النقص في الوظائف المدنية الناجم عن استدعاء قسم من الاحتياطي للخدمة العسكرية.

فزوال النظام السياسي العنصري الذي كان يضع جنوب أفريقيا في سياق تشكيل حضاري ذي هوية مغايرة، هو التشكيل الحضاري الإنجلوسكسوني البروتستنتي، لم يمنع أعضاء الأقلية البيضاء – أو على الأقل قسمًا منهم – من أن يتصرفوا حسبما تملي عليهم هويتهم، وهو ما لا سبيل لفهمه إلا بوضعه في سياقه الصحيح.

فقانون ميل النفس البشرية، وكذلك الدول في عالم السياسية، إلى من يشاركونها الهوية نفسها بما تعنيه من رؤية للذات والكون والآخر قانون ذو تأثير لم يضعفه تأسيس السياسة على المصالح، ولكنه للأسف لا يسري في المنطقة العربية التي لا تحرك السياسة فيها لا المصالح ولا الهوية!

خياراتنا بين المر والأكثر مرارة ([41])

السياسة هي في حقيقتها مواءمة واختيار بين بدائل، وكل صانع قرار يكون أمام لحظة اختيار يوائم بين اعتبارات عديدة لا يكون من بينها عادة الحفاظ على مقومات الوجود، فكل ما يتصل بها لا يكون موضع اختيار، أو لا يجوز أن يكون.

وما يختاره صانع القرار لا يكون نتيجة عوامل آنية وحسب، فهو مسئول قبل أن تحل لحظة الاختيار عن أن يوفر لأمته سلة من البدائل حتى لا تشعر في لحظة ما أن "**ظهرها للحائط**" كما يقول التعبير الشهير. وإذا أصبحت مقومات وجود الأمة موضع اختيار، فإن معنى ذلك أن مسارًا طويلًا من الأخطاء المتوالية ارتكب حتى تم القضاء على مساحة حرية الحركة والاختيار معًا.

نعبر الجسر أم نحرقه؟

لكن من يتأمل واقع السياسة العربية يجد أن السؤال المطروح في أكثر من موضع من الخارطة العربية هو سؤال يمس مقومات الوجود، تجد ذلك في السودان المهدد بالتمزق، والعراق المهدد بأخطار متنوعة، والصومال الذي يقف على حافة الزوال بشرًا بعد أن زال دولة.

([41]) نشر في **28/ 5/ 2002**.

ويعبر أحد العلماء السياسة الأمريكيين عن مضمون السياسة بعبارة موجزة يقول فيها "**السياسة أن تعرف أي الجسور تعبر وأيها تحرق**"، وما من أمة – مهما بلغت من قوة – تستطيع أن تحقق كل مصالحها.

فكل أمة، تكاد أن تكون دائمًا، أمام اختيار بين ما يمكن إرجاؤه إذا زادت كلفته عن حد معين، وما يجب إنفاذه أيا كانت نتائجه. وما تشهده الساحة السياسية العربية منذ انعقاد مؤتمر مدريد (1992) يستحق التأمل، من هذه الزاوية، فمنذ أن بدأ السادات مسير التسوية المنفردة مع الكيان الصهيوني والنظام الرسمي العربي يرفض هذا الخيار، والآن بعد أكثر من عشرين عامًا تبنت القمة العربية مشروعا عربيًا للتسوية.

وبعد أن كان قبول الرئيس المصري جمال عبد الناصر "**مبادرة روجرز**" سببًا في اتهامه بالخيانة من أطراف عربية في مقدمتها منظمة التحرير الفلسطينية أصبحت المنظمة نفسها تسابق الأطراف العربية الأخرى في تقديم التنازلات تلو التنازلات في مسيرة لم تنقطع منذ توقيع "**اتفاقية أوسلو**". وليس الغرض من مثل هذا السرد التاريخي أي نوع مما يسمى "**إعادة الاعتبار للسادات**" فالتسوية جسر عبره العرب جميعًا، وهم على قناعة تامة بأنه أجدر بأن يحرق!

وهذا مربط الفرس.

أزمة التوازن المختل

فتوقيع اتفاق تسوية بين أي طرف عربي وبين الكيان الصهيوني ترجمة لتوازن قوى شامل بين الطرفين (عسكري – اقتصادي – سياسي – تقني)، ولحظة التوقيع ليست إلا اعترافًا بهذا التوازن الذي صنعته سياسات وممارسات واختيارات عبرنا فيها جسورًا كان يجب أن نحرقها، وأحرقنا أخرى كنا في أمس الحاجة إلى أن نعبرها، فنحن نجزع لمرارة

"**الثمرة الخطأ**"، لكننا لا ننزعج – أو لا ننزعج بالقدر الكافي – ونحن نرى شجرتها تنمو وتستطيل ويشتد عودها.

ومن مقتضيات الإنصاف أن نقرر أن الاختبار الذي وضع فيه النظام الرسمي العربي بقيام الكيان الصهيوني، كان اختبارًا يبلغ درجة من الضخامة والتركيب لم يدركها في البداية كثيرون. وأن الأزمة في بدايتها لم تنجم عن اختلال في درجة التشدد أو الاعتدال في القرار السياسي بقدر ما كانت نتيجة عجز عن الوعي الذي يتصف بالإحاطة والشمول بالمشروع وتداعياته. كما أنه كان اختبارًا قاسيًا لمجتمعات ذات تنظيم أقرب إلى البدائية وجدت نفسها فجأة أمام الآلة العسكرية الغربية ترتدي "**قفازًا يهوديًا**".

كما أن درجة مركزية المشروع الصهيوني في الوجدان والعقل الغربيين كانت تتكشف لنا نحن العرب – صانعي قرار ومثقفين على السواء – بالتدريج، ويكفي أن نذكر، على سبيل المثال، أن شخصًا مثل المصلح الإسلامي الكبير الشيخ رشيد رضا، وهو من هو تدينًا ووطنية، اتصل، في مرحلة مبكرة جدًا من المشروع الصهيوني، بقيادات صهيونية ودعاهم إلى نبذ فكرة "**الدولة الصهيونية**" والعيش في فلسطين مع سكانها العرب.

من يواجه من؟

وعلى المستوى الدولي، كان تضمين وعد بلفور ميثاق "**عصبة الأمم**" يعني إقرارًا من "**المجتمع الدولي**" بحق الصهاينة في إقامة وطن قومي في فلسطين، وهو أمر لم نتوقف عنده إلا مؤخرًا وهو أمر ورثته الأمم المتحدة. ويكفي أن نشير إلى بعد واحد من أبعاد التحدي الذي مثله وجود الكيان الصهيوني، هو أن هذا الكيان الصغير مساحة وسكانًا – الحقير – حسب تعبير أفلت من دبلوماسي فرنسي وأشعل معركة كلامية متوقعة، هذا

الكيان تبلغ قيمة ما تلقاه من الدول الغربية من "**المساعدات المعروفة**" – والإحصاء يشمل المساعدات الرسمية التي قدمتها الدول وحسب – 450 مليار دولار.

فإذا أضفنا إلى ذلك مساعدات أخرى منظورة، وغير منظورة وثالثة تختلف نوعيًا، أدركنا إلى أي حد كان النظام الرسمي العربي في مواجهة الغرب الذي كان قد خرج لتوه مزهوًا من الحرب العالمية الثانية.

فهل كان إدراكنا للصراع على هذا النحو من البداية ؟

والمشكلة أننا عندما أدركنا الصراع على نحو أشمل كانت فرص كثيرة قد ضاعت، وأوضاع كثيرة قد استقرت، وقضايا كثيرة قد تداخلت، حتى أصبح من الصعب الفصل بين مسار الصراع وبين ما يحدث في عواصم عربية عديدة. ولم تقتصر صلة هذه العواصم بالشأن الفلسطيني على قدرتها على التأثير في القرار الفلسطيني، بل امتدت لتشمل انتقال أمراض سياسية منها للمؤسسات الفلسطينية، أو على الأقل حال وجودها في هذه العواصم دون أن تمنع ظهورها في السلطة الوطنية التي نشأت برعاية عربية وكانت امتدادًا لكيان آخر نشأ ونما عربيًا.

نظرية "الفساد البناء"

فهل كان وجود الفساد في الواقع العربي مبررًا للتساهل مع فساد السلطة؟ وربما يكون ضروريًا أن نتساءل الآن: لماذا لم تربط أية عاصمة عربية علاقتها بعرفات ودعمها إياه بموضوع "**الشفافية**" داخل المنظمة أولا ثم السلطة الوطنية؟ وربما كان من المضحكات المبكيات أن أحد المثقفين المصريين المرموقين كان يرى أن فساد السلطة الفلسطينية "**فساد بناء**"!.

فلم يكن الفساد الذي يتحدث الكيان الصهيوني عن استشرائه في السلطة مفاجأة لأحد، ويعلم ذلك كل من له أدنى دراية بالأوضاع داخل الأرض المحتلة، بل كان منذ سنوات موضوع تقارير صحفية ورسمية عديدة تداولتها أجهزة الإعلام العربية وغير العربية .

والمفارقة فيما يحدث أن الفساد "**مشكلة عربية**" بجدارة، صحيح أنه يتفاوت من مكان لآخر لكنه منتشر بشكل كبير نسبيًا، وكثير من المتعاطفين مع القضية الفلسطينية كانوا يرون أن وجوده في المجتمعات العربية مشكلة أما وجوده في صفوف حركة تحرر وطني فهو كارثة. وعندما حوصر عرفات في مقره في رام الله كان كثير من المثقفين العرب يرون أنهم "**مضطرون**" للتضامن معه، بعضهم لم ينس خطيئة أوسلو، وبعضهم لم يتجاهل فساد السلطة الوطنية، لكنهم كانوا مضطرين للتضامن معه باعتبار أنهم بين خيارين أحلاهما مر:

فهل أصبح الاختيار بين المر والأكثر مرارة سمة بنيوية من سمات السياسة العربية ؟

ترانسفير عصر العولمة ([42])

أعلن عضو الكنيست، بيني إيلون، رئيس حزب "**موليدت**" مشروعًا لتهجير الفلسطينيين، وكان "**موليدت**" قد اشترط في الاتصالات الجارية لخوض المعركة الانتخابية القادمة ضمن جبهة، رفع راية "**الترانسفير**". وفي الكنيست عرض خطة، في سابقة هي الأولى من نوعها، تعكس جانبا مهمًا من التطورات التي طرأت على العقل الصهيوني في عصر العولمة.

إيلون قال إن علينا حل قضية اللاجئين في المناطق الفلسطينية عن طريق تهجيرهم "**بمحض إرادتهم**" إلى الدول العربية وتوطينهم هناك. وأضاف أن قضية اللاجئين ستجد حلًا لها عندما نفرغ من عملية تهجير الفلسطينيين من الأرض التي احتلت عام 1948:"**أنا لا اقترح طرد أو تهجير مواطني الدولة العرب ، بإمكاني عرض ذلك عليهم**...**أنا في مشكلة: منحتهم عام 1948 مواطنة وعلي احترام ذلك**"؟ وتقاطعت خيوط خطة إيلون مع شعار آفي إيتام "**أرسلوهم إلى سيناء**"، واحتلت الكلمة واجهة المشهد السياسي.

زمن التسويات الموجعة

([42]) **نشر في 5/ 9/ 2002**.

وفي حوار صحفي معه بسط إيلون فكرته فقال إن الحديث لا يدور عن شاحنات نقل محشوة بلاجئين مساكين مع أمتعتهم، "**الترانسفير الذي ننادي به هو عمليًا نقل سكان من مكان إلى آخر، وليس سكب دماء**". بهذه اللغة الصهيونية المراوغة التي استخدمها هرتزل قبلًا لجمع المتناقضات تحت عباءة المشروع الصهيوني يصف إيلون جريمة اقتلاع البشر من أرضهم، بل يصف هذا الحل بأنه "**الحل الإنساني الأمثل لمعاناة العرب**"، وما يتبقى هو العمل على إقناع الأمريكيين بالفكرة، وإقناع دولة أو دولتين أخريين في المنطقة!

ورغم ما تنطوي عليه مخططات التهجير من صفاقة فإنها تسليم لا شبهة فيه بأن الهدف فلسطين كلها، لا حدود 1948 ولا حدود 1967، وأن القوة وحدها غير قادرة على حل الصراع، فإيلون يقول عن أسلوب عمل الجيش الصهيوني في الضفة: "**إنك لن تقلع جذور (الإرهاب) بجمع السلاح من مخيم جنين، يجب قلع جذور الكراهية والتحريض**". أي أننا أمام محاولة لاقتلاع جذور الفلسطينيين أنفسهم، فسلام إيلون يتحقق حسب كلامه "**فقط في حالة تفكيك مخيم جنين ونقله إلى مكان آخر في الشرق الأوسط وباقي المخيمات في غزة على نسقه والمخيمات المتبقية في الضفة الغربية عندئذ سيحل السلام في هذه المنطقة**".

وتشير دعوة الهجير إلى جانب ذلك إلى حقيقة شديدة الأهمية هي أن الصراع العربي الصهيوني تتجاوز حدوده حدود فلسطين، وأن آثاره ستستمر في تجاوز حدود فلسطين، وليس من مصلحة العالم العربي أن يتعامل معها كما لو كانت قد اختصرت في صراع فلسطيني إسرائيلي، فهي تمس أمن واستقرار دول الجوار بشكل مباشر وبطبيعة الحال تمس أمن العالم العربي كله.

وتكرار طرح فكرة التهجير يعني أن الكيان الصهيوني مصر على تسوية شديدة الإجحاف يستولي فيها على ما تبقى من أرض فلسطين، بعد أن تحول الفلسطينيون في

خطاب الترانسفير من أصحاب حق إلى مساكين يشفق عليهم أعدى أعدائهم، ويحاولون إنقاذهم بتوفير "**ملاذ آمن**" لهم في دول الجوار العربية، التي لا يرق قلب صانع القرار في أي منها لمعاناتهم!

ورغم السخرية التي أعبر بها عن هذا الخطاب إلا أنها تعكس مضمونه بدرجة كبير من الدقة.

وبناء على ما تقدم تتحول التسوية الممكنة من تسوية عادلة إلى "**تسوية موجعة**"، فلما كان يجب علينا أن نعطيهم دولة فلتكن في الأردن، وبذلك تصبح التسوية موجعة للملك عبد الله!

وبتفاؤل شديد يتحدث إيلون عن ترانسفير يتم بإرادة حرة "**تشجيع الهجرة**". وبهذا الخطاب تنتقل الصهيونية من الإجبار والعنف إلى الإغواء الناعم شريطة ألا تتغير الأهداف. وحتى لا تترك الأمور للاستجابات الفردية، يقترح عقد اتفاق يتم بموجبه نقل اللاجئين وتسكينهم مجددًا في الدولة الفلسطينية /الأردنية.

أي أن "**الحديث هو عن اتفاق بين حكومات وليس بين أفراد**" يتم تنفيذه برعاية دولية، وهو يشبه ذلك بإخلاء المستوطنات. ومن يتأمل هذا الخطاب يجد فيه نفس ملامح ميلاد الكيان الصهيوني، وكأننا أمام بداية المرحلة الثانية بطموحاتها ومخاطرها.

مبادرة إيلون للسلام

ويبذل بيني إيلون في الوقت الحالي جهودًا لترويج فكرته من خلال لقاءات مع أعضاء في الكونغرس الأمريكي، وهو ما يجد صدى في الإدارة الأمريكية التي تبنت مطالب مشابهة. وفي سياق تطور أشكال الترانسفير يأتي إيلون مختلفًا عن سلفه رحبعام زئيفي، فإيلون يعرض فكرة الترانسفير بإضفائه مسحة إنسانية. فلأول وهلة سيكون بموافقة حرة.

وهو يكرر أنه لا يمكن اجتثاث قواعد "**الإرهاب**" إلا بمحو مخيم جنين عن بكرة أبيه، ومن ثم طرد السكان من هناك (أو مطالبتهم بالانصراف) إلى "**فندق من خمسة نجوم تقوم ببنائه الولايات المتحدة الأمريكية في الأردن**".

ويواجه إيلون معارضيه داخل الكيان الصهيوني متسائلًا: "**هل لنا أن نكون سذجا وندعي أننا اكتشفنا معضلة اللاجئين في أعقاب فشل مفاوضات كامب ديفيد؟ هنالك أربعة أجيال يحلمون بحق العودة**".

وفي متاهة المصطلحات الصهيونية المخادعة يتحول إيلون إلى "**سياسي أخلاقي**" يحاول إنقاذ الفلسطينيين من أنياب شارون وإيتام: "**أنا أقول نعم للدولة الفلسطينية، أقول نعم لدولتين في الضفتين، إنها تنازل موجع بالنسبة لي، لكنني إنسان واقعي**". إنها كوميديا سوداء بكل معنى الكلمة أن يكون "**الحل الإنساني المثالي**" أن يقبل الصهاينة – على مضض – قيام دولة فلسطينية في الأردن!

شارون يرفض التسوية والقضية تدخل مرحلة خلط الأوراق [43]

جاءت العملية الاستشهادية الأخيرة في قلب تل أبيب لتقطع صمتًا طويلًا نسبيًا، وتضع حدًا لمزاد تكهنات متعددة الأطراف أوحت للمراقبين بأن الفصائل الفلسطينية على وشك الاتفاق على وقف العمليات الاستشهادية أو على الأقل تقييدها.

وسواء كان التقييد الذي كان منتظرًا يقصد به وقف استهداف المدنيين أو وقف العمليات داخل ما يسمى بالخط الأخضر، فإنه كان يعني قطع الشوط الأكثر صعوبة اقترابًا من مائدة المفاوضات، ومما يكاد يكون موضع إجماع، أن ثمة رغبة حقيقية راسخة لدى الطرفين في تأجيل الحسم التفاوضي، رهانًا على الزمن أو انتظارًا لتغير درامي، وفي الوقت نفسه بسبب وصول العملية التفاوضية للملفات الأكثر صعوبة (اللاجئين — الحدود — الدولة الفلسطينية — إلخ).

وتحفل صحافة الكيان الصهيوني بتحليلات يقطع أصحابها بأن شارون مقتنع تمامًا بأن مائدة المفاوضات تعني تقديم تنازلات، أما الطرف الفلسطيني فلم يعد لديه ما يتنازل عنه، ورغم ذلك لا يحصل حتى على ما اتفق عليه في التسويات المجحفة السابقة. ولعملية تل أبيب سياق آخر لفت النظر إليه تحليل نشره موقع **إيلاف** الإخباري على شبكة الانترنت، وهو تحليل مثير جدًا مبني على معلومات تبدو صحيحة.

---

(43) نشر في **27 /9 / 2002**.

وتعني صحته أن القضية الفلسطينية قد تكون مقبلة على منحنى شديد الخطورة، ففي تفاصيل التطورات منذ عملية الحافلة الاستشهادية في قلب تل أبيب يطالب الجيش الإسرائيلي بعشرين فلسطينيًا موجودون الآن في مقر عرفات، وهم من صفوة أركان حربه، ومن بين المطلوب تسليمهم العميد توفيق الطيراوي مدير المخابرات العامة في الضفة الغربية والعقيد محمود ضمرة قائد **القوة 17** وهي **الحرس الرئاسي الفلسطيني الخاص**، وتتهمهما إسرائيل بتنفيذ عمليات قتل ضد مواطنيها.

والعميد الطيراوي معروف بأنه أحد المناهضين بشراسة لتولي مدربين أمنيين مصريين وأردنيين لقوات أمن فلسطينية، وهي مهمة كان مقررًا لها أن تبدأ منذ أيام، حسب اتفاق إسرائيلي ومصري أردني برعاية اميركية وسعودية، ويبدو أن عملية الحافلة في تل أبيب جاءت هذه المرة ليس انتقامًا من إسرائيل فحسب، بل ضد قرار دخول مدربين مصريين وأردنيين إلى الضفة الغربية وغزة للشروع بتدريب قوات الأمن الفلسطينية، استنادًا إلى تفاهم مسبق أقرته اللجنة الرباعية في اجتماعها في شهر يوليو الماضي في واشنطن.

وقد أرسل الأردن ومصر عددًا من المدربين الأمنيين بالفعل للإسهام في تدريب قوات الأمن الفلسطينية. ولا ينفرد الطيراوي – حسب التحليل المشار إليه – برفض الوجود الأردني المصري، لكن أطرافًا أخرى من بينها حركتا حماس والجهاد الإسلامي تعارضان أي وجود مصري أو أردني، ومعارضة الحركتين لقي رد فعل إيجابيًا من مسئولين أمنيين فلسطينيين استبعدتهم القرارات في المشاركة بتدريب الفلسطينيين.

وقاد هذا الاتجاه كل من توفيق الطيراوي مدير مخابرات الضفة ومحمود ضمرة قائد القوة 17 وهي حرس الرئيس، وتعتقد المصادر الإسرائيلية أن عرفات يؤيد القائدين الفلسطينيين في مواقفهما، حيث يخشى عرفات من عودة السلطة الأردنية إلى الضفة الغربية، وعودة مصر إلى غزة "**وهي أمور ستبقيه في العراء السياسي من دون قرار**".

وانتهى ما أورده الكاتب نصر المجالي في **إيلاف** ولكن دلالاته لم تنته، فإذا أخضعنا المشهد السياسي لمستوى أعمق من التحليل، وجدنا أننا أمام مشهد مثير بالفعل مليء بالمفارقات. فالطرفان المتصارعان بشكل فعلي على أرض فلسطين المحتلة يتفقان في هذه المرحلة على أن الأفضل إطلاق "**رصاصة الرحمة**" على مسيرة التسوية، فالصهاينة لم يحصلوا على الأمن والفلسطينيون لم يحصلوا على الحرية وهما مطلبان لا يمكن التخلي عنهما، وبالتالي فإن أطرافا أخرى صارت أكثر حرصًا على الوصول لتسوية حتى لا تتحول المشكلة المزمنة لكرة ثلج تتدحرج لتصبح مشكلة إقليمية متعددة الأطراف أو أزمة دولية في العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي.

كما أن من قبلوا اتفاقات عديدة فلسطينية صهيونية شديدة الإجحاف رافعين شعارات من نوع: "**استقلال القرار الفلسطيني**" و"**نقبل ما يقبله الفلسطينيون**"، يتحولون الآن ليفرضوا على الفلسطينيين ترتيبات أمنية ستؤدي حتمًا إلى تغييرات سياسية جذرية، وعندما تتحول العلاقة بين السلطة الفلسطينية وأطراف فاعلة في النظام الرسمي العربي من علاقة تحالف "**كتفًا بكتف**" إلى علاقة "**تدافع بالمناكب**"، فإن هذا يعد مؤشرًا لتحولات مهمة تصب في خانة مشروع عقد مؤتمر للتسوية دون حضور فلسطيني!!

كما أنه متغير يضعف مصداقية الخطاب الرسمي العربي عن ضرورة التعامل مع عرفات بوصفه "**رئيسًا منتخبًا**". ويظل احتمال أن يكون بعض رجال السلطة الفلسطينية قد استخدم العمليات الاستشهادية "**كسارة جليد**" سياسية مثيرًا جدًا، وهو عمليًا أوقف مسيرة كانت ستبدأ بعد قليل بإعادة هيكلة الأجهزة الأمنية لتنتهي معها حقبة بكاملها من تاريخ القضية الفلسطينية لتبدأ حقبة أخرى لها مخاطرها الشديدة.

فالدولتان المنوط بهما تدريب الأجهزة الأمنية من أكثر الدول العربية نشاطا وخبرة في "**مكافحة الأصولية الإسلامية**"، والفصيلان الأكبر حجمًا والأكثر تأثيرًا في المقاومة

المسلحة فصيلان إسلاميان، وإذا لم ندرك مبكرًا خطر اختلاط الملفات بين الداخل والخارج ونتدارك الخطأ فستكون العاقبة مريرة فلسطينيًا وعربيًا.

لغة "معسكرات الاعتقال" ([44])

تعاملت وسائل الإعلام العربية باهتمام شديد مع تصريح مثير أطلقه قبل أيام سفير بريطانيا لدى الكيان الصهيوني شررد كوفر، فخلال اجتماعه بعاموس جلعاد منسق عمليات الجيش الصهيوني في الضفة الغربية، وصف السفير البريطاني الضفة الغربية بأنها: "**أكبر معسكر اعتقال في العالم**".

وكان لتصريحه صدى رسمي إذ أثار غضب وزارة خارجية الكيان الصهيوني التي قالت على لسان مصدر رفيع المستوى: "**لقد نسي السفير أن عهد الانتداب البريطاني ولى**"!

وفي الحقيقة فإن التصريح يمكن أن يقرأ في سياقات عدة. فهو على المستوى المباشر لمعناه ومدلوله كتصريح رسمي هو، أولًا شهادة مهمة تدخل في باب "**وشهد شاهد من أهلها**"، كما أنه انتقاد حاد من دولة تربطها بالكيان الصهيوني علاقات خاصة عمرها عدة عقود، ومن ثم فاهتمام الإعلام به طبيعي. غير ثمة سياقات أخرى أكثر تركيبًا وعمقًا نود أن نتوقف معها.

التنابز بالأفعال

([44]) نشر في **3/ 12/ 2002**.

أول ما يلفت النظر في التصريح استخدامه تعبير "**معسكرات الاعتقال**" لتشبيه وضع الفلسطينيين في الضفة الغربية، وهو تعبير تفوح منه روائح عنصرية – وبالتحديد نازية – تحمل ضمنًا اتهامًا للصهاينة بأنهم يرتكبون بحق الفلسطينيين جريمة مشابهة للجريمة التي ارتكبها النازي بحقهم، وهي لغة تستخدم للمرة الأولى علنا بين الحليفين. ويوحي رد الخارجية الإسرائيلية بأن التعبير نكأ جرحًا جعل مسئوليها يردون الصفعة بمثلها فذكروا السفير البريطاني بأنه سفير "**أسد عجوز**" يعد لم زئيره يخيف أحدًا.

والإحالة على عهد الانتداب البريطاني يحمل المدلول نفسه الذي يحمله استخدام تعبير "**معسكرات الاعتقال**"، فالانتداب والمعسكرات كلاهما مفردات معجم واحد وعصر واحد.

ومن ناحية التوقيت يأتي التصريح بعد قليل من حديث رئيس الوزراء البريطاني توني بلير عن ضرورة تطبيق الكيان الصهيوني قرارات الأمم المتحدة، وقد استشعرت القيادة الصهيونية ما يحمله التصريح البريطاني من مخاطر فانتقدته في حينها، بل حاولت الحصول على تصريح رسمي أمريكي مناقض لتصريح بلير، وهو المسعى الذي لم يكلل بالنجاح.

لكن تصريحات بلير وسفيره لا تعني تحولًا إيجابيًا في الموقف البريطاني الرسمي من الصراع العربي الصهيوني، فهدفهما الأول التغطية على مشروعات سياسية خطيرة في سياق الملف العراقي يراد تمريرها بإطلاق مثل هذه التصريحات كقنابل دخان تحجب المشهد الحقيقي وينشغل بها المحللون والإعلاميون ويجهدون أذهانهم في بناء تصورات إيجابية عليها.

الكفاءة لا القيم

من ناحية أخرى يحمل التصريحان معا دلالة أن بريطانيا ترى حكومة الكيان الصهيوني تستحق التوبيخ ، لا لأنها لا تطبق قرارات الأمم المتحدة أو ترفض الانصياع لـ

"**الشرعية الدولية**"، ولا لأنها حولت الضفة الغربية إلى أكبر معسكر اعتقال في العالم ، بل لأنها لا تستطيع تحقيق كل أهدافها دون ارتكاب مثل هذا الأخطاء الفجة.

وثمة اتجاه عام تعكسه مواقف رسمية غربية عديدة مدلولها أن الدولة الصهيونية أصبحت تدير عملية قمع الشعب الفلسطيني "**بكفاءة متدنية**"، وتركن للإفراط في استخدام القوة وترتكب أخطاء فادحة مصدرها الأساسي هذه الكفاءة المتدنية. وبالتالي فأن الحل ليس في بعض العدل بل في مزيد من الكفاءة حتى لا يغضب المتبوع على التابع!

لماذا لا نوثق سير الشهداء؟ ([45])

اتخذت الضجة التي أثارها مسلسل "**فارس بلا جواد**" منحى مختلفًا، بعد أن كانت في المقام الأول معركة حول الحفاظ على السيادة الوطنية ضد محاولات التدخل الأمريكي والصهيوني. وقد تبدد قدر كبير من التعاطف مع مُحَمَّد صبحي بعد أن اتضح إلى أي حد تختلف السيرة لحقيقية لبطل المسلسل "**حافظ نجيب**" عن صورته في المسلسل.

ولما كنت أول من أعاد نشر سيرته الذاتية التي كتبها بنفسه فقد كانت مشاركتي في النقاش الذي دار حول المسلسل تسليط الضوء على السيرة الذاتية للبطل. (نشر مؤلف الدراما الكاتب المصري المعروف الأستاذ محفوظ عبد الرحمن مقالًا من حلقات ثلاث على صفحات "**البيان**" بين 8 مارس و22 مارس 1998، وكان عنوانها "**حافظ نجيب الذي لا يعرفه أحد**").

من دروس المعركة

ومنذ أيام أصبحت قضايا مثل: المواءمة التاريخية، واستخدام بروتوكولات حكماء صهيون، وتحويل سيرة مغامر محتال لبطل قومي، محور النقاش على نحو جعل الكثيرين يوجهون انتقادات حادة للمسلسل ما بين مؤرخين ونقاد ومفكرين.

([45]) نشر في **6/ 12/ 2002**.

وعلى شاشة قناة النيل الثقافية الفضائية المصرية دعيت للمشاركة في حوار حول المسلسل كشف بدوره عن جوانب أخرى من الخلاف حول المسلسل وما أحاط به من ضجيج، لعل أبرزها موقف المنظمة المصرية لحقوق الإنسان التي أصدرت بيانًا تفاوتت ردود الأفعال إزاءه، إذ أدان اعتماد المسلسل على **بروتوكولات حكماء صهيون**، وقد بررت المنظمة موقفها بمبررات سياسية ومعرفية معًا.

وقد باغتني الإعلامي المعروف جمال الشاعر بسؤال في نهاية الحلقة عن ما ينصح به المثقفون أمثالي لنستفيد من التجربة فلا تتكرر أخطاؤها، وما طرحته ردًا على السؤال، كان مبدئيًا لم يتبلور غير أنه يمكن أن يكون نواة عمل شديد التأثير في مثل هذه التجارب، إن تكررت.

فطالما أن قضية الصدق والاتساق مع الحقائق التاريخية أصبحت المطعن الأكبر على "**فارس بلا جواد**" فإنها تفرض علينا القيام بجهد لتوثيق سير الشهداء الذين خدموا القضية الفلسطينية وضحوا بحياته في سبيلها، ولعل هذا يشكل استجابة طبيعية لما ورد في كثير من التعليقات الناقدة للمسلسل التي رأى أصحابها أن إنتاج مسلسل عن حياة الشهيد عبد المنعم رياض مثلًا كان أكثر توفيقًا.

شهداء مجهولون

وإذا كان علماء فلسفة التاريخ يرون أن التأريخ للشعوب أكثر تعبيرًا عن الصورة الحقيقية لحياة الأمم من التأريخ للحكام، فإن هذا يصدق بدرجة كبيرة على القضية الفلسطينية التي ضحى لأجلها كثيرون وسطروا بلا مبالغة ملاحم تثير خيال أي مبدع. وقد ذكرني هذا بكتاب مصور اطلعت عليه منذ سنوات يؤرخ للنكبة والمقاومة بالصور، وورد فيه أن متطوعين من مسلمي البلقان حاربوا على أرض فلسطين جنب إلى جنب مع إخوانهم الفلسطينيين.

وهي معلومات يمكن أن يؤدي التنقيب وراءها إلى رسم صورة مختلفة للأدوار التي قامت بها أمم كنا نعتقد أنها لم تشارك في المواجهة، وفي الوقت نفسه فإن المكانة السامية لمرتبة الشهيد توجب على أمته أن تبذل ما تستطيع لتخليد عطائه، وهناك شهداء سجلت سيرتهم الذاتية بقدر كبير من الاستفاضة، بينما كالشهيد عز الدين القسام والشهيد عبد المنعم رياض وغيرهم كثيرون.

غير أن شهداء آخرين كثيرين يمكن أن نطلق عليهم "**شهداء منسيون**"، كالشهيد المصري العظيم مصطفى حافظ أحد الآباء الشرعيين لحركة المقاومة الفلسطينية المنظمة في قطاع غزة، والشهيد الليبي العظيم صالح مسعود أبو يصير أحد أهم أنصار الحق الفلسطيني الذي استشهد في الطائرة المدنية المصرية التي أسقطها العدو الصهيوني وعرفت باسم المذيعة المصرية سلوى حجازي التي كانت ضمن ركابها.

فإذا تبنت إحدى المؤسسات الرسمية أو اللجان الشعبية في العالم العربي مشروعًا لتوثيق ما يمكنها من سير الشهداء لتتكون منها قاعدة بيانات تخدم كتاب الدراما والروائيين والمؤرخين على السواء فسيكون هذا أرضية صلبة لتأسيس أعمال متنوعة يمكن إبداعها اعتمادًا على هذه الذخيرة.

وطالما أن معركة " **فارس بلا جواد**" قد عززت قيمة الحقيقة والصدق التاريخي فإن الأعمال المرئية التوثيقية والتسجيلية تحتاج من يرد لها الاعتبار في توقيت بالغ الحساسية في مسار الصراع العربي الصهيوني.

تآكلت المعارضة الغربية للعدوان على العراق؟ ([46])

شأن كل الأزمات الكبيرة أصبحت الأزمة العراقية موضوعا للمئات من استطلاعات الرأي شرقًا وغربًا أغرقت كل متابع لوسائل الإعلام في طوفان من الأرقام والإحصاءات ينفي بعضها بعضًا. ورغم أهمية مثل هذه الوسائل لاستطلاع الرأي، فإنها تظل مجرد مؤشرات، بالضبط مثلها مثل صيحات الاعتراض الرسمية التي صدرت عن بعض العواصم شرقًا وغربًا ثم بدأت في التآكل.

وباستثناء الموقف الألماني الذي يرفض – حتى الآن – الاشتراك في عمل عسكري ضد العراق ، لا تكاد توجد عاصمة دولة كبرى تقف ضد المشروع العسكري الأميركي البريطاني الذي يستهدف العراق.

انتظارًا للفيتو!

ويكاد المشهد الدولي الآن يشبه المشهد الذي سبق "**عاصفة الصحراء**"، فالرهان العراقي على شق الصف الغربي ظل قائما حتى بدأ القصف، والعواصم التي توقع العراق أن ترفع راية العصيان ضد الولايات المتحدة تكاد تكون هي نفسها التي ظل ينتظر منها استخدام حق النقض "**الفيتو**" في مجلس الأمن ضد القرار 1441.

([46]) **نشر في 12 /12 /2002.**

وللأسف الشديد لم يدرك صانع القرار العراقي أن الملف العراقي أصبح أداة للتربح السياسي في العلاقات الدولية، فلا فرنسا ولا الصين ولا روسيا كانت جادة في استخدام حق النقض لخوض معركة لمنع "**عاصفة الصحراء**"، ولا لرفع الحصار عن العراق، رغم استمراره لأكثر من عشرة أعوام فلم يتآكل الحصار، ولم يكتب الفيتو المنتظر نهايته، مع أن كلًا من هذه الدول ساوم الطرفين (العراق وأميركا) ثم أدار ظهره للعراق!

وخلال الشهور القليلة الماضية التي شهدت أقصى درجات التصعيد في الملف العراقي حفلت الصحافة العربية بتحليلات تؤكد أن حلفاء الولايات المتحدة الأميركية أنفسهم لن يمنحوها تفويضًا للعدوان على العراق، وكانت هذه التحليلات ترى الموقف الفرنسي دليلًا قاطعًا على ذلك، إضافة إلى الموقف الروسي طبعًا، ورغم أن ما أدخل على الصيغة الأمريكية للقرار جعل شن الحرب متوقفًا على مجلس الأمن إلا أن الأسابيع القليلة الماضية شهدت تحولات شديدة الأهمية تؤكد أن حالة الاعتراض التي بدت واضحة تتجه إلى التآكل، وأن الصيغة التي صدر بها القرار لم تمنح العراق شيئًا، بل منحت المتاجرين بالملف العراقي فرصة مساومة الولايات المتحدة مرتين!

ففي فرنسا بدأت اتجاهات الرأي العام تتغير بشكل ملحوظ، ومن يتابع الإعلام الفرنسي خلال الأشهر القليلة الماضية يتأكد من أن فرنسا ماضية في استراتيجية قبول التخلص من النظام العراقي، فالبرامج السياسية المتلفزة والمناظرات الإذاعية والمقالات الصحافية كلها تسير في اتجاه واحد، وهو أنه لا خيار للنظام العراقي سوى تدمير سلاحه والتحول الديموقراطي الحقيقي، أو إسقاطه بقوة الفعل الداخلي أو الخارجي، وطالما كان التحول الديموقراطي المطلوب مستحيلًا دون تغيير رأس النظام فلا مجال سوى العمل على إسقاطه. وبناء عليه كثرت البرامج والمناظرات والمقالات حول ما بعد صدام.

تحول مزدوج

وهذا التحول لم يقتصر على مطبوعات **ليبراسيون** و**الموند** و**النوفيل أوبزرفاتور** بل تعداها إلى **الفيغارو** التي تعبر عن سياسات اليمين الديغولي الحاكم، ثم الصحيفة الاقتصادية الأولى **ليزيكو** المعبرة عن مجموعات الضغط الاقتصادية، وأخيرًا تبنت المراكز الاستراتيجية مثل: "**المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية**"، و"**معهد البحوث الدولية والاستراتيجية**"، و"**مؤسسة الدفاع الوطني**" هذا الموقف، وبدأت تخصص الندوات عن حتمية الحرب.

وفي إطار هذه الموجة الجديدة عقدت مؤسسة البحث الاستراتيجي ندوة في النصف الثاني من نوفمبر الماضي حول العراق وكانت النغمة السائدة على لسان المشاركين، وكثير منهم خبراء متخصصون في الشأن العراقي وبعضهم شارك سابقًا في فرق التفتيش، أن نظام بغداد أعاد إنتاج أسلحة دمار شامل وأنه يخفيها بجدارة وهم يحتاجون إلى حسين كامل جديد حتى يكشف عنها!

أما "**المركز الوطني للبحوث العلمية الفرنسية**" المعروف بموضوعيته فقد دعا إلى ندوة في ديسمبر الجاري لبحث حالة المجتمع العراقي بعد صدام. وعلى المستوى الواقعي تشير دلائل كثيرة إلى أن فرنسا بدأت تفتح قنوات اتصال فعليًا مع المعارضة العراقية، فوافقت على استقبال غالبية فصائل المعارضة في الجمعية الوطنية الفرنسية في التاسع والعشرين من نوفمبر الماضي في مؤتمر بعنوان: "**أي مستقبل ينتظر أكراد العراق؟**".

ورغم تحركات الاحزاب والجمعيات والنقابات الفرنسية ضد الحرب، فإن شيراك ما زال غير متفق مع توجهات المستشار الألماني شرودر، وهو يقترب بالتدريج من الموقف الأميركي البريطاني، وهو ما يعكسه بوضوح تصريح شيراك الذي قال إن فرنسا ستشترك في الحرب الأمريكية على العراق اذا كانت في إطار الشرعية الدولية.

ولا تقتصر التحولات على الموقف الفرنسي فقد نشرت مؤخرا (**الأهرام القاهرية 7 /12/ 2002**) معلومات تشير إلى صفقة سرية عقدتها الولايات المتحدة وروسيا بشأن الملف العراقي.

وحسب المنشور فإن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين دعا نظيره الأميركي الذي كان يزور العاصمة التشيكية براج إلى القدوم إلى بطرسبورج الروسية لإجراء مباحثات بلا أوراق، وفي المباحثات عرض بوش أن تتخلى روسيا عن النظام العراقي أو على الأقل تتوقف عن دعمها "**الدائم**" له مقابل مكاسب اقتصادية وسياسية منها توفير دعم أمريكي لعضوية روسيا في منظمة التجارة العالمية، وبحث الديون التي ورثتها عن الاتحاد السوفييتي، والديون العراقية لروسيا.

وجاءت أول النتائج الملموسة لهذه الصفقة المحتملة في تصريحات بوتين في مؤتمر صحفي مشترك ناشد فيها بوش الصبر على العراق مع التشديد على ضرورة انصياع العراق، انصياعًا تامًا لقرارات مجلس الأمن، وإلا "**فسيتعرض لأوخم العواقب**"!

وهي معلومات لو صحت لكانت ختامًا مأساويًا لهذا الفصل من الأزمة العراقية.

لغز ديك تشيني! ([47])

يبدو أن نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني يكاد يصبح لغزًا!

ففي النظام السياسي الأمريكي القائم على دعائم مؤسساتية راسخة يصبح البعد الشخصي محدودًا، وعندما يكون الشخص الذي يتمحور حوله اهتمام غير طبيعي ليس الرئيس يصبح الأمر مدعاة للدهشة والتساؤل في بلد ديمقراطي نظامه رئاسي.

ويشيع في الكثير من التحليلات السياسية التي تتناول بنية الإدارة الأمريكية الحالية وصف تشيني بأنه "**الرجل القوي**"، وهو – مرة أخرى – أمر غير مألوف في السياسة الأمريكية. ويقترن اسم تشيني بالمواقف الأكثر تشددًا في السياسة الخارجية الأمريكية، بل أحيانًا يبدو كما لو كان "**قبضة حديدية**" تختفي وراء "**قفاز**" اسمه جورج بوش. ولا يكفي لحل ما يبدو أنه لغز كون تشيني أحد المحسوبين على الجناح المتشدد في هذه الإدارة "**الصقور**"، فهناك أيضًا في هذا الجناح كوندوليزا رايس وولفيتز وآخرين؟

وخلال أحداث الحادي عشر من سبتمبر كان من الطبيعي أن تتخذ إجراءات أمنية خاصة لحماية حياة كبار المسئولين في الإدارة الأمريكية، وقد أعلن – آنذاك – عن نقل عدد منهم إلى "**مكان آمن**". لكن الشهور القليلة التي تلت الأحداث تكرر فيها نقل ديك تشيني وحده إلى "**مكان آمن**" بشكل يدعو للتساؤل عما إذا كان هناك درجة من الاستهداف موجهة له بشكل يفوق الرئيس الأمريكي نفسه؟

([47]) **نشر في 24/ 12/ 2002.**

ثم توالت مبررات الدهشة.

واكتسب التساؤل مزيدًا من المشروعية عندما نشرت، قبل أيام، أنباء عن أشياء تحدث في مسكنه تثير – حسب وصف وسائل الإعلام الأمريكية – "**الكثير من التكهنات**".

ولم يكن أحد من سكان مرتفعات حي ماساشوسيتس افنيو الواقع شمال غرب العاصمة واشنطن يعلم طبيعة ما يحدث في مقر سكن جار لهم هو نائب الرئيس ديك تشيني. لكنهم تعبوا من دوي الأصوات المنبعثة من موقع "**المرصد البحري**". والمرصد الذي افتتح عام 1893، يضم العديد من المعدات البحرية القيمة التي تستخدم لقياس الوقت ولمهام فلكية. وقد خصص لإقامة نائب الرئيس منذ عام 1974.

والأصوات والاهتزازات المشار إليها تسببت في اهتزاز المنازل المجاورة لمنزل تشيني وزعزعة زجاج النوافذ بل خلع المرايا من الجدران. ويقول سكان الحي إن الأصوات الهائلة يتواصل صداها من ثلاث إلى خمس ثواني كل مرة، وأنها ظلت تتواصل يوميًا، منذ قرابة شهرين بين السابعة صباحا والحادية عشرة مساء.

ولم يحصل السكان حتى على أبسط المعلومات من المسؤولين الحكوميين حول طبيعة هذا المشروع السري للغاية الذي تصاعدت حدة التكهنات بشأنه. وما زاد الموقف إثارة أن المسؤولين الأمريكيين يرفضون الكشف عن طبيعة أعمال الحفر "**الحساسة والداعمة للأمن**" التي تجري بالمنزل.

وأبرز النظريات المطروحة أن العمل جار في بناء ملجأ سري لنائب الرئيس تشيني!

وقد اقتصرت استجابة الحكومة الفيدرالية لتساؤلات السكان على رسالة من ثلاث صفحات جاء فيها أن الدوي الهائل قد يتواصل لثمانية أشهر وأن القوات البحرية سعت للحد من الضجيج بالتقليل من مصادره، ولم تكشف الرسالة عن طبيعة المشروع "**نظرًا لطبيعته الحساسة الداعمة للأمن القومي وللدفاع الداخلي**"، ولذا "**فإن معلومات**

المشروع الدقيقة تعد سرية ولا يمكن الكشف عنها". وأضافت الرسالة: "**إننا محاطون بشدة بالضروريات اللازمة لتنفيذ المشروع ضمن برنامج عمل حثيث للغاية، الأمر الذي يجعل من الصعوبة علينا حصر أعمال الإنشاء على ساعات النهار فقط**".

وتمشيًا مع المزاج الأمريكي العام المحب للسخرية تحول الأمر كله لموضوع للتندر وإطلاق النكات، فالسيدة ايز وارنر المقيمة في المنطقة تقول: "**كنت قد عدت للتو من ولاية كونيكتيكت، وعندما ذكرت ما يحدث هنا لأحد أقاربي قال لي**: "**إنه (أي تشيني) ربما يواصل الحفر بحثا عن النفط**" ؟!.

حرب التقارير المتشائمة ([48])

كان المستقبل أحد التحديات التي شغلت الإنسان من بدء التاريخ، ومع ازدياد قدرة الجنس البشري على التنبؤ باحتمالات المستقبل عبر دروس الماضي، أصبحت الدراسات المستقبلية تستحوذ على اهتمام كبير رغم أنها تظل علمًا وليدًا يختلط فيه التنبؤ العلمي و"**الكهانة**" ذات الديباجات العلمية!

وقد شهدت السنوات القليلة الماضية أكثر من معركة بسبب تقارير يحاول أصحابها التنبؤ بمستقبل العالم العربي، ولعل من أهم أمثلته التقرير الأمريكي عن المستقبل حتى 2015 الذي أخذ عليه كثيرون أنه متشائم أكثر مما ينبغي.

قوتهم وضعفنا أيضًا!

ومن نافل القول أن مثل هذه التقارير لا تصدر لمجرد الاستمتاع بترف الاستشراف أو إبداء الرأي، بل تستهدف التأثير المباشر على نحو محدد في عقل قارئها وحالته النفسية على السواء، وتلعب اللغة العلمية التي تبدو محايدة دورًا مهمًا إذ تضرب ستارًا من التعتيم على الهدف الحقيقي. وبعد قليل من صدمة "**تقرير التنمية الإنسانية العربي**" بأرقامه المحزنة واستنتاجاته المخيفة، ويبدو أن كل مكاشفة بحقائق الواقع العربي تنطوي على الخوف والحزن معًا.

([48]) **نشر في 26/ 8/ 2002**.

فالمشاركون فيه حاولوا وضع الأمور في نصابها، بعيدًا عن التزيد في تحميل الصراع العربي الصهيوني مسئولية حالة العالم العربي، صدمنا تقرير آخر. فقد أعلن في الكيان الصهيوني عن تقرير مهم تلقاه آرييل شارون من الجنرال عوزي دايان مستشار **مجلس الأمن القومي** في رئاسة وزراء الكيان الصهيوني قبل أن يغادر منصبه بقليل.

التقرير يستقرئ الأوضاع التي أدت إلي ضعف العالم العربي بصورة شديدة منذ أواخر التسعينات ويتوقع استمرار حالة الضعف إلى عام 2007 ويعتبرها فرصة حقيقية للكيان الصهيوني في التعامل مع محيطه العربي المعادي. ومربط الفرس في هذا التقرير، الذي يتضمن إحصاءات مهمة عن الاقتصاد العربي وأزمته. على مستوى التفسير أشار إلى حقيقة شديدة الأهمية هي أن مبعث هذا الوضع، لا يعود فقط إلى قوة الكيان الصهيوني العسكرية، بل يعود أيضًا إلى عمليات الضعف والتفكك التي تفشت في العالم العربي.

وأهمية هذا التفسير أنه يتصل موقف معلن للكيان الصهيوني من تقرير التنمية الإنسانية عندما أعلن للمرة الأولى، إذ أعلن أنه سيحتج لدى الأمم المتحدة على ما ورد في التقرير من تحميله المسئولية – جزئيا – عن الفشل التنموي العربي.

"صدقك وهو كذوب"

ويضع التقرير يده على مشكلة أخرى من أهم مشكلات عرب النصف الثاني من القرن العشرين هي اعتقادنا أن الأموال تكفي وحدها لتحقيق هدف "**شراء التقدم**"، وهو على عكس ما يشاع ليس مرضًا خليجيًا بل مرض عربي تتفاوت حدته من قطر لآخر فمنطق الهدر ساد العالم العربي حتى داهمت الأزمة الاقتصادية الأغنياء والفقراء على السواء. وفي سياق مناخ التشاؤم الذي يخيم على المنطقة العربية تذكرنا حرب التقارير الدائرة الآن بما نشر بعد نكسة يونيو في الصحافة الصهيونية من أن المخططات العسكرية

الصهيونية كانت تتعامل مع مصر باعتبار أن عدد سكانها خمسة ملايين نسمة وحسب هم المتعلمون!

وقد لخص موشيه دايان العامل الذي سيكون له الدور الأكبر في حسم الصراع حينما قال "**يوم أجد المصريين يقفون في طابور لركوب المواصلات العامة سأشعر بالقلق على المستقبل**"، وما قاله عن مصر يرجع إلى كونه أكبر دول المواجهة وأقواها. فمتى نبدأ مسيرة إعادة هيكلة المجتمعات العربية لدخول العصر وهي مسيرة طويلة، ولماذا يكتفي المسئولون العرب بشجب مثل هذه التقارير المتشائمة؟

ولماذا لا يردون ردًا عمليًا يشعر به كل مواطن عربي في حياته اليومية؟

حمى إعادة الاعتبار ([49])

من القصص الطريف في الفلكلور الشعبي الأوروبي أن مواطنًا يهوديًا ذهب إلى حاخام يهودي يشكو إليه ما يعانيه من ضيق منزله المزدحم بأسرته الكبيرة وبعض الدواجن والقطط فأمره أن يشتري بقرة، وذهل الرجل من أمر الحاخام ولم يجد مفرًا من الطاعة، وبعد قليل ذهب إليه يخبره أن الأزمة أصبحت كارثة فأمره أن يشتري حمارًا، وانصاع اليهودي لأمر الحاخام فأصبح البيت مرتعًا لكائنات كثيرة تتزاحم وتختلط أصواتها. وذهب اليهودي إلى الحاخام منهارًا فأمره أن يشتري كلبًا فانصاع لأمره، ثم انقطع عن التردد على المعبد خوفًا من أن يأمره الحاخام بشراء فيل!!

وبعد أيام أرسل الحاخام في طلبه وسأله عن مشكلة ضيق المنزل فأجابه بأنه اعتاد الأمر الواقع، فأمره الحاخام أن يتخلص من البقرة، وبعد أيام ذهب اليهودي وهو يبكي فرحًا لأنه تخلص منها وعاد إلى البيت شئ من هدوئه. وظل الحاخام كل فترة يأمره بالتخلص من حيوان اشتراه حتى عاد البيت إلى حالته الأولى، فشعر اليهودي أن منزله فسيح، وأن شكواه لم يكن لها ما يبررها!!

وتلخص هذه القصة أسلوبًا من أساليب العمل التي ورثتها مؤسسة الديبلوماسية الصهيونية، فلكي تجبر خصمها على قبول ما ترضى أن تعطيه تفرض عليه موازين قوى تدفعه إلى قبول الأمر الواقع بغض النظر عن عدالته أو منطقيته.

([49]) **نشر في 6/ 7/ 2002**.

تمهيد لا تصعيد

وقد كتبت مقالًا نشرته **"البيان"** في 24/ 5/ 2001 كان عنوانه: **"فلسطين المحتلة: تصعيد أم تمهيد؟"**، وكان المقال محاولة لتحليل ما كانت تشهده الأرض المحتلة من تصعيد شديد، ولا بأس من استعادة بعض ما ورد فيه بعد أن بدأت الأحداث تسير في اتجاه ما تنبأ به المقال. "**فهاجس (الأمن) الذي أتى بالسفاح شارون إلى كرسي رئيس الوزراء ... تحول خلال الفترة القليلة الماضية من حلم إلى كابوس. وتأكد أنصاره أن مزيدًا من العنف الصهيوني يعني مزيدًا من الضربات الموجعة في قلب (الكيان)**".

"**والنتائج السياسية بعيدة المدى لهذه التجربة قد تكون أكبر من الدلالات المباشرة للأحداث. وإذا كانت انتفاضة الأقصى التي ما زالت مستمرة حتى الآن قد أثرت في أمن الكيان الصهيوني تأثيرًا عميقًا، فإن لها وجوها أخرى يستفيد منها الكيان الصهيوني استفادة كبيرة**".

"**فهذا التصعيد ليس فقط نتيجة رد الفعل الفلسطيني على زيارة شارون للمسجد الأقصى، بل هو تمهيد نيراني يسبق المعركة الأكبر. فخلال مسيرة الصراع العربي الصهيوني لعب الكيان الصهيوني مع العرب لعبة (السقوف المنخفضة) ويقصد بها أن يعرض باستمرار مشروعات للتسوية السياسية يعلم مسبقًا أن العرب لا يمكن أن يقبلوها، ثم يستخدم رفض العرب في تقديم نفسه للعالم في صورة الراغب في السلام المحاصر ببحر من الأعداء الدمويين المتعطشين للحرب**".

"**وللصورة التي ترسمها كل دولة لنفسها دور مهم في السياسة الدولية. وفي هذه المرحلة من التسوية يرغب الكيان الصهيوني في الوصول إلى تسوية نهائية تتضمن أكثر**

الموضوعات خطرا (القدس، اللاجئون، الحدود النهائية..) وهي أهداف من الضخامة بحيث تحتاج إلى تمهيد نيراني مناسب".

"وما يثير القلق أننا نحن العرب لا نجيد تحويل العطاء الفلسطيني في المقاومة إلى رصيد لموقف سياسي يتصف الشمول والوضوح، بل ننظر إليه نظرة قاصرة، فما يحدث في أرض فلسطين المحتلة كان يمكن في مناخ عربي مختلف أن يكون انتفاضة لتحرير فلسطين غير أنه، أيًا كان حجم إنجازه المباشر وأيًا كانت التضحيات التي بذلت فيه، مصيره الإهدار بسبب غياب الرؤية الاستراتيجية. والعودة للمفاوضات كسقف سياسي عربي أصبح لأول مرة منذ عقود موضوع اتفاق رسمي لم يكن في حاجة إلى كل هؤلاء الشهداء والجرحى. وهذه التضحية العظيمة ليست قادرة، حتى لو صارت أضعافًا مضاعفة، أن تغير هذا السقف".

"إن ما يحدث في فلسطين المحتلة تصعيد في سياق الانتفاضة ومسارها، لكنه في مسار الصراع تمهيد سيكون له ما بعده. فعندما يتوقف الرصاص ويجلس الفرقاء إلى مائدة المفاوضات، وهو المطلب الرئيس في الخطاب الرسمي العربي والفلسطيني، سيكون الشعب الفلسطيني قد قطع شوطًا طويلًا منهكًا قدم فيه الكثير من أبناءه بين شهيد وجريح. وبالتالي سيكون من الصعب حينئذ نشوب انتفاضة أخرى، وهو أمر لن يحتاج الكيان الصهيوني إلى جهد كبير لإدراكه".

"أي أن المفاوض الفلسطيني سيكون أكثر إحساسًا بالضعف وهو ما تتمناه أطراف عديدة. وعندئذ سيكون هذا المفاوض الفلسطيني العاجز، لأسباب تتصل ببنية السلطة الفلسطينية ومنهج عملها، عن تحويل الدم الفلسطيني إلى رصيد تفاوضي. إنه تمهيد نيراني دموي لمعركة ستكون المفاوضات فيها مجرد بروتوكول للتوقيع، وما واجهه الفلسطينيون بصدور عارية قد يواجهه المفاوض الفلسطيني وظهره للحائط بعد أن

قدم الفلسطينيون تضحية قد تكون الأكبر في تاريخ الصراع العربي الصهيوني مقابل تسوية قد تكون أسوأ من كل ما رفضناه جميعًا".

هل حقق العدو ما يريد؟

قبل أيام أعلن ياسر عرفات قبوله مقترحات الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون التي رفضها في مفاوضات كامب ديفيد الثانية، وهي المفاوضات التي كان فشلها الذريع السبب الرئيس في اندلاع انتفاضة الأقصى، بينما كانت زيارة شارون الحرم القدسي سببها المباشر، وبلغة أكثر وضوحًا كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، أما ما وفر للغضب وقوده فهو "**الصدام التفاوضي**" الذي شهده منتجع كامب ديفيد.

وقد أشبع الخطاب الرسمي والإعلامي العربي مقترحات كلينتون تفنيدًا وصبت أقلام كثيرة غضب أصحابها على الرئيس الأمريكي المنحاز للكيان الصهيوني، لكننا وقبل أن ينقضي النصف الأول من ولاية خلفه نعلن – على لسان عرفات الذي يلح خطابنا الرسمي على أنه الرئيس المنتخب – قبول هذه المقترحات بعد أن انفتحت شهية الكيان الصهيوني والولايات المتحدة معًا لالتهام المزيد من حقوق الفلسطينيين.

وسواء كان عرفات جادًا أو غير جاد فيما أعلن ، فهو يواجه هجومًا رسميًا أمريكيًا كاسحًا يستهدف وجوده، فإن ما حدث ستكون له نتائجه، بل ربما وجد من يرى فيه موقفًا شجاعًا "**لإعادة الاعتبار**" للمقترحات أو بيل كلينتون، أو إعادة الاعتبار لها جميعًا!!

فمنذ أن قرر النظام الرسمي العربي وحمى إعادة الاعتبار تجتاح فئات كثيرة من النخب العربية، فقبول التسوية السلمية كان في نظر البعض مبررًا لإعادة الاعتبار للسادات، وأخشى إن استمرت متوالية إعادة الاعتبار أن نعيد الاعتبار للصهيونية وآبائها

المؤسسين، فالواقعية بدأت تتحول إلى "**وقوعية**"، ومصطلح إعادة الاعتبار كان خادعًا لدرجة أنه جعلنا قادرين على الاحتفاء بلحظات تراجعنا واعترافنا بالهزيمة.

خياراتنا بين المر والأكثر مرارة! ([50])

السياسة هي في حقيقتها مواءمة واختيار بين بدائل، وكل صانع قرار يكون أمام لحظة اختيار يوائم بين اعتبارات عديدة لا يكون من بينها عادة الحفاظ على مقومات الوجود، فكل ما يتصل به لا يكون موضع اختيار، أو لا يجوز أن يكون.

وما يختاره صانع القرار لا يكون نتيجة عوامل آنية وحسب، فهو مسئول قبل أن تحل لحظة الاختيار عن أن يوفر لأمته سلة من البدائل حتى لا تشعر في لحظة ما أن "**ظهرها للحائط**" كما يقول التعبير الشهير. وإذا أصبحت مقومات وجود الأمة موضع اختيار فإن معنى ذلك أن مسارًا طويلًا من الأخطاء المتوالية ارتكب حتى تم القضاء على مساحة حرية الحركة والاختيار معًا.

نعبر الجسر أم نحرقه؟

لكن من يتأمل واقع السياسة العربية يجد أن السؤال المطروح في أكثر من موضع من الخارطة العربية هو سؤال يمس مقومات الوجود، تجد ذلك في السودان المهدد بالتمزق، والعراق المهدد بأخطار متنوعة، والصومال الذي يقف على حافة الزوال بشرًا بعد أن زالت الدولة.

([50]) نشر في **28/ 5/ 2002**.

ويعبر أحد علماء السياسة الأمريكيين عن مضمون السياسة بعبارة موجزة يقول فيها "**السياسة أن تعرف أي الجسور تعبر وأيها تحرق**"، وما من أمة – مهما بلغت من قوة – تستطيع أن تحقق كل مصالحها. فكل أمة تكاد أن تكون دائمًا أمام اختيار بين ما يمكن إرجاؤه، إذا زادت كلفته عن حد معين، وما يجب إنفاذه أيا كانت نتائجه. وما تشهده الساحة السياسية العربية منذ انعقاد مؤتمر مدريد (1992) يستحق التأمل من هذه الزاوية.

فمنذ أن بدأ السادات مسيرة التسوية المنفردة مع الكيان الصهيوني والنظام الرسمي العربي يرفض هذا الخيار، والآن بعد أكثر من عشرين عامًا تبنت القمة العربية مشروعًا عربيًا للتسوية.

وبعد أن كان قبول الرئيس المصري جمال عبد الناصر "**مبادرة روجرز**" سببًا في اتهامه بالخيانة من أطراف عربية في مقدمتها منظمة التحرير الفلسطينية أصبحت المنظمة نفسها تسابق الأطراف العربية الأخرى في تقديم التنازلات تلو التنازلات في مسيرة لم تنقطع منذ توقيع "**اتفاقية أوسلو**". وليس الغرض من مثل هذا السرد التاريخي أي نوع مما يسمى "**إعادة الاعتبار للسادات**"، فالتسوية جسر عبره العرب جميعًا وهم على قناعة تامة بأنه أجدر بأن يحرق!

وهذا مربط الفرس.

التوازن المختل

فتوقيع اتفاق تسوية بين أي طرف عربي وبين الكيان الصهيوني ترجمة لتوازن قوى شامل بين الطرفين "**عسكري اقتصادي سياسي تقني**"، ولحظة التوقيع ليست إلا اعترافًا بهذا التوازن الذي صنعته سياسات وممارسات واختيارات عبرنا فيها جسورًا كان أن نحرقها

وأحرقنا أخرى كنا في أمس الحاجة إلى أن نعبرها، فنحن نجزع لمرارة "**الثمرة الخطأ**" لكننا لا ننزعج – أو لا ننزعج بالقدر الكافي – ونحن نرى شجرتها تنمو وتستطيل ويشتد عودها.

ومن مقتضيات الإنصاف أن نقرر أن الاختبار الذي وضع فيه النظام الرسمي العربي بقيام الكيان الصهيوني كان اختبارًا يبلغ درجة من الضخامة والتركيب لم يدركها في البداية كثيرون. وأن الأزمة في بدايتها لم تنجم عن اختلال في درجة التشدد أو الاعتدال في القرار السياسي بقدر ما كانت نتيجة عجز عن الوعي الذي يتصف بالإحاطة والشمول بالمشروع وتداعياته، كما أنه كان اختبارًا قاسيا لمجتمعات ذات تنظيم أقرب إلى البدائية وجدت نفسها فجأة أمام الآلة العسكرية الغربية ترتدي "**قفازًا يهوديًا**".

كما أن درجة مركزية المشروع الصهيوني في الوجدان والعقل الغربيين كانت تتكشف لنا نحن العرب صانعي قرار ومثقفين على السواء بالتدريج، ويكفي أن نذكر على سبيل المثال أن شخصًا مثل المصلح الإسلامي الكبير الشيخ رشيد رضا، وهو من هو تدينًا ووطنية، اتصل، في مرحلة مبكرة جدًا من المشروع الصهيوني، بقيادات صهيونية ودعاهم إلى نبذ فكرة "**الدولة الصهيونية**" والعيش في فلسطين مع سكانها العرب.

من يواجه من؟

وعلى المستوى الدولي، كان تضمين وعد بلفور ميثاق "**عصبة الأمم**" يعني إقرارًا من "**المجتمع الدولي**" بحق الصهاينة في إقامة وطن قومي في فلسطين، وهو أمر لم نتوقف عنده إلا مؤخرًا وهو أمر ورثته الأمم المتحدة. ويكفي أن نشير إلى بعد واحد من أبعاد التحدي الذي مثله وجود الكيان الصهيوني، هو أن هذا الكيان الصغير مساحة وسكانًا "**الحقير**" حسب تعبير أفلت من دبلوماسي فرنسي وأشعل معركة كلامية متوقعة.

هذا الكيان تبلغ قيمة ما تلقاه من الدول الغربية من "**المساعدات المعروفة**" والإحصاء يشمل المساعدات الرسمية التي قدمتها الدول وحسب 450 مليار دولار. فإذا

أضفنا إلى ذلك مساعدات أخرى منظورة وغير منظورة، وثالثة تختلف نوعيًا، أدركنا إلى أي حد كان النظام الرسمي العربي في مواجهة الغرب الذي كان قد خرج لتوه مزهوًا من الحرب العالمية الثانية، فهل كان إدراكنا للصراع على هذا النحو من البداية؟

والمشكلة أننا عندما أدركنا الصراع على نحو أشمل كانت فرص كثيرة قد ضاعت وأوضاع كثيرة قد استقرت وقضايا كثيرة قد تداخلت حتى أصبح من الصعب الفصل بين مسار الصراع وبين ما يحدث في عواصم عربية عديدة. ولم تقتصر صلة هذه العواصم بالشأن الفلسطيني على قدرتها على التأثير في القرار الفلسطيني، بل امتدت لتشمل انتقال أمراض سياسية منها للمؤسسات الفلسطينية، أو على الأقل حال وجودها في هذه العواصم دون أن تمنع ظهورها في السلطة الوطنية التي نشأت برعاية عربية وكانت امتدادًا لكيان آخر نشأ ونما عربيًا.

نظرية "الفساد البناء"

فهل كان وجود الفساد في الواقع العربي مبررًا للتساهل مع فساد السلطة؟ وربما يكون ضروريًا أن نتساءل الآن: لماذا لم تربط أية عاصمة عربية علاقتها بعرفات ودعمها إياه بموضوع "**الشفافية**" داخل المنظمة أولا ثم السلطة الوطنية؟ وربما كان من المضحكات المبكيات أن أحد المثقفين المصريين المرموقين كان يرى أن فساد السلطة الفلسطينية "**فساد بناء**".

فلم يكن الفساد الذي يتحدث الكيان الصهيوني عن استشرائه في السلطة مفاجأة لأحد، ويعلم ذلك كل من له أدنى دراية بالأوضاع داخل الأرض المحتلة، بل كان منذ سنوات موضوع تقارير صحفية ورسمية عديدة تداولتها أجهزة الإعلام العربية وغير العربية.

والمفارقة فيما يحدث أن الفساد "**مشكلة عربية**" بجدارة صحيح أنه يتفاوت من مكان لآخر لكنه منتشر بشكل كبير نسبيًا، وكثير من المتعاطفين مع القضية الفلسطينية كانوا يرون أن وجوده في المجتمعات العربية مشكلة، أما وجوده في صفوف حركة تحرر وطني فهو كارثة.

وعندما حوصر عرفات في مقره في رام الله كان كثير من المثقفين العرب يرون أنهم "**مضطرون**" للتضامن معه، بعضهم لم ينس خطيئة أوسلو وبعضهم لم يتجاهل فساد السلطة الوطنية، لكنهم كانوا مضطرين للتضامن معه باعتبار أنهم بين خيارين أحلاهما مر: فهل أصبح الاختيار بين المر والأكثر مرارة سمة بنيوية من سمات السياسة العربية؟

يهود فرنسا بين الانكماش والذوبان ([51])

تشهد علاقات الكيان الصهيوني بأوروبا تحولات ملموسة منذ اندلاع انتفاضة الأقصى، وقد تركت الانتفاضة بصماتها على هذه العلاقات وعلى أوضاع الجماعات اليهودية في أوروبا، وبخاصة الجماعة اليهودية في فرنسا، وعلى صفحات "**البيان**" سبق أن عالجت الظاهرة في سياقيها الفرنسي والأوروبي في مقالين هما: "**قراءة متأنية في أزمة يهود فرنسا**" (24 مارس 2002)، و"**من المجال الحيوي إلى مساحة الحياة**" (9 ابريل 2002)، محاولًا رصد تحولات موقف كل من الطرفين من الآخر. ولا تزال القضية تتفاعل وتستحوذ على اهتمام المراقبين.

ولارتباط التحولات في هذه العلاقة بالصراع العربي الصهيوني والانتفاضة أهمية خاصة، إذ تؤكد الشواهد أن للمقاومة الفلسطينية في الأرض المحتلة مردوداتها السياسية الإيجابية التي تتجاوز حدود فلسطين نفسها، على عكس ما يصور كثيرون ممن يتحرشون بالمقاومة المسلحة من المثقفين والرسميين العرب.

ومن الحقائق المثيرة أن جان كارلو شفالير الذي تسلم مهام منصبه سفيرًا للاتحاد الأوروبي لدى الكيان الصهيوني بعد نشوب انتفاضة الأقصى بأيام قليلة، صرح في حوار أجرته معه جريدة **يديعوت أحرونوت** الإسرائيلية بأنه ذهل من حجم كراهية الإسرائيليين لدول الاتحاد الأوروبي، وهو يرجع الكراهية إلى العقل اللاواعي للإسرائيليين المرتبط بإرث الكارثة التي حلت باليهود على يد النازية.

([51]) **نشر في 20 /8/ 2002.**

وذهول الديبلوماسي الأوروبي مؤشر مهم على أن تحت رماد العلاقات الإسرائيلية الأوروبية وميض نار يوشك أن يشتعل في أية لحظة، ومحاولات محاكمة شارون في بلجيكا والمواقف العدائية من جانب اليمين الأوروبي المتطرف وهو قوة صاعدة، كلها تنتظم في هذا السياق وإن لم تتحول بعد إلى موقف متبلور.

ومن ناحيتهم يثير صهاينة فرنسا قضايا مثل الاعتداءات المتفرقة على بعض المعابد اليهودية وما يعتبرونه عودة عامة لمعاداة السامية ومعاداة اليهود التي ارتبطت في أوروبا دائما بصعود التيارات القومية المتطرفة. وبسبب اختلاف ردود فعل الشرائح المختلفة من أعضاء الجماعات اليهودية تنشأ وتتكرس بالتدريج تيارات متصارعة داخل الجماعة اليهودية الواحدة، وهو تحد أخر فرضته الانتفاضة المباركة على صهاينة الداخل والخارج على السواء.

وفي عددها الأخير نشرت صحيفة "**لوموند**" الفرنسية مقالًا مهمًا يلقي الضوء على جذور الظاهرة وتأثيراتها على الجماعة اليهودية في فرنسا. ويرصد المقال تأثير سياسات شارون في أوضاع يهود فرنسا فهي تنمي بين الفرنسيين قلقا ولّد نوعا من الانكفاء على الذات، تارة، وطورًا شيئًا من العدائية. وتتغذى هذه الحالة من عوامل عديدة داخلية وخارجية، لكن هناك ما هو أكثر من ذلك، وهو الخوف على مستقبل اليهودية نفسها وهي تعيش بين الانكماش والاستيعاب.

وتلقي إشكالية الهوية اليهودية بظلالها على الجماعة اليهودية في فرنسا كما في الكيان الصهيوني فبينما يقدرون بحوالي سبعمائة ألف، لا يزيد من تربطه منهم علاقات بـ "**المجمع اليهودي**" أو إحدى الجمعيات المنضوية في إطار المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا عن مائة ألف.

ومن المؤشرات التي تشهد ارتفاعا مقلقا في كل المجتمعات الغربية المتقدمة نسبة الزيجات المختلطة، أي الزواج من غير اليهود، وهي في حالة يهود فرنسا تشهد تراجعًا ملحوظًا. وإذا أضفنا إليها مؤشرات أخرى مثل تكاثر المعابد والمدارس اليهودية، فيمكن

القول بأننا أمام نشأة ذاتية للغيتو، وهناك أيضا الرغبة في العيش بين الأهل يمكن تلمسها في بعض المدارس اليهودية التي تتمتع بالحراسة وهو ما يعكس ازدياد أجواء الحذر منذ أصبح بعض الطلاب الذين يرتدون القلنسوة اليهودية يتلقون الشتائم يوميًا تقريبًا.

وما يبدو أن ظاهرة العودة إلى اليهودية أو تجدد التهود لا تشمل إلا أقلية في العقود الأخيرة ، فمنذ أسسها هنري هايدنبرغ عام 1973، وهي محدودة الانتشار، لكنها عقب انهيار الاتحاد السوفييتي عملت على إعادة الاستقرار للهوية المهزوزة بعد أن كان كثيرون يتكئون على الالتزام الشيوعي أو الاشتراكي الذي يتجاوز اليهودية. ولظاهرة تجدد التهود بعد مهم يتصل بدور اليهود ذوي الأصول العربية فيه وهو يتزامن مع ازدياد الأهمية النسبية للفئة نفسها داخل الكيان الصهيوني.

فتوافد اليهود من المغرب العربي وبخاصة الجزائر، بدءًا من الستينيات، قلب أوضاع الجماعة اليهودية في فرنسا وزعزع موقع الإشكيناز الذين كانوا الأكثرية حتى ذلك الوقت كميًا ونوعيًا. والمغاربة منهم حملوا معهم ديانة شعبية فأحيوا اليهودية الفرنسية رغم تواضع مستواهم الثقافي، ورسخ توافدهم المجمع اليهودي. ويعد عام 1967 رمزًا لعملية نشوء اليهودية الفرنسية الحديثة، إذ كانت المرة الأولى التي ينزل فيها اليهود إلى الشارع بهذه الصفة.

وتجدد التهود الذي بدأ في أواخر الستينيات استند إلى ثلاث دعائم أساسية هي: الدين والتضامن مع الكيان الصهيوني وذكرى الهولوكوست. والتضامن مع الكيان الصهيوني يثير قضية الانتماء المزدوج وهي شديدة الأهمية، ويعبر عن ذلك أحد المتدينين اليهود بقوله: "**إنني أعيش هذا الصراع الداخلي. فأنا فخور باندماجي وثقافتي الفرنسية، وبيهوديتي وتعلقي (ليس دون شروط) بدولة إسرائيل وترعبني فكرة اتخاذ فرنسا موقفًا متشددًا ضد هذا البلد، ولا أدري ماذا سأفعل**".

وشعور التضامن مع الكيان الصهيوني لا يعني قبول كل سياساتها، وأحيانًا تكون له مفارقاته، فالرأي العام في أوساط يهود فرنسا هو في الغالب أكثر بعدًا عن الواقعية من الرأي العام الإسرائيلي الذي يواجه الوقائع مباشرة، فقبول فكرة قيام دولة فلسطينية مثلًا يبدو هناك (داخل الكيان الصهيوني) أكثر سهولة منه هنا!

وبصفة عامة فأصوات المتطرفين هنا أكثر من أصوات المعتدلين. ويلقي البعض باللائمة على اليهود الذين يتخذون مواقف مناهضة لسياسات شارون لكن من خارج إطار الجماعة، فهم بذلك يتركون مكانهم فيها لأنصار شارون! ولذا تتحرك الجماعة اليهودية إلى أسفل لا إلى أعلى!

"لوبي" العجز العربي ([52])

"**اللوبي**" مصطلح سياسي متخصص شاع في الخطاب العام حتى كاد يكون كلمة دارجة، ومعناه في عالم السياسة "**جماعة ضغط**" ويعد اللوبي سمة من سمات الديمقراطية الأمريكية التي توصف في الأدبيات السياسية بأنها ديمقراطية جماعات الضغط، حيث لا تقل جماعات الضغط أهمية عن الأحزاب بل قد تفوقها أهمية.

والتدافع السياسي الحقيقي في الولايات المتحدة هو بين جماعات الضغط العديدة. أما الحزبان السياسيان الأمريكيان الكبيران (الديمقراطي والجمهوري) فهما مدرستان لتخريج رجال قادرين على ممارسة الحكم. وتجربة التداول بينهما تشير بقوة إلى اقتراب برنامج كل منهما من الآخر، حتى صار الحديث عن زوال الفروق بينهما حديثا مكررًا في السنوات الأخيرة، وهو ما عكسته بقوة أزمة انتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة التي خاضها الناخب الأمريكي مكبلا بالحيرة الشديدة، فجاءت على النحو الذي تابعه العالم.

ولكون الحزبين الكبيرين لا يعبران – في حقيقة الأمر – عن تعددية سياسية تحكمها الاختلافات النظرية التقليدية، حتى حسب التصنيفات الراسخة في علم السياسة الغربي المدرسية (يمين، يسار، وسط)، فإن التعددية الحقيقية في السياسة الأمريكية هي تعددية مصالح تعبر عنها جماعات الضغط. ولكثرة ترديد كلمة اللوبي مضافة إليها صفة "**الصهيوني**" يعتقد كثيرون أنه جماعة الضغط الوحيدة على ساحة السياسة الأمريكية، رغم

([52]) **نشر في 23/ 1/ 2002.**

أن هناك جماعات ضغط تمثل مصالح العديد من الفئات (لوبي البطاطس – لوبي تجارة الأسلحة – وهكذا).

أما مسمى "**اللوبي الصهيوني**" فينطبق على عدد ضخم من المؤسسات تستعين بأعداد كبيرة جدا من المتطوعين والمتفرغين وتنفق مئات الملايين من الدولارات سنويا وتستخدم مئات الوسائل – المشروعة وغير المشروعة على السواء – للتأثير في صانع القرار.

أي أن هذا اللوبي الصهيوني يصنع قدرته على التأثير من خلال جهود كبيرة لا من خلال مؤامرة غامضة تدور سرًا في غرف مظلمة وغني عن القول تأكيد أن أهدافه رغم هذا الجهد تظل أهدافًا غير مشروعة المفارقة الأكثر إثارة، وهي مفارقة لا يعرفها الكثيرون أن "**لوبي البطاطس**" مثلًا في الولايات المتحدة لا يقل حجمًا ولا تأثيرًا عن اللوبي الصهيوني.

وتعبير "**اللوبي الصهيوني**" تجاوز مرحلة الانتشار الواسع في كل شرائح المجتمع العربي ليتحول من كلمة شائعة إلى "**صيغة سحرية**" قادرة على تفسير كل شئ والولايات المتحدة الأمريكية . وفق هذه الصيغة السحرية – ليست سوى فيل ضخم (ولا بأس أن نضيف أنه غبي) يتحكم فيه تماما هذا الفأر الصهيوني (ولا بأس أن نضيف أنه عبقري) وبهذا التبسيط المريح نصبح أمام عدو لا يمكن أن يقهر.

فمن العبث أن نتصور أن قوة في العالم العربي – رسمية كانت أم شعبية – يمكن أن تهزم هذا اللوبي الخارق. وضمنا تستحق الولايات المتحدة نفسها أن نعتبرها "**مسكينة**"، فهذا اللوبي الجهنمي لم يترك لها حرية أن تختار، فهي مخترقة مستلبة، مجرد ضحية تحتاج من ينقذها، وكما يقولون "**فاقد الشيء لا يعطيه**"، وبالتالي لا معقولية لأن يتوجه أحد إلى الضحية مطالبًا إياها بأن تنقذ ضحية أخرى هي فلسطين**!!**

وبالسهولة نفسها التي ننطق بها كلمة لوبي نتجرع هذا التفسير البسيط بساطة الانتحار، فهذا اللوبي الخارق مسيطر على كل المفاتيح وما تؤدي إليه هذه القناعة من نتائج على المستوى العربي لا يقل خطورة.

فوفقا لهذا المنطق في التفكير والتفسير يكون ما وصل إليه حال المنطقة العربية على كل المستويات نتيجة مباشرة لإحدى مقدمتين: الأولى: أن واقع الفقر والتخلف فرضه علينا الغرب نتيجة سيطرة اللوبي الصهيوني عليه وتقع مسئوليته على القوى الاستعمارية وحدها، ومن ثم فهو وضع لم تشارك في الوصول إليه سياسات رسمية عربية فاشلة وثقافات بررت القهر و الفساد وكل ما نحتاج إليه بناء على ما تقدم أن يتخلى الغرب عن تآمره علينا، وعندئذ نصبح، على الفور، أعظم أمم الأرض!

الثانية: أن الغرب اخترقنا حتى النخاع وسلم مقدراتنا للوبي الصهيوني، فإذا تخلصنا من هذا الاختراق أمكننا أن نصبح أعظم أمم الأرض!!

ونحن حسب تصور الفريقين أعظم أمم الأرض، ولسنا أقل من ذلك بأي حال!! والتصور الأول غاضب صاخب يعبر عنه أصحابه في خطاب صدامي حاشد.

والثاني تصور تبريري مذعن وهو غالبًا هامس، فهو حديث الغرف المغلقة ينقله الثقاة إلى الثقاة سرًا حتى لا يتسرب إلى اللوبي الصهيوني المتغلغل في كل شبر!

وكلاهما للأسف الشديد لا يعبر عن حالة إنسانية سوية، فليس بإمكان أحد (ولا أمة) أن يكون حديثه همسًا دائمًا أو صراخًا غير منقطع. ومما يجافي المنطق والأمانة تصور أن هذا الكلام يعني التهوين من شأن اللوبي الصهيوني فهو بكل المعايير واحد من نماذج النجاح الكبيرة في تاريخ السياسة الأمريكية، لكن نجاحه ليس معجزة تترك الألسنة معقودة والعقول مشدوهة، بل هو تجربة إنسانية يجري عليها ما يجري على كل شأن إنساني من القصور والنقص، ومن الطبيعي أن يكون بها ثغرات يمكن النفاذ منها ونقاط ضعف يمكن توجيه الهجوم إليها. وفي التقييم النهائي يمكن هزيمتها ولو على المدى البعيد.

واختصار الغرب كله – أو حتى الولايات المتحدة – في اللوبي الصهيوني يبعدنا عن معركتنا الحقيقية في مواجهة عدونا الأكبر "**لوبي العجز العربي**" هذا الذي يسجن قدراتنا ويجعل القسم الأكبر من نتاجنا الثقافي والسياسي قصائد عصماء تتوزع على غرضين من أغراض الشعر العربي لا ثالث لهما: البكاء على الأطلال وهجاء الدهر.

فالتغيير نحو الأفضل يعني مواجهة الذات بالقدر نفسه الذي يعني مواجهة الآخر، وهو ليس قرارًا سياسيًا فوقيًا بل تغيير ثقافي اجتماعي عميق ينضج عبر مراحل ممتدة وهذا اللوبي وحده هو الذي يمكن أن يوصف بأنه القوة الأكبر في الواقع العربي، وهو يسيطر – لا على القرار السياسي وحسب – بل على الفعل العربي كله: السياسي، والثقافي، والاجتماعي على السواء.!

سيرة ذاتية .... ممدوح الشيخ

عضو اتحاد كتاب مصر.

أولاً: ترجمات في معاجم وموسوعات

**** ترجمة في الطبعة الأولى من: معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، (مؤسسة البابطين، الكويت).**

**** ترجمة في الطبعة الأولى من: معجم أدباء مصر، (الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر).**

**** ترجمة في الطبعة الأولى من: الموسوعة الكبرى للشعراء العرب المعاصرين: 1956، 2006، إعداد وتقديم: فاطمة بوهراكة، المغرب، 2009، برعاية الشيخة أسماء بنت صقر القاسمي.**

**** ترجمة في الطبعة الأولى من: معجم الأدباء: من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2002، 1424 هـجرية.**

مؤلفاته وترجماته من الإنجليزية إلى العربية

أولاً: الترجمات من الإنجليزية إلى العربية:

علم نفس وادي السليكون، كاتي كوك، 2020، (تحت الطبع).

رأسمالية مصاصي الدماء، المجتمعات المنقسمة والمستقبلات البديلة، باول كينيدي، 2018، (تحت الطبع، مدارات للنشر، مصر).

الدين والرئاسة الأمريكية، مجموعة مؤلفين، 2017، (تحت الطبع).

العلمانية أصل الإرهاب والاستبداد الحديث، مختارات ترجمها وقدم لها، 2012، دون ناشر.

ثانياً: دراسات في الظاهرة الدينية

** المسلمون ومؤامرات الإبادة، مكتبة مدبولي الصغير، مصر، 1994.

** الإسلاميون والعلمانيون من الحوار إلى الحرب

الطبعة الأولى، دار البيارق، الأردن، 1999.

الطبعة الثانية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن.

** الجماعات الإسلامية المصرية المتشددة في آتون 11 سبتمبر: مفارقات النشأة ومجازفات التحول، مكتبة مدبولي، مصر، 2005.

** مراجعات الإسلاميين (الجزء الأول)، تأليف بالاشتراك، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الإمارات، سلسلة كتاب المسبار الشهري، العدد السادس والثلاثون، ديسمبر 2009.

** السلفيون من الظل إلى قلب المشهد، دار أخبار اليوم، مصر، 2012.

** دراما محمد رمضان والإرهاب: الملائكة والشياطين والعدالة الناجزة، توزيع: مكتبات أخبار اليوم (مصر)، 2019.

ثالثاً: مؤلفات إبداعية منشورة

** نقوش على قبور الشهداء، ديوان شعر، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر، 1996.

** الحلم المسروق (ديوان شعر بالعامية)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر، 2003.

** الندى والموت (ديوان شعر)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر، 2003.

** عاصمة للبيع (مسرحية)، دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة، دولة الإمارات، 2000.

** القاهرة.. بيروت.. باريس (رواية)، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2006.

الطبعة الثانية، مكتبات سمير منصور، غزة، فلسطين المحتلة، 2021.

** إن الغريب حزين حيثما كانا: سيرة لم يكتبها موسى ابن ميمون (رواية)، توزيع: مكتبات أخبار اليوم (مصر)، 2019.

رابعاً: مؤلفات أخرى منشورة

** أشهر الأحلام في التاريخ، مكتبة ابن سينا، مصر، **1993**.

** التنبؤات والأحلام من الخرافة إلى العلم، دار التضامن، لبنان، **1996**.

** ثقافة قبول الآخر، مكتبة الإيمان، مصر، مكتبة جزيرة الورد، مصر، **2007**.

** مدخل إلى عالم الظواهر الخارقة، مكتبة بيروت، سلطنة عمان، شركة دلتا، مصر، **2007**.

** التجسس التكنولوجي: سرقة الأسرار الاقتصادية والتقنية (دراسة في المجتمع ما بعد الصناعي)، مكتبة بيروت، سلطنة عمان، شركة دلتا، مصر، **2007**.

** ثقافة السلام، دار ومكتبة الغد، مصر، **2009**.

** عبد الوهاب المسيري: من المادية إلى الإنسانية الإسلامية، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، رقم 7، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، لبنان، الطبعة الأولى **2008**.

** طارق البشري؛ القاضي.. المؤرخ.. المفكر.. وداعية الإصلاح، سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، لبنان، الطبعة الأولى **2011**.

خامساً: تأليف بالاشتراك

** الحوار مع الآخر: المنطلقات والضوابط، سلسلة إصدارات مجلة الوعي الإسلامي، قطاع الشئون الثقافية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، **2006**.

** إيران – مصر: مقاربات مستقبلية، تحرير: توفيق شومان، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، سلسلة الدراسات الإيرانية/ العربية، رقم 1، الطبعة الأولى، **2009**.

** يوميات الثورة المصرية، (تحرير: أحمد عبد الحميد)، مركز الجزيرة للدراسات، قطر، **2011**.

** الحركات الإسلامية في الوطن العربي، (إشراف: الدكتور عبد الغني عماد)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، **2013**.

** السعوديون الشيعة: الفكرة والإشكاليات، مركز صناعة الفكر، السعودية، **2015**.

** المجتمع المدني السعودي ؛ الملامح.. والأدوار، مركز صناعة الفكر، السعودية، 2015.

** الليبرالية في السعودية (الفكرة، الممارسات، الرؤى المستقبلية)، مؤسسة الإنتشار العربي (لبنان)، مركز صناعة الفكر للدراسات والبحوث (السعودية)، الطبعة الاولى: 2013.

سادساً: أعمال حققها

** ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي (الشوقيات)، تحقيق، مكتبة الإيمان، مصر، مكتبة جزيرة الورد، مصر، 2007.

** ديوان الشاعر حافظ إبراهيم، (تحقيق)، مكتبة الإيمان، مصر، مكتبة جزيرة الورد، مصر، 2009.

سابعاً: أعمال أعدها للنشر أو حررها

اكتشف وأعاد نشر رواية: اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن للمغامر المصري حافظ نجيب، وهي الرواية التي اقتبس عنها المسلسل التلفزيوني المصري الشهير فارس بلا جواد. وقد قدم لها وألحق بها دراسة عن حياة مؤلفها.

** اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن (إعداد للنشر).

الطبعة الأولى، 1996، دار الحسام، لبنان، مصر.

الطبعة الثانية، دار الانتشار العربي، بيروت، 2003.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 8 مجلدات، لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر، 1998.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري، نسخة ميسرة ومختصرة (مجلدان)، دار الشروق بمصر بالاشتراك مع مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات، 2004.

** القمة الأمريكية السعودية الأولى: القمة السرية بين الملك عبد العزيز ابن سعود والرئيس روزفلت (البحيرات المرة، 1945)، (تقديم وتحرير ودراسة)، بقلم: الكولونيل: وليم إيدي

(أول وزير أمريكي مفوض بالسعودية)، ترجمة: حسن الجزار، مكتبة بيروت، سلطنة عمان، شركة دلتا، مصر، 2008.

** **دع القلق وابدأ الحياة، تأليف: ديل كارنيجي، إعداد وتقديم ودراسة، دار الحرم للتراث، مصر، 2009.**

** **كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس، تأليف: ديل كارنيجي، إعداد وتقديم ودراسة، دار الحرم للتراث، مصر، 2009.**

** **تربية المرأة والحجاب (ردًا على قاسم أمين)، تأليف: مُحَمَّد طلعت حرب (باشا)، إعداد وتقديم ودراسة، دار الغد للنشر، مصر، 2009.**

ثامناً: جوائز

** **جائزة مؤسسة اقرأ الخيرية، مصر، المسابقة الثقافية للشباب لعام 1991، المركز الثالث في مجال الشعر.**

** **جائزة مؤسسة اقرأ الخيرية، مصر، المسابقة الثقافية للشباب لعام 1992، المركز الثاني في مجال المسرح عن نص ما زال مخطوطاً.**

** **جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1999، عن قصيدة: "نقوش على قبر شهيدة".**

** **جائزة الإبداع العربي من: دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة في مجال المسرح (المركز الثاني) عام 2000، عن مسرحية عاصمة للبيع.**

** **جائزة أحمد فتحي عامر في مجال الشعر (المركز الثاني) من الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، الدورة الأولى، 2003.**

** **جائزة أحمد فتحي عامر في مجال الرواية (المركز الثالث) من الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، الدورة الثانية، 2004، عن رواية القاهرة، بيروت، باريس.**

** **جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من نادي جازان الأدبي بالمملكة العربية السعودية في المسابقة الثقافية لعام 1423هجرية، عن قصيدة: "بقصائدي ويقيني".**

تاسعاً: أعمال نقدية تناولت أعماله:

** "ممدوح الشيخ وعماد أو صالح شعاعان من شمس شعر تشرق"، منشور في: "كتابة: رؤى وذات"، صافي ناز كاظم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2003.

** "مقاربات نقدية في شعر ممدوح الشيخ"، تأليف الأساتذة: رمضان أبو غالية، صبري عبد الرحمن، أحمد مرسال، سامح القدوسي، إصدارات نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا، مصر، 2004.

** رسالة ماجستير عن مسرحيته: "عاصمة للبيع" في: جامعة جنت البلجيكية، للمستشرقة البلجيكية ماريكي فان كرايسبليك، 2006. (قيد الترجمة)

عاشراً: مساهمات أخرى

** "دولة المنطمة السرية، فيلم وثائقي، (الفكرة والإعداد والمادة العلمية)، قناة الجزيرة الوثائقية، قطر، 2009.

** أعدَّ وقدَّم برنامج "المحفل"، قناة الحكمة (مصر)، مباشر، (2011).

** أعدَّ وقدَّم برنامج "من قلب الكيان الصهيوني"، قناة الحكمة (مصر)، مباشر، (2011).

** أعدَّ وقدَّم برنامج "ساعة من القاهرة"، قناة الاتجاه (العراق)، مباشر، (2011، 2013).

** أعدَّ وقدَّم برنامج "إسلاميون"، قناة فلسطين اليوم (لبنان)، مسجل، (2013 ، 2015).

** نشر له مقالات في دوريات داخل العالم العربي وخارجه، أهمها: جريدة المستقبل (اللبنانية)، جريدة البيان (الإماراتية)، جريدة عمان (العمانية)، جريدة الحياة (اللندنية)، مجلة المجلة (اللندنية)، مجلة الجديد (اللندنية)، جريدة الدستور (المصرية)، جريدة الوطن (المصرية)، مجلة اتجاهات الأحداث (الإمارات)، مجلة آراء حول الخليج (السعودية)، مجلة كلية الملك خالد العسكرية (السعودية)، مجلة الوعي الإسلامي (الكويت)، جريدة الفنون (الكويت).

** قُدِمت ورقته الفكرية: "ماذا أعطى الإسلام للبشرية؟" في أول مؤتمرات "اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء ﷺ"، (لندن، نوفمبر 2002).

** مشرف على تحرير الصفحة الدينية بجريدة الدستور، مصر (2005، 2008).

** عرضت فرقة مسرح دبي الأهلي الإماراتية مسرحية: "مملكة للبيع"، (إعداد وإخراج: عبد الله صالح) المقتبسة عن مسرحيته: "عاصمة للبيع"، دبي، يوليو **2009**.

** شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والثقافية في: مصر، لبنان، ليبيا، الإمارات، والعراق.

** شارك في عشرات البرامج التلفزيونية والإذاعية، الثقافية والسياسية في مختلف القنوات الفضائية المصرية والعربية.

** مدير المركز الدولي للدراسات والاستشارات والتوثيق (مصر)، **2013** – .. ..

تاريخ الميلاد : **14 / 8 / 1967**

الجنسية : مصري

** عضو اتحاد كتّاب مصر.

للتواصل:

E،Mail: mmshikh@hotmail.com

Contents